دراسة فى الاستخدام السياسى للدين

مدعو النبوة فى التاريخ الإسلامى

وليد طوغان

مطبوعات دار الخيّال

مدعو النبوة فى التاريخ الإسلامى

هذا الكتاب يستعرض ظاهرة مؤرقة فى الفكر الإنسانى أصابت أصحاب الأديان السماوية، تتمثل فى أن بعض معتنقى كل دين صنعوا دينا جديدا بعد فترة من الزمن وبمرور الوقت أصبح الدين المصنوع يكاد أن يكون هو التصور الباقى من الرسالة الأولى فى مواطنها الأول.

ولقد أصاب الإسلام بعض ما أصاب أصحاب الديانات السابقة فقد تراكم تراث سلفى صنع فى بعض الأحيان مفهوم دينى مغاير حتى وصل فى بعض الحالات إلى «إدعاء النبوة» وكان ذلك ظاهرة فكرية أكثر منها لوثة عقلية أصابت أصحاب هذه الإدعاءات.

كما أنه بعد جيل واحد من وفاة النبى ﷺ أصبحت الدولة الإسلامية إمبراطورية حقيقية وصارت الخلافة وراثية فى بداية الحكم الأموى عام ٦٦٠م. وأصبح الخليفة بالفعل والواقع امبراطورا مثل امبراطور فارس أو قيصر الروم. وركز رجال الخلفاء وفقهاء البلاط «الملكى» على وجهة النظر التى تؤدى - ولو ضمنا - إلى أن الخليفة يخلف النبى فى حقوقه، ودار الفقه الإسلامى حول الخليفة وحقوقه، بينما لم يعط إلا القليل من الاهتمام لحقوق المحكومين.

وخلال تاريخ الخلافة الإسلامية، كان التطبيق السياسى دائما ضد مصالح الناس. وأصبح العدل والمال والسلطة الدينية ملكا خاصا للخليفة، ومن حقوقه المطلقة ومن حقوق أبنائه.. ثم وزرائه.

والملاحظ انه بعد تعدد الفتوحات الإسلامية نشأ ما عرف فى التاريخ الإسلامى «بصراع القوميات والأعراق» ولقد استخدمت «النبوة» طبقا للمفاهيم السائدة كأداة لحسم هذا الصراع أو للتعبير عنه بشكل ما. ولقد ظهر ذلك جليا فى فتح بلاد فارس وتعاقب حكم الامويين والعباسيين عليها. والذين مارسوا أشد أنواع القهر النفسى والثقافى ضد مواطنى فارس. وكان محصلة هذا القهر.. خروج أكبر عدد من مدعى النبوة والألوهية من هذه البلاد.

والملاحظ ان الفتنة الكبرى التى بدأت بمقتل عثمان بن عفان لم تكن إلا صراعا بين الهاشميين وأبناء عمومتهم الأمويين، وقف فيه معاوية بن أبى سفيان الأموى ضد على بن أبى طالب الهاشمى، ولقد رسخ هذا حربا سياسية لا دخل للإسلام بها وهذه الفتنة هى المسئولة عن شرخ هائل فى المجتمع الإسلامى الى الان. وهى أيضا أحد أسباب ظهور الكثير من مدعى النبوة، بعد مقتل على على إثرها، وأسست لمقتل الحسين ابنه فى كربلاء.

الناشــر

دار الخيال - القاهرة - لندن

دراسة فى الاستخدام السياسى للدين

مدعو النبوة فى التاريخ الإسلامى

الطبعة: الأولى يناير ٢٠٠٤
رقم الإيداع: ١٨٦٧ / ٢٠٠٤
الترقيم الدولى: 2 - 38- 5979- 977

دار الخيّال: ٠١٢٣٢٩٠٦١٨ / ٠١٢٧٣٤١٥٠٧
فاكسيملى دار الخيال : ٧٩٦٢٢٤١
E-mail: Dar el Khial - egypt @ hotmail. com

□

دار الخيّال

□

تصميم الغلاف : محمد الصباغ .
خطوط الغلاف : لمعى فهيم
المشرف على الإنتاج : عماد حمدى .
طبــع : عربية للطباعة والنشر
العنوان : ٧ - ١٠ شارع السلام - أرض اللواء - المهندسين
تليفون : ٣٢٥٦٠٩٨ - ٣٢٥١٠٤٣
فاكس : ٣٢٩١٤٩٧

الفهرس

إهداء

للذين درسوا تراث الإسـلام ببعض الوعى ، فأزالـوا عنه بعض التراب

وليد طوغان

دراسة فى الاستخدام السياسى للدين

مدعو النبوة فى التاريخ الإسلامى

1

فى انتظار الموحد

دار الخيّال



الديـن بين مكة .. والمدينـة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾

صدق الله العظيم

«سورة الفيل.. مكية»

إذا أخطأ زيد المسلم ، لا يعنى هذا أن العيب فى شرع الله، إنما العيب فى أخلاق زيد التى إما أنها حولته لكافر بما أنزل الله ، أو أنه أقنع الناس وأقنع نفسه بعدما فسر ما أنزله الله ، بما يتماشى مع مصلحته الخاصة ، وعندما هاجم المستشرقون الدين الإسلامى ، واستطاعوا أن يحصلوا على عدة نقاط ووقائع وأحداث يطعنون فيه بها، لم يفطن معظمهم إلى أن ما يطعنون فيه ليس سوى تصرفات بشر مسلمين ، وليست ـ بالضرورة ـ هى الدين.

وإذا كان الخليفة الوليد بن عبدالملك .. فاجرا ، فاسقا، ماجنا، شاذا جنسياً فلا يمكن أن تحسب هذه الصفات على أنها من تعاليم الدين الإسلامى ، لمجرد أن الوليد محسوب بطريقة ما على المسلمين.

ربما ـ أيضاً ـ لم نفطن نحن إلى أننا وضعنا هالة من القداسة على التراث ، وعلى أشخاصه ، وعلى أحداثه ، دون أن يكون هناك داع ، ولا معنى. والغريب أنه كلما ابتعد الدين الإسلامى عن عصوره الأولى ، كلما تحول بزوايا منفرجة على أيدى التابعين لمجموعة من «الخيالات» و«التصورات» البعيدة كل البعد عن صحيح الدين ، وصحيح الخبرات الحياتية ، والطبائع الإنسانية.

المشكلة التى عانى منها كل الأنبياء ، أن التابعين صنعوا ديناً جديداً بعد فترة من الزمن. التراث وقصص التراث حولت الأنبياء لصورة جديدة تتناسب مع شكل مادة جديدة لدين جديد اخترعه الإنسان ، وبمرور الوقت .. بدا كما لو أن التواتر هو الأساس . وأن المنقول ـ مهما طالت الفترة ـ لابد أن يكون صحيحاً ، وبدا كما لو أن التراث هو مربط الفرس ، وكأن المتدينين المحدثين حُمّلوا ولم يحملوا.. وأصبحوا كالحمار.. يحمل أسفاراً.

فى العصر العباسى اختلف الفقهاء المسلمون فى حضرة الخليفة المأمون على حكم الرجل الذى صعد للشمس ، ولم يجد ماء للوضوء ، ولا ترابا للتيمم ، فهل تجوز صلاته؟!

وتساءل بعضهم هل لو صلى ، أيصلى بتوقيت بغداد؟ أم أنه يجب أن يسأل عن مواقيت الصلاة على الشمس؟!

نشبت معركة بين أطراف عديدة ، بعضهم قال أن الرجل لا صلاة له ، لأنه لا صلاة بدون وضوء ، وإذا كان يرغب فعلاً فى الصلاة ، كان عليه أن يأخذ معه ماء من الأرض قبل صعوده.

وقال آخرون أن الصلاة على الشمس ليست مستحبة ، لعدم ورود واقعة مشابهة لا فى السنة ولا فى الأثر.. وبالتالى فإن النصيحة أن يعود الرجل للأرض ، فيتوضأ ويصعد للشمس من جديد على وضوء.

فيما أكد آخرون أن الذى صعد للشمس لابد أنه قد صعد «للجهاد»... فلا يوجد من يتحمل حرارة الشمس وقيظها من المسلمين إلا أن يكون قد نذر نفسه لمهمة جليلة خاصة بالإسلام والمسلمين ، وعليه فلا صلاة له حتى يعود ، فإذا مات أو قتل ، فهو حى عند ربه ، يرزقه ويطعمه وهو مع الأبرار والشهداء ولا يضار بعدم صلاته (!!).

عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ سأل ابن عباس: «فيما يختلف المسلمون بعدنا ؟!

فقال ابن عباس بأنه سوف يأتى يوم يقرأ المسلمون القرآن ولا يعرفون فيما نزل ، فيؤولونه كل حسب ما يرى ويعتقد ، ثم يختلفون فيما أوّلوا لأنهم لا يعرفون أسباب نزول الآيات ، فيتقاتلون فيما اختلفوا فيه.

وقال على بن أبى طالب: «إن القرآن حمّال أوجه» ، تحمل آياته أكثر من معنى أو تحتمل هذا وذاك ، كل حسب معرفته لأسباب نزولها، وطبيعة نزولها وظروف نزولها ، وكل حسب اقتناعه ، لهذا حرص الصحابة والجيل الأول والثانى ممن تبعهم على معرفة أسباب التنزيل. فإذا سُئلوا عن آية لا يعرفون سببها، سكتوا عن تفسيرها، وقالوا للسائل: اتق الله وعليك بالسداد ، فقد ذهب الذين يعلمون فيم أنزل القرآن.

ومع أن «فقهاء» العباسيين «أصحاب قضية الشمس»، لم يكونوا يفسرون القرآن ، إلا أنهم كانوا ينفذون سيناريو أتقنه المسلمون. منذ وفاة النبى ﷺ. حتى وقتها. السيناريو المسئول عن كل ما أحاط سمعة الدين الإسلامى بالغيوم.

❑

قبل البعثة المحمدية بعصور.. اشتهر العرب بالتجارة وتحولت الجزيرة العربية بكل نواحيها لقوافل من الإبل، وظهرت طرق وحركات تجارية كثيرة ، انتهت لطريقين تخللا الجزيرة العربية ؛ طريق من الشمال للجنوب والطريق الآخر يخترق الجزيرة العربية بالعرض ، من البحر الأحمر للخليج العربى ماراً بمكة وينتهى بدبى ومسقط.

ولما احتل الفُرس اليمن ، استطاعوا بسهولة السيطرة على أى نشاط بحرى يمر بباب المندب أو ساحل البحر الأحمر الجنوبى ، أملاً فى إضعاف التجارة العربية ، وطمعاً فى امتلاك مزيد من أراضى الجزيرة العربية ، لذلك انكمش النشاط العربى البحرى ، حتى كاد أن ينتهى وتحولت التجارة للطريق البرى ، الذى تطور ، شيئاً فشيئا، وأصبح مركزه مكة ، ويمكن القول أن مكة كانت استراحة الطريق البرى الأساسية ، والسبب أن نفوذ القوى الأجنبية فى الجزيرة العربية (الفرس والروم) لم يستطع أن يطول مكة ، قلب الجزيرة المحصنة جغرافياً ، وكأن أهل مكة راهنوا على الجغرافيا، فمكة تحيطها الجبال من كل جانب ، بما يمنع أى محتل من التفكير فيها ، إذ أن جيشه ـ من الناحية العسكرية ـ يكون مكشوفاً قبل دخوله أو الوصول لحدودها بثلاثة أيام.

ولأن الطريق البرى للقوافل التجارية طويل وخطير ، استطاع العرب تجهيزه بمحطات

واستراحات محاطة بالحرس والعناية والنساء ، فتخرج القوافل فى أوقات معينة ، وبأعداد معينة وتمشى فى طرق محددة لتصل بسلام.

كان التنظيم على بدائيته ، شرارة لتحول خطير ، فبعد فترة انتهت سطوة اليمنيين التجارية فى الجنوب ولم يعودوا يتقاسمون السمعة مع عرب الشمال ، وانتهز العرب فى الشمال الفرصة ، فاشتروا السلع والبضائع من أهالى اليمن ومن الأحباش ، وباعوها فى الأسواق المصرية والشامية ، وبأسعار رخيصة كوسيلة لجذب الزبائن للأسواق العربية فى مكة ويثرب ، الأمر الذى أدى لمحاولات يمنية عديدة لاحتلال مكة ويثرب ، أهم معاقل تجارة العرب ونفوذهم.

وربما كان النشاط العربى فى تلك الفترة التاريخية بالذات السبب الرئيسى الذى أدخل الملوك اليمنيين عدة حروب مع قبائل يثرب (المدينة) الأوس والخزرج ، وقبائل مكة ، حتى أراد أحد هؤلاء الملوك أن يهدم الكعبة أكثر من مرة.

وهو نفس السبب الذى جعل الأحباش يخططون لحرب «الفيل» ، فقد وجد أبرهة ـ الملك الحبشى ـ أن نفوذ العرب التجارى فى نفوذهم الدينى ، ونفوذهم الدينى فى كعبة مكة ، لذلك أراد أن يهجم على الكعبة بجيشه من الفيلة ، ولكنه عاد دون أن يفعل أو لم يستطع أن يفعل، فقد مرض جيشه بالجدرى[١]، وأصيب أبرهة نفسه .. فعاد من حيث أتى.

وفى اليمن.. وقف اليهود ضد المسيحيين فتحالفت الحبشة ـ منافس اليمن القوى ـ مع الروم ، واعتنقت المسيحية استمداداً للدعم الرومى فى حربها مع الفرس الذين يجهزون لإحتلال اليمن الذى تحول لبؤرة صراع ملتهب بين الفرس والروم أو صراع بين المسيحية التى يدعمها الروم واليهودية التى تدعمها فارس.

وفى ظل الصراع القوى ، فشل الفرس فى إخضاع الحجاز ، أو عقد أى معاهدات مع أمرائه أو رؤوس قبائله ، وبدأت الدفة تشبت للعرب ، الذين انشغل عنهم الفرس والروم بالصراع على مضيق باب المندب ، وكلما زادت حدة الصراع ، كلما زادت أهمية الطرق التجارية داخل الجزيرة وخاصة الطرق التى تمر بمكة والمدينة.

كان يمكن ليثرب أن تصبح مدينة ذات مكانة بالمقارنة بمكة ، لكنه لم يحدث لأن الخلافات الداخلية بين «الأوس» و«الخزرج» (أهم وأكبر قبيلتين يثربيتين) عصفت بالمدينة،

خصوصاً أن تواجد اليهود بكثرة بين القبيلتين كان سبباً فى أن تبدو يثرب على أعتاب دمار كامل.

لكن ظهور عبدالله ابن أبى بن سلول أخّر الدمار، وعدّل الاتجاه ، فقد فهم الرجل طبيعة «الأوس» و«الخزرج». و بدأ فى إعداد نفسه ملكاً متوجاً عليهما وعلى المدينة كلها قبل هجرة النبى ﷺ بفترة قليلة.

ولم تكن مكة بعيدة ، ولم يكن كبراء أهم قبائلها (قريش) بعيدين هم أيضا ، فقد كانوا فى ترقب كى تموت (يثرب) المدينة ، ويموت معها أى أمل فى منافسة قوافل وطرق وتجارة مكة ، لذلك تحالفوا مع قبيلة «الأوس» ضد «الخزرج» (وهو ما جعل الخزرج تتحالف فيما بعد مع النبى ﷺ ضد قريش)، وأمدوها بالسلاح والعتاد.

وانتهى الأمر بنهاية القرن السادس الميلادى ، مكة شابة راشدة ثرية ، أتاحت لها كل الظروف أن تجمع خيوط وخطوط التجارة ولوازمها فى يدها ، وزاد من دعم ثقتها بنفسها الصراع الضخم والمستمر بين الفرس والروم .. وفهم القريشيون أنه لابد لشخص ما أن يقوم برعاية سُبل وقوافل التجارة فى الجزيرة العربية ، ولما نجحت مكة بفضل جهود كبرائها فى تطويع الأمور ، اكتسبت احتراما عربيا كبيرا ، وتحول أهلها من بدو ككل البدو العرب إلى سادة وأشراف ، وباتوا مؤهلين لنقلة من نوع جديد ، مقتنعين أن مكة بقبائلها الكثيرة مؤهلة لكى تكون أول «لبنة» فى قيام قومية عربية بشكل وطريقة لم تكن متوقعة ولا معروفة من قبل.

قريش أول من انتبه واستوعب الأحداث ، فاستقرأت المستقبل ، وخططت ، ودعمت تخطيطها بسياسة معينة ، وحرصت على استمرارها ، وكان الدين أولى الخطوات ، والدين يعنى الله. والله يعنى بيت الله. وبيت الله هو كعبة مكة.

❑

القبيلة «عصبية وثأر»، والعصبيات تعنى حروبا ، وتعنى أيضاً أبطال حرب اتصفوا بالشجاعة والإقدام ، ثم ماتوا وتحولوا «لذكرى مقدسة». ولم يكن هناك بد من أن تقيم الأجيال الجديدة تماثيل لهؤلاء الأبطال ، الذين انتقلت بطولاتهم عن طريق (حكايات الأجيال المنقولة) (أو التواتر) بمبالغة شديدة ، لتتحول هذه التماثيل بعد فترة لملاذ يلجأ إليه الأحفاد طلباً للحماية والمدد.

واعتـقد العـربى ـ بحكم عقـليته الـبدائية ـ أن الأجـداد الموتى لأنهم صـالحون ، ولأن أرواحهم لم تمت ، فإن لديهم قدرة ما على تقديم جزاء الدعاء ، وقدرة على منع الشرور ، مما يعنى أن تماثيل الأجداد قادرة من خلال الأرواح على المساعـدة واستمداد العون من رب السماء بعد توصيل دعاء أهل الأرض ، واعتقدوا أن تماثيل الأبطال والأجداد القدماء بوابة وصـول الدعاء لله .. «رب السـمـاوات» كمـا كانـوا يسمـونه قـبل الإسلام ، ولم تخـرج التماثيل عن أنها شفعاء ، أقل مرتبة من الإله الواحد.

ولأجل تماثيل الصالحين أقيمـت بيوت العبادة ، وتعددت الكعبات ، فـقد كانت بيوت الشفعاء ـ كمـا استقر عُرف القبائل البدوية ـ تقام على شكل أبنيـة مكعبة الشكل ، سُميت كـعبـة[٢]. وفى أحيان أخرى احـتفظت القبائل بأحجار مقدسـة (أحجار نيازك وبراكين) داخل هذه الكعبات ، واعتقد البدوى أن أحجار النيـازك لأنها قادمة من السماء فهى قادمة من عند الرب[٣] ، فهى تنزل من الفضاء ،أكد هذا الاعتقاد أن «النيزك» يشتعل فور دخوله المجال الجوى للأرض ، ولابد أن هذه النار إشارة مبعوثة من عند الله لطمأنة أهل الأرض.

فيـما كـانت أحجـار البراكين رسـالة من الأجداد الصـالحين ، لأنها خارجـة من باطن الأرض ، نفس المكان الذى دُفن فيـه الأجداد منذ زمن بعيـد ، وقد ثبت مؤخـراً أن المنطقة العربية مـكان لبراكين قديمة متناثرة ، وعلمـاء نقد التوراة أكدوا أن «عـمود الدخان» الذى قالـت التوراة أن مـوسى النبى قد شـاهده هو وأهله وهم خارجـون من مصـر لم يكن إلا بركانا ثائرا فى صحراء سـيناء ، شاهده قوم موسى بعد عبورهم البحـيرات من أمام منطقة تل المسخوطة» على حدود مدينة الزقازيق الحالية[٤].

مع تعدد الأحـجار السوداء .. تعـددت الكعبات ، واسـتقر عـرف الحج لدى العرب ، يطوفون حول الكعبات ، ويذبحون الذبائح ، ويقـدمون لها النذور والهدايا. ومن الكعبات المشهـورة فى ذلك الوقت «كعبـة اللات» وكعـبة «نجران» وكـعبة «غطفـان» وكانت هناك أيضاً «كـعبة ذى الشـرى» و«كعبـة ذى غابة»[٥] وحـتى الآن نقول أن فـلان عندما يصـيح ويعلو صوته أنه مثل «ذى غابة»... وقد نسبـنا الصياح وارتفاع الصوت لهذا المكان ، وربما السبب أن التاريخ يحكى أن كعبة «ذى غابة» كـانت من أكثر الكعبات التى يضحى عندها الناس بأولادهم رغـبة فى رضـاء الرب ، وسط صـياح الأمـهات ودمـوع الأباء ، وتراتيل الكهنة.

وعُرفت الكعبات ـ قبل الإسلام أيضاً ـ بالبيـوت الحرام ، التى يحرّم فيها أى دم ما عدا

دماء النذور والأضحيات فى مواسم الحج المعروفة التى غالباً ما تشترك فيها القبائل كلها، أو مجموعة من القبائل فى نفس الوقت ، حيث يحلق الرجال شعورهم ، ويقلمون أظافرهم ؛ وتغطى النساء شعورهن(٦).

ولما جاء الوقت الذى تغلبت مكة فيه على منافستها الوحيدة يثرب ، واستطاع أشراف مكة أن يجعلوا من مدينتهم ملتقى تجارة العالم العربى شرقه وغربه ، إلا أنهم عرفوا بعد فترة أن تغلبهم الكامل على اليثاربة ليس بالشىء الهين وسط تعدد الأرباب وتعدد بيوت الله خارج الحدود المكية ، لذلك كان من الضرورى كى تستحوذ مكة على كل «الشرف» وكل «الشهرة»، أن تصبح هى الوحيدة أرض الله. وبيتها الوحيد هو بيت الله ، وهو ما يعنى أيضاً ـ فى وقت ما ـ إمكانية أن تحل سيادة واحدة لقبيلة واحدة على كل القبائل.

ولما انهزمت فصائل من جيش كسرى ملك الفرس أمام بعض المحاربين من قبائل «شيبان» و«عجل» و«بكر بن وائل» العربية الذين تحالفوا وخاضوا معركة حربية تاريخية عرفت «بيوم ذى قار» ازداد الشعور العربى بأن الاتحاد قوة وأنه ـ الاتحاد ـ قد يمكّن العرب من هزيمة أكبر جيش على وجه الأرض ، فإذا كانت ثلاث قبائل فقط استطاعت هزيمة جيش الفرس ، فليس مستحيلاً أن يهزم العرب لو كانوا يداً واحدة ، أى قوة أخرى مهما كانت .

واستقر الرأى لدى المكيين أنه لابد لمكة أن تتجاوب مع المتغيرات والظروف الجديدة ، فالوضع المرغوب فيه لا يتناسب مع الشكل الاجتماعى البدوى المفكك وغير المستقر. بمعنى آخر ، لابد أن تختفى «الملامح البدوية» وكان المطلوب أولاً استقرار الحكم ، واستقرار الحكم (أو مركزية الحكومة) لابد أن يسبقه صراع حول وسائل الإنتاج والموارد ، ولابد من سلطة سياسية ما مهمتها حراسة وحماية ـ قوافل التجارة ـ رأس مال المكيين الوحيد ، لذلك استعان المكيون بجيوش مشتراة من العبيد.

ونسب لقريش أنهم أول من رسخ مفهوم السادة والعبيد والعمل به لفترات طويلة ، مما أدى تدريجياً لتطور المجتمع المكى من المساواة والتوازن الطبقى البدائى، للتمييز العرقى والطبقى ، فاتسعت الفجوة بين الأغنياء والفقراء ، وظهر تفاوت هائل رغم صلة القرابة بين الجميع ، وظهرت عناصر قيادية معروفة على مستوى القبائل المحيطة ، وتحولت كعبة مكة إلى الصدارة بين الكعبات الأخرى ، وأسواق مكة للمركز الأول بين الأسواق الأخرى أيضاً، وسيطرت لغة «قريش» القبيلة وعاداتها على معظم القبائل العربية ، ونقل

الرحالة العرب ، والقوافل التجارية كثيراً من قصص الحياة المرفهة لسادة وأشراف قريش إلى كل مكان يمرون به.

ولم يتوقف القريشيون ، وبدأوا نشر ما يؤكد أن التسامح الدينى هو الحل ، وهو الوصفة الأكيدة لمزيد من القدرة والسيطرة ، لذلك عملوا على استضافة آلهة العرب جميعاً فى صحن الكعبة المكية طوال فصول وشهور العام ، فبنوا تماثيل لمعظم أرباب وشفعاء القبائل الأخرى ، فعندما تنقل الآلهة الأخرى لمكة فسوف تتخلل فترات التجارة فترات أطول للعبادة ، ومن ثم تصبح المواسم القريشية لكل إله على حدة جديرة بالاهتمام ، وأثر الذكاء القريشى بالسلب على الكعبات الأخرى ، التى انسحب من تحت أقدامها البساط لصالح كعبة مكة ، وبمرور الوقت ، بلغ التأثر بكعبة مكة وأهل مكة الحد الذى جعل من مناسك الحج رجم قبر «أبو رغال» الدليل العربى الذى رافق جيش أبرهة فى الصحراء حتى أوصله لمكة (٧).

رجم العرب «أبو رغال» معتقدين فى رب الكعبة المكية الذى صد عن بيته جيشا غازيا جبارا .. لم يكن للعرب أن يصدوه ، وانفجرت الأساطير.. قالوا أن الطير التى أرسلها رب الكعبة على جيش أبرهة كانت أسنانها كأسنان الأسود ، وأيديها كأيدى الكلاب .. أما أصغر الحجارة التى كانت تحملها فبحجم رأس الإنسان ، وأكبر الحجارة كانت كالجمل ، ورغم أن وصف القرآن الكريم لهذه الواقعة كان مجازياً عما أصاب أبرهة وجنوده ؛ عمد التراث إلى المبالغة فى صور هذه الحادثة بأكثر من طريقة.

ومن الطرائف «التراثية» أن الفيل الذى جاء به أبرهة ليهدم الكعبة اسمه «محمود» وقد حُكى أن «نفيل بن حبيب» جاء بجانب أذن الفيل وقال له : اجلس يا محمود ولا تتقدم أو ارجع من حيث أتيت إنك فى بلد الله الحرام ، فجلس ، ولما وجهوه عكس الكعبة قام ، وجرى.

لذلك سرى فى التراث المكى القديم أن رب الكعبة دافع عنها.. وهزم أبرهة ، رغم أن التاريخ أثبت أن أبرهة تراجع بسبب المرض الذى تفشى فى جيشه ، وربما هى المرة الأولى فى التاريخ التى يظهر فيها الحديث عن مرض الجدرى الذى فتك بجنود أبرهة الحبشى ، وبه نفسه ، وهو ما أدى إلى هزيمة منكرة عاد الملك الحبشى لبلاده شبه ميت متقطع الأطراف ، ولقد كتب «بركوب» الوزير البيزنطى أن الجدرى تفشى فعلاً سنة ٥٦٩ ميلادية ، وهو عام الفيل ، أو هو العام الذى حاول أبرهة فيه هدم الكعبة (٨) ، وهو العام

نفسه الذى دخلت فيه مكة مرحلة جديدة ، بعد ما شُهر عن أهلها أنهم لم يقاتلوا ، إنما قاتل عنهم الله ، وفيما أهّلت هذه المرحلة مكة لأحداث كبيرة ، كانت مكة بدورها تؤهل العرب لأحداث أكبر.

❑

بعد محاولات كثيرة للسيطرة أشعلت الحروب والفتن ، استقر الأمر بيد «قصى بن كلاب» كبير كبراء قبيلة قريش المكيّة ، قصى الذى وصف بالداهية ، وضع أمام عينيه التغيرات السياسية خارج مكة ، وربما خارج الجزيرة العربية كلها فمع نزاع قريش مع قبيلة خزاعة على مُلك مكة ، خطط قصى بن كلاب للزواج من ابنة «حُليل» كبير قبيلة خزاعة ، وهو الزواج الذى حقق دعماً جيداً لقصى ، واستطاع بعده أن يحصل على مفاتيح الكعبة من «أبو غبشان الخزاعى»، بأبريق ذهبى مليء بالخمر ، وثلاث نساء من أجمل نساء العجم(٩). وبمفاتيح الكعبة كسب قصى مُلك مكة. ويقال أن «قصى بن كلاب» كبير قريش أول ملك لمكة ، فأطاعه قومه ، وكانت له بعد حصوله على المفاتيح الحجاية والسقاية والندوة ، وكل ما يتعلق بخدمة بيت الله ، فحاز الشرف الذى يحلم به كل العرب.

وطرد خزاعة من مكة ، ثم فرض الضرائب ، وأخذ نسبة مما تحمله القوافل المارة لتأمين الطرق وحماية الحجاج ، وعرف عنه أنه أول من أقام حكومة مركزية بمكة فى التاريخ العربى كله.

وفى التراث العربى، رُبط بين خطط قصى وبين «التقريش» و«الإيلاف». فاسم «قريش» من «التقريش» أو الجمع ، و«الإيلاف» هو الأمن . فقد جمع قصى كل أرباب القبائل الأخرى ، ووضعها فى فناء الكعبة المكية وأرسل رسائل ورُسلا لكل الممالك والإمارات الموجودة فى الجزيرة يؤمنهم على قوافلهم ، ويدعوهم لموسم الحج. فأجابوه بالهدايا والعطايا ، لذلك قيل أنه أخذ «الإيلاف» من ممالك الجزيرة ، بعدما استطاع «تقريش» القبيلة فى المرة الأولى التى اجتمع فيها المكيون على أمير وقائد أو «ملك» واحد، «قرش» الآلهة كما قرش الأفراد.

وأقام قصى ابن كلاب المؤسسات السياسية ، أبرزها «دار الندوة»، وهو «مجلس شورى» القبيلة ، يجتمع فيه الكبار لإدارة دولتهم ، ودخلت مكة مع قريش مرحلة «المدينة» المفتوحة ، حلّت فيها دار الندوة محل الشياخات القبلية وتضم من كل قبيلة مندوبا

يرأسها قصى نفسه ، ليتحول الصراع ناحية امتلاك وسائل الإنتاج ، الذى يعنى مزيداً من خيوط السلطة السياسية . وبدأ الصراع من خلال «دار الندوة»، ومن خلال الديمقراطية البدوية.

ويمكن القول أن «قصى بن وائل بن كلاب» استطاع أن يجمع بين يديه كل الوظائف والسلطات الدينية والتشريعية عن طريق الدين ، والمال ، والسياسة.

الدين ممثلاً فى الكعبة ، وأرباب الكعبة ، ومفاتيح الكعبة ، حتى قيل أنه أول نبى فى تاريخ مكة ، أقواله وأفعاله قبل وبعد وفاته دين متبع(١٠).

أما المال فمن الضرائب ، بالترهيب مرة وبالترغيب مرة أخرى.

واستمر الوضع هكذا إلى أن سلم قصى كل سلطاته لابنه الأكبر «عبدالدار» فجأة. ولما مات قصى ، خرج أولاد «عبد مناف» أخو «عبدالدار» يطلبون بعض ما جمعه أبناء «عبدالدار» من سطوة ونفوذ ، وطالبوا أبناء عمومتهم بحقوقهم فيما أعطاه جدهم ـ دون سبب مقنع ـ لعبد الدار.

اجتمع أبناء عبد مناف الأربعة: («هاشم» و«عبد شمس» و«عبدالمطلب»، و«نوفل») على أمرين: إما أن يأخذوا حقهم من بنى عبدالدار ، وإما أن يحاربوهم فيقتلوهم أو يقتلوا، ودهنوا «أيديهم بالمسك» ومسحوا بها جدار الكعبة استعداداً للحرب ، فسموا «حلف المطيبين». أما بنو «عبدالدار» فذبحوا عجلاً ووضعوا دمه على سيوفهم ولعقوه متعاهدين على القتال ، وعلى حرب من حاربهم من الحلف الآخر حتى يقتلوهم أو يقتلوا. فسمّوا حلف «لعقة الدم».

أخذ الصراع فترة طويلة كى يشتد ، وبدا واضحاً للجميع أن المصلحة الاقتصادية يجب أن تفرض نفسها على أى مصلحة أخرى ، فبالحرب يضيع كل ما صنعه قصى بن كلاب من «إيلاف» و«تقريش» ، فلا يبقى شىء لا لبنى عبد مناف ، ولا لبنى عبدالدار ، لذلك تقاسم الحلفان القيادة ، واتفقا على أن تكون سقاية الحجاج وطعامهم على بنى عبد مناف ، فيما يبقى العلم «شارة قريش» لبنى عبدالدار، وأن تكون رئاسة دار الندوة للحلفين بالاشتراك.

لكن الظروف رفعت من أسهم بنى عبد مناف ، للحد الذى رفضت فيه القبائل العربية أى سفراء قريشيين ماداموا ليسوا من بنى عبد مناف ، وسارع بنو عبد مناف سراً لتوطيد

الصداقات وتأصيلها بعيداً عن بنى عمومتهم ، فكان هاشم بن عبد مناف يتجه للشام ، ويتجه عبد شمس للحبشة ، وعبد المطلب لليمن ، فيما كانت سفارة قريش لدى فارس لنوفل ، من بنى عبد مناف الذين ما أن بلغ نفوذهم أعلى مراحله ، حتى امتنع التجار العرب عن وضع قوافلهم تحت حماية غيرهم من القريشيين. وعرف عن بيت «عبد مناف» رياسة مكة وسموهم المجيرون.

وضعف بيت عبد الدار، ضعفاً لم يعد بعده شريكاً ـ ولو ضئيلاً ـ في الحكم. وتدريجياً ظهر أن «هاشم بن عبد مناف» هو الملك الجديد. لذلك ، وبعد موت عبد شمس أخو هاشم ـ حاول ابن عبد شمس (أمية) أن يحارب هاشم وبنيه ، ولما تمهد الطريق لمعركة حامية ، وقف نوفل محايدا بعد ما كادت الحرب تقطع خيوط التاريخ والسياسة والقرابة.

لكن الحرب ـ مرة أخرى ـ تعنى أنه لا ملك ولا سود ولا سلطان ، لذلك احتكمت القبيلة لأحد الكهنة ، فحكم أن يُنفى أمية للشام عشر سنوات.

واستسلم أميّة غير راضٍ وسار للشام ليقضى بين غير أهله عشر سنوات لم ينس فيها ما فعله عمه وأبناء عمه بنو هاشم ، وبعد سنوات .. كانت واقعة النفي سبباً فى رواسب أساسية أدت للحرب بين معاوية بن أبى سفيان (من بنى أمية) وعلى بن أبى طالب (بنى هاشم). وربما هي الواقعة التى ساهمت ودفعت بالخلافة الإسلامية لطرق مظلمة حالكة السواد ، فعلى أثر الفتنة الكبرى أو حرب «على بن أبى طالب» (الهاشمى) ومعاوية بن أبي سفيان (الأموى)، تفرق المسلمون ٧٢ فرقة ... وظهر من يدعى «النبوة» إما طلباً للملك وإما طعناً فى بنى هاشم.

فقد أسفرت السياسة عن مفهوم جديد للنبوة ، ومفهوم آخر للملك.

العشر سنوات التى قضاها «أمية» بن عبد شمس بالشام كانت عاملاً مهماً فى تكوين رصيد ضخم وهائل للبيت الأموى هناك ، فقد ارتبط أمية بنسب ومصاهرة مع أسر الشام ساعدت فيما بعد على استمرار الصراع بين الأمويين والهاشميين وربما تبرز صورة الصراع بوضوح ـ أول ما تظهر فى المستقبل ـ بين الأمويين (نسبة لبنى أمية)، والعباسيين (نسبة للعباس عم النبى الهاشمى) الذى ظلت له رياسة مكة بأمر من محمد ﷺ[١١].

الصراع بين أبناء العمومة كان رهيباً بشكل لم يكن له أن يختفى أبداً. وجاء الدور على الأحفاد ، فحملوا «أمانة الثأر» بعدما مات الأباء والأجداد.

نشأ عبـدالمطلب بن هاشم بـن عبد مناف بين أخوالـه فى يثرب (المدينة) ، ولـما عاد بعد موت أبيه (هاشم) ليأخذ مكانه ، وجد عمه نوفل قد استولى على كل شيء ، مستهيناً بعبد المطلب الذى لازال شاباً صغيراً ، فأستعان عبدالمطلب بالنجدة من أخواله اليثربيين ، ووجدها اليثاربة فرصة للثأر من «القريشيين». وفور وصول الاستغاثة جاء ما يزيد على ثمانين فارسا من أشد فرسان المدينة بقيادة «أبوسعد بن عدى بن النجار»... خال عبدالمطلب ، وبحث عن «نوفل» فور نزوله عن حصانه فوجده فى دار الندوة ، فدخل عليه وهو جالس ، ويروى أن نوفل عندما وجد الشر يتطاير من عينى أبى سعد... هب واقفاً ، وقال: عمت صباحاً أبا سعد.

فقال سعد: لا أنعم الله لك صباحا... ثم أشار للكعبة بعدما أخرج سيفه وقال: ورب هذه الكعبة لئن لم تعط عبدالمطلب حقه لأدُس هذا السيف بين جنبيك».

فقال نوفل: «رددتها عليه».

بعد هذه الواقعة دخل نوفل حلف بنى عبد شمس (الحلف الأموى) ضد بنى هاشم ، فيما ركز عبدالمطلب بن هاشم بعد استرداد حقه على فكرة متكاملة لاستمرار سياسة قصى ابن كلاب ، وأدرك فى الوقت نفسه طريقة تفكير أبيه فيما يتعلق بالدين والسياسة فى تحديد الداء ووصف الدواء.

الداء هو التشتت القبلى الذى لازال له مكان واسع على الأرض المكية ، والسبب عودة تشتت الأرباب ، ومن ثم تفرق القبائل تحت ألوية أرباب كثيرة ، لذلك أعلن عبد المطلب بن هاشم أسساً جديدة لفهم عقيدة «بيت الله». فقال إن الله واحد لا شريك له ، وراح ينادى بإلغاء تماثيل الشفعاء لأنها أصنام ـ لا تنفع ولا تضر ـ وأن ربه لا يقبل من أحد وساطة ولا شفاعة غير العمل الصالح ، وبعد فترة قال إنه وكان نائماً، نزل عليه وحى يلزمه بإعادة حفر بئر زمزم.

و«زمزم» بئر لقبيلة «جُرهم» تقع بين صنمى «أساف» «ونائلة» قرب الكعبة ، هدمتها «جُرهم» قبل مغادرتها مكة ، وقتما كان العرب يتنافسون على حفر الآبار جذباً للقوافل التجارية المارة. وكان عبد الدار بن عبد مناف قد حفر بئر «أم جراد»، ولما حفر عبد شمس «الطوى»... رد عليه عبد المطلب بحفر «زمزم». لكن زمزم ليست ككل الآبار ، فهى الوحيدة التى يُذكر عنها حفرها بأمر غيبى فى حلم عبدالمطلب ، إضافة إلى أنها حفرت بإرادة ربانية أيام هاجر وابنها إسماعيل.

وطلى عبدالمطلب أبواب الكعبة بالذهب ، وأرجع نسب القبائل العربية كلها لإسماعيل ابن إبراهيم عليهما السلام ، ثم بدأ فى نشر روح «الرهبنة»، وقال إن دين إبراهيم الحنيف هو دين «الفطرة». وصعد غار حراء - فى شهر رمضان كل عام - للتعبد والتأمل ، وفى إحدى المرات نزل من الغار وحرّم على نفسه الخمر، ونادى بمكارم الأخلاق وقال إن هناك ثوابا وعقابا ، وجنة ونارا ، وأن هناك بعثا وحسابا وخلودا [١٢].

واختلف العرب فى عبد المطلب بن هاشم ، فمنهم من اعتقد أنه مؤمن وموحد ، ومنهم من قال إنه المُلك والسياسة. وفى زيارة لسيف بن ذى يزن ملك اليمن ، أمر «سيف» لكل أعضاء الوفد القريشى بعشرة عبيد وعشرة إماء سود وخمسة أرطال فضة ، وأمر لعبد المطلب بعشرة أضعاف ... ولما عاد عبدالمطلب لمكة قال إنه لا يفرح لا بذهب ولا بفضة ، إنما يفرح فقط بما سيكون فى المستقبل لأحد أبنائه - فسألوه ... من هو؟ ... قال: سيظهر بعد فترة. وعُرِف فيما بعد أن سيف بن ذى يزن قال لعبد المطلب : إذا ولد مولود بتهامة ، بين كتفيه شامة ، كانت له الإمامة ، إلى يوم القيامة ، هذا حينه الذى يولد فيه ، يموت أبوه وأمه ، ويكفله جده وعمه ، وقد وجدناه مراراً، والله باعثه جهاراً ... وجاعل له منا أنصاراً (المقصود هنا أهل يثرب فهم من أصل يمنى)، يعز بهم أولياءه ، ويذل بهم أعداءه ، ويفتتح كرائم الأرض ، ويضرب بهم الناس عن عرض ، يخمد النيران ، ويكسر الأوثان ، ويعبد الرحمن ، قوله حكم وفصل، وأمره حرام وعدل ، يأمر بالمعروف ويفعله، وينهى عن المنكر ويبطله ... والبيت ذى الطنب ، والعلامات والنصب ، إنك يا عبدالمطلب ، لجده من غير كذب».

فخرّ عبدالمطلب ساجداً ... فقال بن ذى يزن: اطو ما ذكرته لك دون هؤلاء الرهط الذين معك (أى امنع الحديث فيما نبأتك به مع من معك من القريشيين) فإننى لست آمنا أن تدخلهم التعاسة (يحقدوا) فى ألا تكون لهم الرياسة ، فيبغون له الغوائل، وينصبون له الحبائل ، وهم فاعلون وأبناؤهم»[١٣].

وتذكر كتب التراث عن انتظار عبدالمطلب لحفيده بتسليم كامل ، فيحكى أن كاهنا يهوديا قال لعبد المطلب فى إحدى رحلاته للشام إن فى إحدى يديه مُلك وفى الأخرى نبوة. وقال له الكاهن ... إن «النبوة» و«الملك» أيضاً فى قبيلة «بنى زهرة»، ولو أراد عبدالمطلب الزواج ... عليه أن يتزوج منهم.

وبنو زهرة إحدى قبائل حلف بنو «عبد مناف» ضد أبناء عمومتهم ، فتزوج عبد المطلب من «بنى زهرة» وزوج ابنه «عبدالله» من آمنة بنت وهب من «بنى زهرة» أيضاً.

وكانوا يضعون سريراً لعبدالمطلب فى فناء الكعبة ، وفيما لم يكن مسموحاً لأى من أبنائه ولا أحفاده الجلوس أو النوم معه عليه إجلالاً وخشية من جدهم ، كان محمد ﷺ الوحيد الذى كان يُسمح له بهذا ، وكان عبدالمطلب يقول: «دعوا حفيدى هذا».. ويمسح على ظهره ويقول إن لبُنى هذا شأناً»[١٤]. ويقول: «دعوا ابنى فو الله إن له لشأناً.. دعوا ابنى إنه يؤسس مُلكاً»[١٥].

وقال لأبنائه.. «تحفظوا بابن أخيكم.. إنهم يزعمون أنه لنبى».

وتبع عبدالمطلب كثيرون على دينه الحنيف ، وبانتشار «الفكرة الحنيفية»، بدأ الأتباع يتنافسون فى التقوى والأخلاق ، طمعاً فى أن يكون منهم نبى الأمة ، و«ملكها» الذى يدين له الكل ، فالنبوة مُلك.

والحنيفية موحدون بالله ، تاريخهم يعود للقرن الأول قبل الميلاد ، فقد عبد أهل اليمن إلهاً أطلقوا عليه «ذوى سموى» أو (رب السماوات) واعتقدوا أن ليس له شريك ، وسُموا بالأحناف ، أو المتحنثين. ويُعتقد أن حنيفية عبدالمطلب استمرار لديانة «ذوى السموى» اليمنية القديمة[١٦].

ولم يصنف الأحناف على أنهم نصارى ولا يهود ؛ فيما كان لعقيدتهم أربعة أركان أساسية ، حج البيت (كعبة مكة)، واتباع الحق ، والإيمان بأنهم على دين إبراهيم (عليه السلام) والإخلاص لله الواحد الأحد.

ونسبوا ديانتهم للنبى إبراهيم كأول حنفى ومؤسس ، مع أن كثيرا من علماء التاريخ نسبوا لإبراهيم (عليه السلام) تأسيس ديانة «الصابئة»[١٧]، وقال البعض أن الديانة الحنفية فرع من ديانة الصابئة ، أو أن الأحناف هم الجزء المؤمن بالله الواحد من الصابئين.

واستقر عدد كبير من الصابئة بمكة قبل الإسلام ، وكانوا يصلون عدة مرات فى اليوم كفرض لا يجوز الاستغناء عنه ، فيقومون ويركعون فى صلاتهم ، ويتوضأون قبلها، ويغتسلون من الجنابة ، ولهم قواعد فى نواقض الوضوء[١٨]. وربما يُفسر تشابه الصابئة فى إجراءات دينهم مع المسلمين ـ بعد البعثة النبوية ـ أن جعل أهل مكة يطلقون على من اتبع محمد ﷺ... إنه صبأ.

وشهر أن من الأحناف أنبياء اعتقد الناس فيهم ذلك الوقت ، مثل «قس بن ساعدة لإيادى»، و«سويد بن عامر المصطلقى» و«ورقة بن نوفل» والشاعر «زهير بن أبى سُلمى».

مات «قس بن ساعدة الإيادى» قبل البعثة النبوية بفترة قصيرة. وورد أن النبى ﷺ كان يستمع لخطبه قبل نزول الوحى. وبعد الوحى قال ﷺ عن «قس بن ساعدة: «والذى بعثنى بالحق لقد آمن قس بالبعث»(١٩). ونادى قس بأن الله هو المعبود الواحد ليس بمولود ولا والد . وهو تام أبدى ... إليه يعود كل الناس ... كبيرهم وصغيرهم.

أما «سويد بن عامر المصطلقى» فهو أول من كتب الشعر عن البعث والخلود والحساب الأخروى والجنة والنار. وقال فى وصاياه لأتباعه أن كل شىء مكتوب ، وإن المرء لا دخل له بأحداث القدر ، فمن مات ، أو جاءه الموت ، لا يستطيع الإفلات منه.

لأن كل شىء محتم من قبل. لذلك قال النبى ﷺ: لو أدركته لأسلم(٢٠).

من الأحناف أيضاً ورقة بن نوفل، الذى وحد الله هو الآخر، وترك الأصنام والتماثيل وصور الصالحين والأجداد والأسلاف ، لكنه انشق عن الأحنلاف بعد فترة. واعتقد اعتقادا خاصا به وحده ، خليط بين المسيحية والحنيفية. وظل موحداً.

والشاعر «زهير بن أبى سُلمى» كان حنيفياً هو الآخر، وشهر عنه أنه قال لولا أن تشتمه العرب ويلعنه أهله لآمن أن الله سوف يحيى ويبعث الموتى أحياء يوم القيامة. وقد اختتن زهير وكان يحج كعبة مكة ، ورفض الإيمان بالشفعاء لأن الله وحده هو الذى بيده الخير والشر ، وآمن أن البشر العاديين لابد لهم من وسيط بينهم وبين ربهم ، وأن هذا الوسيط سوف يكون من البشر ، فيعلّم الناس ما الذى يريده وماالذى لا يريده ربهم.

وآمن زهير أن الوسيط نبى ، من جنس البشر ... يختاره الله وينزل له العلم من السماوات.

وانتظر الأحناف الإصلاح الذى سوف يأتى على يد «النبى الحاكم» المؤيد من الله. فالبيئة المكية كانت مستعدة لقبول نظام النبوة أو الملك وفى العصر الحديث أكد كثير من الباحثين التاريخيين أنه لو غاب النبى المنتظر ذلك للوقت، فإن العرب كانوا مؤهلين لدخول أحد الدينين، إما اليهودية ، أو المسيحية. وربما كان الحنفاء أول من ينضم لأحدهما.

وربما أيضاً ـ لو دخلوا إحدى الديانتين ـ [illegible] لديانة خاصة تجمعهم على قومية خاصة عربية تخالف اليهود والنصارى ، وتعبر عن روح العروبة المشتتة بين قبائل متعددة ، وهو السبب الذى دفع كثيرا من أشراف مكة إلى الاجتهاد فى تأصيل وترسيخ الديانة الحنيفية ، وأن يؤكدوا نسبتها لأبيهم الأول إبراهيم (عليه السلام).

عادت حركة التحنف قبل ظهور الإسلام بفترة قصيرة ، فى الوقت الذى لم يكن بحث العرب عن دين إلا رمزا للبحث عما يجمع اللواء العربى تحت أيديولوچية أو نظام واحد يتماشى مع آمالهم السياسية والاجتماعية ، ويؤكد على إمكانية منافستهم الفرس والروم ، أقوى الإمبراطوريات السياسية والعسكرية ذلك الوقت. والبحث عن دين واحد كان دليلا - أيضاً - على نضوج روحى وفلسفى ، إذ إن عدم وجود دولة أو دين يجمعهم كان بمثابة «ذلة» و«عار» ، خصوصاً أن أى قوة سياسية وحربية كبيرة فى ذلك الوقت كانت تدين بدين ما ، ورسالة ما ... ورب واحد.

وربما كان هذا التفكير هو الذى جعل كثيرين من الحنيفيين ينشرون الأساطير حول النبى المنتظر، وأنه ملك يوحد كل العرب حول عرشه ، وهو نفس السبب الدافع لأن يدعى آخرون النبوة لأنفسهم بعدما تأخر ظهور النبى الحقيقى.

ومن الأحناف «زيد بن عمرو بن نفيل» وهو من أكابرهم أثراً وسمعة ، وقد حرم زيد على نفسه الأصنام ، وتبرأ من أى دين آخر غير الحنيفية ، وحكى أن النبى ﷺ قال أن زيداً سيبعث يوم القيامة أمة وحده. ومنع زيد أتباعه من دفن البنات حديثات الولادة أحياء ، واشتراهن ليربيهن فى بيته ، أو يسلم أهلهن كل فترة مبلغاً من المال لتربيتهن. وقال ﷺ عنه «غفر الله له ورحمه.. فقد مات على دين إبراهيم». وقال النبي ﷺ أيضاً: «دخلت الجنة فرأيت لزيد بن عمرو بن نفيل دوحتين» أى حديقتين من نخيل وشجر(٢١).

وطاف زيد آخر أيامه بالقبائل العربية داعياً لعبادة الإله الواحد ، وإلى تكسير الأصنام والتماثيل التى لا تشفع ولا تنفع ولا تضر ، وإلى رب واحد ، لا يحتاج لوسيط من الحجارة ، ونبذ التفرق والتعدد القبلى وأنه لا بديل عن الاتحاد تحت راية دين واحد.

كان زيد يقول وهو داخل الكعبة «اللهم إنى لو علمت أى الجهات أحب إليك لسجدت لها ، لكننى لا أعلمها» ثم يسجد على الأرض. أما فى شهر رمضان فكان يصعد لغار حراء معتكفاً متأملاً متعبداً(٢٢). ثم حرم على نفسه أكل الميتة وشرب والخمر وترك أكل لحم الخنزير وأى ذبائح تذبحها قريش للأوثان ، وكان يحج كل عام ، ويقف بجبل عرفات ويلبى قائلاً: «لبيك لا شريك لك ولا ند لك» ثم ينزل من عرفات وهو يقول: «لبيك متعبداً مرقوقاً... أو لبيك أنا عبدك ورقيقك» وقال أتباعه نفس الكلام فى الطواف والوقوف فى عرفات(٢٣).

والذى ادعى أنه نبى من الحنيفية أيضا «أمية بن عبدالله بن أبى الصلت»، وهو ابن رقية

بنت عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب.. وقال إن الناس ستموت ثم يبعثون بعد الموت وسيحاسبون بعدما يبعثون ، وحرم على نفسه الخمر هو الآخر.. وصام من الفجر حتى المغرب ، وهو أول من افتتح المراسلات بجملة «باسمك اللهم»، التي بدأت قريش باستعمالها في المكاتبات والمعاهدات. وقيل أنه قابل مجموعة من رهبان اليهود ، وإنهم عرفوا أن فيه بعض علامات النبوة. وحكوا أن كائنات سماوية لها أجنحة اختطفوه ، وشقوا قلبه وغسلوه وطهروه وهيئوه لاستقبال النبوة.

وقد حضر أمية النبي ﷺ إلا أنه لم يدخل الإسلام ، ورفض الاعتراف بمحمد ﷺ (لاحظ أن أمية من بيت عبد شمس فيما كان النبي ﷺ من بيت هاشم).

فقد رأى أن «الملك والنبوة» تخرجان من يده ، بعدما كان يعد نفسه لهما وقتاً طويلاً.

ويصف أمية بن أبي الصلت يوم القيامة ـ قبل البعثة المحمدية ـ قائلاً:

ويوم موعدهم يحشرون زمرا	يوم التغابن إذ لا ينفع الحذرَ
وأبرزوا بصعيد مستو حزر	وأنزل العرش والميزان والزبرَ
عند ذي العرش يعرضون عليه	يعلم الجهر والكلام الخفيا
يوم نأتيه وهو رب رحيم	إنه كان وعده مأتيا
رب كلا حتمته النار	كتاباً حتمته مقضيا

وعن عذاب الآخرة قال :

وسيق المجرمون وهم عراة	إلى ذات المقامع والنكال
فنادوا ويلنا ويلاً طويلا	وعجوا في سلاسلها الطوال
فليسوا ميتين فيستريحوا	وكلهم بحر النار صالي
وحل المتقون بدار صدق	وعيش ناعم تحت الظلال
لهم ما يشتهون فيها وما تمنوا	من الأفراح فيها والكمال

وعن إبراهيم (عليه السلام) وابنه إسماعيل (عليه السلام) اللذين يرجع إليهما الحنفاء عقيدتهم يحكي أمية بن أبي الصلت قصة الذبح والفداء قائلا :

ابني إني نذرتك لله شخيصا	فأخبر فداء لك خال

فأجاب الغلام إن قال فيه | كل شىء لله غير انتحال
فاقض ما قد نذرته لله واكفف | عن دمى أن عيه سربالى
وبينما يخلع السراويل عنه | فكه ربه بكبش حلال

وعن النبى يونس يقول:

وأنت بفضل منك انجيت يونسا | وقد بات فى أضعاف حوت لياليا

وعن موسى وهارون ، ولقائهما بفرعون مصر يقول :

وأنت الذى من فضل ورحمة | بعثت إلى موسى رسولاً منادياً
فقلت له اذهب وهارون فادعوا | إلى الله فرعون الذى كان طاغيا
وقولا له : أأنت رفعت هذه | بلا عمد ، ارفق ، إذا ربك بانيا

وعن مريم وحملها بابنها عيسى يقول:

وعن دينكم من رب مريم آية | منبئة بالعبد عيسى ابن مريم
تدلّى عليها بعدما نام أهلها | رسولاً فلم يحصر ولم يترمرم
فقال: ألا لا تجزعى وتكذبى | ملائكة من ربا عاد وجُرهم
أنيبى وأعطى ما سئلت فإننى | رسول من الله فمن يأتيك بابن
فقالت: أنى يكون ولم أكن | بغياً ولا حبلى ولا ذات قيم
فسبح ثم اغتبرها فالتقت به | غلاماً سوى الخلقة ليس بتوأم
فقال لها: إنى من الله آية | وعلمنى، والله خير معلم
وأرسلت ولم أرسل غويا ولم أكن | شقياً ولم أبعث بفحش ومأثم

والذى لا شك فيه أنه كانت لدى الأحناف فكرة عن قصص الأنبياء وحكايات الجنة والنار تنتقل من جيل إلى جيل حتى وصلت بالتواتر لأمية.

عندما بدأ النبى ﷺ الدعوة للإسلام ، لم تظهر على المكيين بوادر الاهتمام ، فحرية الاعتقاد منذ جمع كل آلهة العرب فى فناء الكعبة كانت عُرفاً مؤثراً بين القبائل العربية على رأسها قبيلة قريش حاكمة مكة ، وهو العُرف الذى ضمنته المصالح التجارية والاقتصادية ، وكان «تقريش» القبائل أو جمعهم وجمع آلهتهم مسألة سياسية بحتة ،

لذلك عاش المسيحي بجوار اليهودي مع أتباع الصابئة والأحناف وعبدة الجن وعبدة النجوم وعبدة الملائكة. كل هؤلاء جنباً إلى جنب مع القريشيين عبدة الأسلاف والشفعاء وتماثيل الأجداد دون قهر أو ظلم أو أية عصبية دينية.

ورغم أن محمدا ﷺ من الفرع الهاشمي، فإن فرع عبدالدار وعبد شمس لم يهتموا فور بعثته، لأن محمدا ﷺ لم يخرج عن العُرف بدعوته الجديدة، وهو لم يجبر أحدا على اعتناقها. والقرآن يشهد ـ في بداياته ـ بالحرية في الإيمان أو الكفر لمن أراد، وأنه ﷺ ليس عليه إلا البلاغ، و«البلاغ» لغة يختلف عن «الإبلاغ». «فالبلاغ» ـ لغويا ـ هو نقل رسالة دون ضمان استجابة الآخرين، على عكس «الإبلاغ» الذي يعني نقل رسالة مع ضمان استجابة الآخرين. والنبي ﷺ قال إنه «ما على الرسول إلا البلاغ» و«ألا هل بلغت اللهم فاشهد». ونزل القرآن الكريم يؤكد: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[٢٤]. ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[٢٥]، ﴿إِنْ أَنتَ إِلاَّ نَذِيرٌ﴾[٢٦]، ﴿وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾[٢٧]، ثم ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً﴾[٢٨]. لكن الأمر اتخذ شكلاً آخر، عندما بدأ ﷺ نشر دعوته على الملأ مطالباً الكل بالدخول فيها.

فبدأ القريشيون يتنبهون، ويتساءل الوليد بن المغيرة (وكان لقبه «الوحيد» بين أهل مكة) عن مصير الآلهة و«التقريش» لها في فناء الكعبة، الأمر الذي لابد أن يؤثر على مكانة قريش وكعبتهم المكية بين العرب، وبالتالي تراجع أسهمهم الاقتصادية. وقال الأخنس بن شريك ما يفيد أنه بالاستجابة لدعوة محمد (ﷺ) ونبذ الأصنام فلن تقوم قائمة لقريش، وسيتحول الأمر إلى ما كان عليه قبل قصي بن كلاب.

ولما سمع الوليد بن المغيرة النبي ﷺ يدعو سادة قريش للدخول في دينه قال «أمفتون محمد أم مجنون؟! ... فكان أن نزلت فيه الآيات القرآنية «﴿بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ﴾ ﴿هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (١١) مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾[٢٩].

تحول الأمر لتربص بمحمد ﷺ ودعوته الجديدة، فقد قلبّت العبيد على سادة مكة؛ ما يعني أن الميزان الاجتماعي لابد أن يختل، إذ أن المساواة بين السادة والعبيد لابد أن يقلب النظام السياسي والاجتماعي والاقتصادي الموجود رأساً على عقب. فالخطورة في الدين الذي لا يفرق بين السادة والعبيد أن نظام الأرستقراطية المكية ومصالحها تحتم وجود العبيد، الذين ليس لهم من الحقوق ما للسادة، والجيوش لا تصلح جيوشاً إلا بيد قائد

أرستقراطى له الأمر والنهى ، وأفراد مقاتلين من العبيد عليهم السمع والطاعة ، فلا يصح للعبيد القيادة ، ولا يليق بالسادة والأشراف أن يطيعوهم . إضافة إلى ذلك فإن تجارة العبيد نفسها ، أحد أهم أنواع التجارة المكية والعربية عموماً وأحد أهم مصادر الدخل المكى ـ ذلك الوقت ـ سوف تندثر. ثم إن جيوش العبيد هى التى تحمى سطوة قريش السياسية والتجارية ، والتفوق التجارى هو أيضاً حماية لبيت الله (كعبة مكة) وحماية لطريق القوافل بين الشمال والجنوب والشرق والغرب.

الأمر إذاً صعب للغاية مع دعوة محمد ﷺ التى جعلت للعبيد أنساباً وللفقراء شأناً ، خصوصا وقد بدأ محمد ﷺ بنفسه ، فأعتق عبده «زيد بن حارثة» وأعطاه أفضل النسب ، فنسبه لنفسه ؛ مما يعنى أن لبقية الدهماء من العبيد أملاً عظيماً ، ويعنى أيضاً ـ مرة أخرى ـ أنه لا جيش ولا تجارة.

الأهم أنه ـ وبداية ـ لا شفعاء ولا آلهة ولا تفوق لأهل «بيت الله» الذين هم سادات مكة ، وأسياد العرب ، انطلاقا من عامل «التقريش» . لذلك اعتقدوا أنه ﷺ مغامر طموح له أغراض سياسية يغلفها بما يقال عن دعوته التى يتلقاها من السماء. وبعد فترة تأكد الاعتقاد أنه ـ ﷺ ـ ليس إلا واحداً من بنى هاشم طالب «مُلك» و«سيادة» بضغطه على نقطة الضعف المكية «السياسة والتجارة» وكل ما يتعلق بمكانة كعبة مكة بين باقى كعبات العرب ، وإنه لو تهيأ له الأمر امتلك الحجاز أو سعى لإخضاعها ، وبالتالى يؤسس «بنو هاشم» دولة قوية كبيرة تمتد من شرق الجزيرة لغربها. ومن يدرى ؟! قد يتحول السادة لعبيد . ويتحول العبيد لسادة . وهو ما يدل و«بمنطق العصبية القبلية» أن بنى هاشم يحاولون أن يرفعوا من شأنهم ، ويخفضوا من شأن بنى عبد الدار وعبد شمس ، ونوفل خصوصاً ، وباقى العرب على العموم.

إضافة إلى أن محمدا ﷺ ينزع عن المكيين كلهم صفة من أهم الصفات وهى أنهم «أهل بيت الله». فقد ناداهم القرآن ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٣ وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾[٣٠]. صحيح أن الآية تحمل تسامحاً دينياً، إلا أن وصف «أهل بيت الله» بالكافرين له بالغ الأثر.

واستنتج القريشيون والمكيون كلهم أن محمدا ﷺ وقد جعل شرف الإيمان الصحيح

بالله يمر عبر الإيمان به كرسول أولا ؛ ليس إلا تأكيداً لسياسته الخاصة ، وسياسة بنى هاشم العامة.

لذلك كان للكفر بمحمد ﷺ سببان: الأول سياسى ، والثانى قبلى ، على سبيل المثال فإن «أبو لهب» (عبدالعزى بن عبدالمطلب بن هاشم) حارب محمدا وكان من أخطر المستهزئين به كنتيجة طبيعية للعصبيات والسياسة ، فقد كان «أبو لهب» حريصاً كل الحرص على علاقات طيبة مع «بنى عبد شمس» (الأمويين)، لأن امرأته «أم جميل» - حمالة الحطب فى آيات القرآن - إحدى شريفات البيت الأموى ، وأخت أبى سفيان ، رأس البيت الأموى أيام بدء الدعوة المحمدية.

وكفر «أبو جهل» بمحمد للسبب نفسه. فقال: تنازعنا نحن وبنى عبد مناف (أجداد محمد ﷺ) الشرف (يقصد بالشرف رياسة الكعبة المكية) أطعموا (يقصد أطعموا الحجاج) فأطعمنا، حملوا فحملنا، أعطوا فأعطينا ، حتى إذا تحاذينا على الركب (يعنى لما بدأنا نتساوى) قالوا منا نبى يأتيه الوحى من السماء. والله لا نؤمن به ولا نصدقه.

أبو جهل فطن لما يمكن أن يفعله قبول المكيين لدعوة محمد ﷺ ، وما ترتبه من آثار على وضع مكة وساداتها وكعبتها ، فهو لم يكن بحماقة «أبولهب» الذى تقوده زوجته «أم جميل».

وبنفس منطق العصبيات كانت حماية «بنى هاشم» لمحمد ﷺ قوية ، الروايات تقول أن أحدهم قابل «عمر بن الخطاب» قبل إسلامه (وهو أقوى أقوياء الجاهلية عصبية ونفوذاً) فى طريقه لقتل النبى ﷺ... فقال له : «والله غشتك نفسك فى نفسك يا عمر أترى بنى عبد مناف تاركوك تمشى على الأرض وقد قتلت محمداً ؟ ».

وإذا كان عمر بن الخطاب ممن وصفوا بالسطوة والجبروت اللذين يخشاهما الكبير والصغير فى مكة ، فإن ما قيل له فى هذه الواقعة يشرح الحال بين بنى العمومة ، فى الوقت نفسه يشرح حالة التأهب والترصد التى شملت كل القبائل ، وحسابات العصبيات القبلية التى فرضتها الظروف ، من خلال حزب محمد ﷺ ابن «بنى هاشم» ، وحزب الكافرين ، أو باقى قبائل مكة عموماً ، والأمويين ، بنى عبد شمس خصوصاً ، الأمر الذى دعا النبى ﷺ نفسه إلى الشعور بما أحدثته دعوته من أثر على أهل مكة كلهم ، وهو ما دعاه ﷺ أيضاً إلى استشعار الوحشة بعدما هاجر أتباعه للحبشة أملاً فى حماية الملك الحبشى

المسيحى «النجاشى» ، فقد رأى محمد ﷺ أن قريش قد تجنبته تماماً ، بينما لم تستطع أن تفتك به لما وراء ذلك من سفك وإراقة للدماء بين عصبيات وقبائل كثيرة.

ولعل الشعور بالوحشة هو ما جعل النبى يتمنى قائلا : «ليته لا ينزل على شيء ينفرهم منى». وتشير ما تسمى بقصة الغرانيق للحالة النفسية السيئة له ﷺ. فيروى أنه قرأ سورة النجم فى المسجد الحرام أمام سادات مكة ، فلما وصل للآيات: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ﴾ يروى أنه استمر يقول: «تلك الغرانيق العلا ، وإن شفاعتهن لترتجى».

مما أدى لصدى واسع النطاق ، وسجد المشركون لما سمعوا ذكر آلهتهم بالخير ولم يبق فى المسجد الحرام مؤمن ولا كافر إلا سجد(٣١).

وروى البخارى عن ابن عباس قوله: «إن رجلاً واحداً» لم يسجد لكبر سنه «إلا رجل رأيته يأخذ كفاً (حفنة) من تراب فيسجد عليه»(٣٢). وقال الواقدى: «فسجد المشركون كلهم إلا الوليد بن المغيرة ، فإنه أخذ تراباً من الأرض فرفعه إلى وجهه». والوليد بن المغيرة أبو خالد بن الوليد (سيف الله المسلول فيما بعد) كان من أشهر الناس حنقاً وغضباً من ديانة محمد ﷺ. وكان مشهورا بالثراء الفاحش ، وموقفه فى قصة «الغرانيق» لا تشير إلا أن معاداة قريش للنبى ﷺ لم تكن إلا محاولة منها للحفاظ على مكانتها السياسية ، ومن ثم التجارية وما يترتب على هاتين المكانتين من أمور.

ولما وصل ما قرأه النبى ﷺ من آيات (قصة الغرانيق) على سادات قريش للمهاجرين المسلمين فى الحبشة ، فرحوا ، وجهزوا أنفسهم للرجوع إلى مكة ، غير أنهم وهم فى طريقهم لمكة ، قابلوا عرباً من كنانة وعرفوا أن محمدا ﷺ عاد لذم آلهة قريش ، لذلك عاد المكيون لعداوته من جديد. ونزل فى تلك الواقعة قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً (٧٣) وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً﴾(٣٤).[سورة الإسراء/ ٧٣، ٧٤].

ثم نزل قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢) لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾(٣٥).
[سورة الحج/ ٥٢، ٥٣].

والمعنى أن الشيطان تدخل فيما يقوله النبى ﷺ فقال ما قال ، إلا أن الله نسخ هذه الآيات (أى ألغاها) وأنزل الآيات الصادقة. ورغم أن هذا حدث مع النبى ﷺ فقد حدث مع أنبياء آخرين كما تقول الآية الكريمة.

لـ

فى ظل أسوأ الظروف انتبه ﷺ إلى أن (منافس مكة القديم) (يثرب) هى الحل.

قبل أن يأتى محمدا ﷺ الأمر بالهجرة للمدينة (يثرب) ، كان الصراع بين الأوس والخزرج قد قارب على أن ينتهى ، بعد ما اقتربوا من اختيار قائد واحد تجتمع تحت قيادته كل من الأوس والخزرج ، هو «عبدالله بن أبى بن سلول». لكن لما أتى محمدا ﷺ الأمر بالهجرة ، وعلمت يثرب ، تراجعت قبيلة الخزرج عن الصلح والخضوع للواء الأوس ، فقد كان «ابن سلول» أوسياً ، لذلك أرسلت الخزرج وفودهم لابن أختهم محمد ﷺ فى مكة ، يبايعونه ويستعيضون به عن (عبدالله بن أبى بن سلول)، ثم أقنعوا بعض عقلاء الأوس بالوجاهة والقوة فى قدوم محمد ﷺ ليثرب ، أولاً لأنه نبى مؤيد من الله. وثانياً هو حاكم محايد لا هو من «الأوس» ولا هو من «الخزرج»... ولا هو يهودى ، ولا هو نصرانى.

رأى الخزرج أن خروج محمد ﷺ من مكة ، يعدل الميزان التجارى الذى سيطرت عليه قريش فترة طويلة لصالح يثرب ، وقد تستعيد يثرب الرئاسة فى مواجهة المكيين الذين اغتصبوها بدعوى أنهم أهل بيت الله ، ووضع فى الاعتبار رضاء اليهود عن النبى الجديد. فالكتاب الذى نزل عليه يكرّم أنبياء بنى إسرائيل ، وأنه ـ رسول الله ـ يصلى لنفس القبلة التى يصلى لها اليهود.

تقول الآيات الكريمة: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾[٣٦]. وإنه ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ﴾[٣٧].وإنه يخاطبهم بالقرآن قائلا: ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾.

اجتمعت كل العوامل للنبى ﷺ فى يثرب ، وهناك تغلب ببراعة على كل العقبات ، وعلى الحساسية الشديدة فى الموقف المتأزم ، فلاطف اليهود مرة ، وجادلهم مرات ، ثم آخى بين الأنصار والمهاجرين ، وألغى التصنيف القبلى لكل من أفراد قبيلتى «الأوس» و«الخزرج» فلم يبق إلا لفظ الأنصار ليشمل كل أهل المدينة.

وتدريجياً بدأت يثرب فى التحول لمركز جديد ، وتهيأت لأن تضع نفسها فى محل منافسة مع مكة من جديد ، فقد ساوى النبى ﷺ بينها وبين مكة من ناحية القداسة ، وأعلنها مدينة هى الأخرى حرام. وقال ﷺ: «لكل نبى حرم ، وإنى حرمت المدينة ... كما حرم إبراهيم مكة».

بدأت اتصالات أهل يثرب (المدينة) بالنبى ﷺ بعد فترة مما سُمى «بيوم بعاث». وبعاث مكان بالمدينة تقاتل فيه الأوس والخزرج حتى كادت القبيلتان أن تفنيا ، وفى المعركة مات كبراء وشيوخ وأعمدة كثيرة من الفئتين ، وإذا كانت هذه المعركة قد أحدثت شرخاً فعلياً فى قوة القبيلتين ، فإنها سهلت ـ فى نفس الوقت ـ أن يأتى اليثربيون كى يبايعوا محمدا ﷺ، ويرضوا بنبوته ، حتى أن المسلمين الأوائل اعتبروا «يوم بعاث» هدية من الله لرسوله ، ولدعوته(٣٨).

فمقتل رؤوس القبيلتين ، وخلو المدينة من القيادة يرجح كفة ابن سلول الأوسى فى الملك ، بينما يهيئ قدومه ﷺ سيطرة خزرجية على «الأوس» فيما كان حماية محمد ﷺ الذى ألّب قريشا على بعضها ردا للضربة القرشية بتحالفها ومساعدتها «الأوس» بالأمس القريب.

الملاحظة المهمة أن وفد يثرب الذى التقى بالنبى ﷺ فى عكاظ بمكة قبل قدومه المدينة كان من بيت عبد الله الأشهل الخزرجى وحده ، وهم أخوال النبى. وإن اللقاء التالى بعد عام ضم اثنى عشر، تسعة من «الخزرج» وثلاثة فقط من «الأوس»، فيما كان اللقاء الحاسم قبل الهجرة يضم ثلاثة وسبعين ، منهم فقط أحد عشر أوسياً (٣٩).

لذلك يقال أنه ﷺ دخل المدينة فى حماية أخواله ، ولم يكن قد انضم إليه إلا أعداد قليلة جداً لم يستطع أن يجمع منها أكثر من ثلاثمائة محارب حاربوا معه فى معركة بدر(٤٠).

لم تمض سوى أشهر قليلة من هجرة النبى ﷺ للمدينة ، حتى خرجت سرايا المسلمين تقطع طريق قريش للشام ، ورغم أن كثيراً من تلك السرايا لم تستول على القوافل القريشية ، إلا أنها كانت إنذارا للقريشيين بما استقر فى نفس النبى ﷺ تجاه «الإيلاف» ، والأمن الذى ظلت قريش تبنى دعائمه طوال أعوام طويلة ، ومع ظهور القوة الإسلامية العسكرية على الخريطة ، كان يجب أن تتحول القبائل أصحاب المصلحة التجارية مع

الأقوى ، لذلك نقضت قبيلة «بنى مدلج» عهودها التجارية وعقود الحماية مع قريش ، وعقدت حلفاً مع النبى ﷺ ومع يثرب. نفس الأمر فعله بنو حمزة بن بكر من قبيلة كنانة.

ولما خرجت سرية «عبدالله بن جحش» استطاعت الاستيلاء على أموال ونساء وسلاح إحدى أكبر القوافل القرشية أثناء الأشهر الحرام وهى الأشهر التى يحرم العرب فيها الحرب ، مما يعد ـ مرة أخرى ـ إنذاراً محمدياً باستخفاف المسلمين ورفضهم لقواعد قريش (أهل بيت الله) الدينية ، فى نفس الوقت الذى يصلى فيه النبى ﷺ والمسلمون للمسجد الأقصى ويصومون يوم الغفران أعظم الأعياد اليهودية (٤١) وفيما فقدت قريش أعصابها ، مستخدمة الدبلوماسية بين القبائل العربية رغبة فى إدانة محمد ﷺ والمسلمين الذين انتهكوا الأشهر الحرام ، كان النبى ﷺ يقرأ بالمدينة الآيات الكريمة ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾(٤٢). بما يعنى أنه لا أهمية لا للأشهر الحرام ، ولا للاعتقاد القرشى ، ولا مرجعية إلا للقرآن الكريم.

مالت دفة القوة ليثرب ، وبدا واضحاً أن قبائل العرب حولها تتطلع للود النبوى ، الذى تحول لعقود واتفاقيات فيما عُرف بـ «عقود الموادعة» دون أن تعلن هذه القبائل إسلامها.

الغرض السياسى فى هذه المرحلة إضعاف الجبهة المكية ، وتفكيك «الإيلاف» الذى أعطته قريش للقبائل المجاورة ، وخصوصاً أن ما حصل عليه المسلمون يوم بدر من سلاح وأموال ودروع وعتاد وروح معنوية عالية يسير فى الطريق المرسوم للصورة الجديدة داخل شبه الجزيرة العربية. (ولما استتب الوضع فى المدينة ، بدأ الوحى ينبه النبى ﷺ لعدو آخر داخل المدينة نفسها. فنزلت الآية الكريمة: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾(٤٣)، فى إشارة إلى أن هناك عدواً آخر لا يعلمه المسلمون ، إنما يعلمه الله ، واتضح فيما بعد أن العدو الذى لا يعرفه المسلمون هم اليهود ، حتى نادى النبى ﷺ بصراحة قائلاً: «من ظفرتم به من رجال يهود فاقتلوه».

وهى بداية للتحول فى الآيات المهادنة لبنى إسرائيل ، إلى المعنى الجديد: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾(٤٤).

كان احتمال الافتتان باليهود واردا ، إذ أنهم أيضا أصحاب كتاب ورسالة سماوية ، ثم

إن النبى ﷺ نفسه ذكرهم بـالخير وخاطبهم بالحسنى ، وخصهم القرآن بـاعترافه برسالتهم فى حين أنه ـ القرآن ـ وصف «أهل كعبة مكة» بالكافرين.

إضافة إلـى أنه ﷺ قد أحس فيهـم السوء ، والغدر. ولـما نزلت الآية الكريمـة من سورة الأنفال: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾. قال رسول الله ﷺ: «أنا أخاف مـن بنى قينقاع» وخـرج لقتالهم يـحمل لواء جيشه عـمه حمزة رضى الله عنه(٤٥). فكان بنو قينقاع أول اليهود الذين طردوا من المدينة.

وينزل القرآن يأمر المسلمين بالصلاة للكعبة المكية ، مرة أخرى ، وترك قبلة بيت المقدس اليهوديـة ، وأقر الوحى صيام شـهر «رمضان»، وتقديس يـوم الجمعة الذى يـقدسه عرب مكة ، ويسمونه «يوم العروبة»، تمييزاً له عن السبت اليهودى ، والأحد المسيحى.

وفى تحرك تكتـيكى هائل ، بدا أن النبى يود أن يـبعث برسالة واضحة للعـرب جميعاً ، إن القداسـة لابد أن تعود لمكة مـن جديد ، وإن قطع الـطريق التجارى ومـن ثم «الإيلاف» و«التقريش» ممكن أن يعود مـن جديد ، تحت قيادة جديدة ورمز جديد. أمـا القيادة فكـانت قيادته هـو نفسه ﷺ ، وهـو الهاشـمى ، حفيد عبدالمطـلب بـن عبد مناف ، ابـن قصى بن كلاب. والرمـز هو الدين الإسلامى ، فـلو دخل المكيـون الإسلام تحت القيادة المحـمدية ، فإنهم سـوف يعودون وبموجب إشارات وتلـميحات التصرفـات النبوية لمكانـتهم الأولى ، فالإسلام لـم يهدد المصالح المكية إلا لسبب ، وعندما ينتهى السبب لابد أن يكتشف العرب بمن فيهم المكيون أن كل ما فات لـم يكن إلا لتـوحيد العرب جميعاً هذه المرة ، وليس بعض قبائلهـم ، تحت راية محمد بن عبـد الله ؛ الذى يقرأ كتاباً أنزلـه الله باللغة العربيـة ، يسحب البـساط من تحت أقـدام اليهود والمـسيحيـين ، فيعـود المكيون أهـل الله من جديد ، وحـماة العرب ، كلهم(٤٦).

❑

الدولة الإسلامية قامت بـجهود البيت «الهاشمى» وحده ، وهو ما لـم يـغفره أبداً البيت الأموى ، وامتداداً للصراع التاريخى بين بنى هاشم وبنى أمية ظل بنو «أمية بن عبد شمس» (الأمويون) يترقبون الفرصة ، المرة بعد المرة حتـى نجحوا فى الاستيلاء على القيادة فى عهد معاويـة بن أبى سفـيان (الأموى) رغم أن عـلى بن أبى طـالـب (الهاشـمى) كان قد بـويع بالخلافة فى الكوفة.

وظهرت مشاعر بنى أمية تجاه أبناء عمومتهم من «بنى هاشم» واضحة فى قتلهم كل من أيد «البيت الهاشمى» أو ساعده ، إضافة لتحريضهم وأمرهم قتل أحفاد النبى ﷺ نفسه (الحسن والحسين وأبنائهم) فى محاولة مستميتة ، وصلت لحد الهوس لاستئصال كل ما يمت لبنى هاشم بصلة ، وضربت الكعبة الشريفة «بالمنجنيق» (كرات النار الملتهبة) وأحرقوها ، وفى المستقبل سيقول يزيد بن معاوية ابن أبى سفيان أن بنى هاشم «لعبوا بنا.. فلا منهم ملك .. ولا نبى نزل». قال هذا وهو يدحرج رأس الحسين رضى الله عنه حفيد النبى ﷺ على طبق من فضة قدمه له من كلفه بقطع رأسه.

❑

بعد الفتنة الكبرى (حرب على بن أبى طالب ضد معاوية بن أبى سفيان). ومع الوضع فى الاعتبار عوامل كثيرة من عنصرية الأمويين والعباسيين ، وتسيس الخلافة الإسلامية ، وتأويل آيات القرآن بما يتناسب مع طموح التوسع وقهر الأعداء. واختلاط المعنى بين «النبوة» وبين «المُلك»، بدأ مدعو النبوة مهام عملهم ، لذلك نشأت حركات وجماعات وقوميات تتنازع «النبوة»، ومن ثم تتنازع «الملك» .. كل بطريقته.

الهوامش

(١) ابن هشام فى الروض للسهيلى. ج١/ الرسول ﷺ ص٧٣.

(٢) محمود سليم الحوت: فى طريق الميثوليوجيا. عند العرب، ص ١٣٣.

(٣) د. خليل أحمد خليل: مضمون الأسطورة فى الفكر العربى، الطليعة، بيروت، ١٩٧٧، ص ٤٣.

(٤) سيد محمود القمنى. النبى موسى وآخر أيام تل العمارنة.

(٥) د. جواد على: المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، المجمع العلمى العراقى. بغداد. ج٥، صفحات: ١٥٢، ١٥٣، ٢١٧، ٢٢٤.

(٦) عباس محمود العقاد: طوالع البعثة المحمدية ص ١٣٠، ١٣١.

(٧) المرجع السابق (أبو رغال وقصة أبرهة) ص١٣١ وما بعدها.

(٨) عباس محمود العقاد: طوالع البعثة المحمدية ص ١٤٥، ١٤٦.

(٩) ابن هشام: السيرة النبوية، ج١، ص ١٠٩:١١٥ ـ ابن كثير البداية والنهاية، دار الكتب العلمية، بيروت ط٤، ١٩٨٨، ج.٢، ص ١٩٤.

(١٠) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك. دار المعارف. القاهرة ط٢، ج٢، ص ٢٥٩.

(١١) ابن هشام: السيرة، ج١، ص ١٢٣.

(١٢) أبو جعفر محمد بن حبيب: المحبر، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ص ٢٣٧.

(١٣) ابن عبد ربه: العقد الفريد ج١، ص ٢٩١: ٢٩٣. المسعودى: مروج الذهب، ج٢، ص ٨٣، ٨٤.

(١٤) أبو بكر البيهقى: دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة. دار الريان للتراث ط١ القاهرة ١٩٨٨، ج٢، ص ٢٢.

(١٥) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١، ص ٢٦١.

(١٦) د. جواد على: المفصل: ج٥. ص ٥٩.

(١٧) الألوسى: بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب، القاهرة، ١٩٢٤، ج٢، ص٢٢٥. ابن الجوزى: تلبيس إبليس. تصحيح محمد منير الدمشقى، المطبعة المنيرية ص ٧٤.

(١٨) عباس العقاد: إبراهيم أبو الأنبياء: دار الكتاب العربى، بيروت، ١٩٦٧، ص ١٤٤.

(١٩) الجاحظ: البيان والتبيين. القاهرة ١٩٤٨، ج١، ص ٣٠٩.

(٢٠) الألوسى: بلوغ الأرب، ج٢، ص ٢١٩، ٢٥٩.

(٢١) ابن كثير: البداية والنهاية، ج٢، ص ٢٢١، ٢٢٤.

(٢٢) المسعودى: مروج الذهب ج١، ص ٧٠. وكتاب الثالوث المحرم لأبو على ياسين، الطليعة بيروت، ص٤، ١٩٨٠، ص ٧٠، ٨٥.

(٢٣) ابن سعد: الطبقات. طبعة لندن، ج٣، ص ٢٧٦.

(٢٤) سورة الكافرون: قرآن كريم الآية (٦).

(٢٥) سورة يونس: قرآن كريم الآية (٩٩).
(٢٦) سورة فاطر: قرآن كريم الآية (٢٣).
(٢٧) سورة الأنعام: قرآن كريم الآية (١٠٧).
(٢٨) سورة المزمل: قرآن كريم الآية (١٠).
(٢٩) سورة القلم: قرآن كريم الآية (١٣).
(٣٠) سورة الكافرون: قرآن كريم .
(٣١) ابن جرير الطبرى الإمام: تاريخ الرسل والملوك ، دار المعارف، القاهرة. ط٢. ج٢، ص ٣٣٧, ٣٤٠.
(٣٢) أبو جعفر النحاس: الناسخ والمنسوخ فى القرآن الكريم. مكتبة عالم الفكر، القاهرة ١٩٨٦ .
(٣٣) الطبرى الإمام: تاريخ الرسل والملوك. ط٢. ص ٣٣٧، ٣٤٠.
(٣٤) أسباب النزول فى السيوطى تفسير الجلالين.
(٣٥) أسباب النزول فى السيوطى تفسير الجلالين.
(٣٦) سورة المائدة : قرآن كريم الآية (٤٤).
(٣٧) سورة الأعراف : قرآن كريم الآية (١٥٧).
(٣٨) ابن كثير: البداية والنهاية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٤، ١٩٨٨، ج٣، ص ١٤٦.
(٣٩) سيد محمود القمنى: حروب دولة الرسول. الجزء الثانى.
(٤٠) المرجع السابق.
(٤١) المرجع نفسه.
(٤٢) سورة البقرة : قرآن كريم الآية (٢١٧).
(٤٣) سورة الأنفال : قرآن كريم الآية (٦٠).
(٤٤) سورة آل عمران : قرآن كريم الآية (١٩).
(٤٥) ابن سيد الناس : عيون الأثر فى فنون المغازى والشمائل والسير ١٩٨٠ ج١.
(٤٦) سيد محمود القمنى: حروب دولة الرسول ، الجزء الثانى.

دراسة فى الاستخدام السياسى للدين

مدعو النبوة فى التاريخ الإسلامى

2

دولة الوحى

دار الخيّال

"السياسة" .. وإرادة الله

« سيأتى بعدنا قوم يقرأون القرآن ، ولا يعلمون فيما نزل ... فيؤولونه ويختلفون فيما أولوا ثم يقتتلون فيما اختلفوا فيه».

«ابن عباس لعمر بن الخطاب»

كانت سياسة النبى ﷺ مرسومة بالوحى. يدعمها الله ... وتنقلها الملائكة.

لم يكن ﷺ يسوس المسلمين من تلقاء نفسه فى أمور الله ، أما فى أمور الدنيا ، فقال : «أنتم أعلم بشئون دنياكم» عندما استشاره الصحابة بيثرب فى أمر تأبير النخيل ، أيؤبرونه أم يتركونه كما هو؟ لم يكن الصحابة يعلمون الفرق بين الوحى وبين أمور الدنيا ، وعندما سألوه أيقلعون النخيل أم يتركونه ، كانوا ينتظرون وحياً للنبى ﷺ فى هذا الشأن ، وإجابته ﷺ أكدت أنه لا وحى إلا فى الأمور التى تتطلب ذلك.

بعد فترة فهموا الفرق بين الوحى وبين أمور الدنيا ، لذلك سأل سلمان الفارسى النبى ﷺ أثناء التحضير لغزوة الخندق «أهو الوحى أم أنها الحرب والمكيدة ؟!». فأجابه ﷺ بأنها الحرب والمكيدة ، فاقترح سلمان فكرة إقامة خندق حول المدينة وهو أسلوب معروف فى المعارك الحربية ببلاد فارس ، ولو كان النبى ﷺ يوحى إليه فى كل شىء ، لأجاب بآيات قرآنية فيما يتعلق بالنخيل ، ولأجاب بآيات أخرى فيما يتعلق بما يجب أن يفعله المسلمون فى معركة الخندق.

والفهم الخاطئ في أن النبي ﷺ يوحى إليه في كل تصرفاته استناداً على الآية القرآنية الكريمة: ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾ يتعارض مع السيرة النبوية ومع أسباب نزول الآيات القرآنية ويتعارض مع فكرة الدين الإسلامي من الأساس . والمنطقى فى تأويل الآية أن المقصود بها القرآن فقط ، فقد أراد الله أن يؤكد لكل الناس أن محمداً ﷺ لا ينطق عن (الهوى) ، أى أنه منزه عن أغراض معينة زعم المشركون أنه يسعى إليها بدينه ودعوته الجديدة ، وقال تعالى فى ذلك ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾ بما يعنى أن القرآن الكريم وحى من الله لا دخل لمحمد ﷺ به. فهو لم يكتبه بنفسه ولا هو مجرد شعر يقصد به أن يكون ملكاً على العرب.

الثابت أن الوحى كان ينزل للنبى ﷺ بآيات فى ظروف تتطلب تشريعاً معيناً ، لم يكن النبى ﷺ فى أكثرها يعرف ماذا يفعل ، وكان لابد أن يتدخل الله سبحانه بنفسه حتى يرسى مبادئ عامة وخاصة للمسلمين ، لذلك نزلت الآيات من أمثلة: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾[1] ، و﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾[2]، و﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾[3] ، و﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾[4] ، ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾[5].

ولو كان ﷺ يوحى إليه فى تصرفاته الشخصية لما عاتبه الله سبحانه بآيات قرآنية نزلت أيضاً فى وقائع محددة ، فالآية الأولى فى سورة التحريم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾ معاتبة للنبى ﷺ فى أنه منع عن نفسه شرب العسل لأن غيرة زوجاته من بعضهن البعض كادت تستفحل . فقد دخل ﷺ يوماً على السيدة عائشة وكان قد شرب بعضا من العسل عند السيدة سودة ، فقالت السيدة عائشة غاضبة: «إنى أجد منك ريحاً» ثم دخل على السيدة حفصة فقالت نفس الكلام غيرة من شربه العسل عند زوجة أخرى ، فحرم ﷺ على نفسه شرب العسل[6] . وقيل أيضاً أنه ﷺ حرم على نفسه إحدى جواريه بناء على رغبة وغيرة السيدة حفصة[7] . ونزلت الآية الكريمة ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾[8] معاتبة أيضاً له ﷺ عندما أخفى زواجه من زينب بنت جحش. ونزلت ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى (١) أَن جَاءَهُ الأَعْمَى﴾[9] وهى ـ مرة ثالثة ـ معاتبة رقيقة للنبى ﷺ فى عدم اكتراثه بأبن أم مكتوم الأعمى. وكان النبى ﷺ قد تركه

عندمـا جاء يسأله بـينما توجـه ﷺ لعظماء من المـشركين بالحديـث اللين وبكل الاهـتمام. كانت رغبته ﷺ فى أن يدخل وجهاء المشركين فى الإسلام سبباً رئيسياً فى إعراضه عن ابن أم مكتوم .. لذلـك عاتبه الله. ولو كانت كل تصـرفاته (ﷺ) موحى بها لما حرم الـنبى على نفسه العسل ، ولا أعرض عن ابن أم مكتوم.. ولما نزلت الآيات القرآنية معاتبة.

وقد تصرف المـسلمون الأوائل على أساس هـذا الفهم ، وعلى أساس أن الـنبى ﷺ ما هو إلا بشر مثلهم يوحى إليه. وإنه ﷺ له ما لهم ، وعليه ما عليهم.

لكن الأمر اختلف فيما بعد ، وتحول النبى ﷺ وسيـرته إلى مثار للفخر العربى علي غير العرب ، وبعـد فترة فهم عن النبـوة أنها ملك يورث ، واحتج كـثيرون بقرابتهم لـلنبى ﷺ وعشيرته للاستحواذ على الحكم وقيادة المسلمين.

ولما مات الخليفة مـعاوية بن أبى سفيان ، كان الواقع أن تحول الإسـلام من دين سماحة ورحمة لا فرق فيه لعربى على عجمى إلا بالتقوى ، إلى ملكية أرستقراطية يحكمها خلفاء «مختـارين من الله». حتـى إن أحاديث نبـوية موضوعـة لم يقلـها النبـى ﷺ ـ ولا يمكن أن يكون قالـها ـ ظهرت فجأة لـلتأكيد علـى أحقية جماعـة فى الخلافة دون غيرهـا ؛ أشهرها «الأئمة من قريش» الذى يقصر الخلافة فى الأمويين ثم العباسيين ، ثم فى الفاطميين الذين نسبوا أنفسهم لفاطمة بنت رسول الله ﷺ.

وبالتدريج ألمَّ بـالسيرة النبوية كثير مما يـجافى الحقيقة ، فذهب الكثـيرون إلى أن النبى ﷺ كان يعلـم الغيب ، وأنه كان يعـرف ماذا سوف يحدث فى المـستقبل بعد مـا أطلعه الله عليـه. وفى منتصف الخـلافة الأموية ظهر إسـلام جديد على خلاف الـدين الذى أراده الله للناس.

فاستقرت الملكية الإسلامية وعاد العرب لمحاكـاة النبوة بالملكية. وهو المفهوم الذى كان قد رسخـه اليهود قبل ظهور الإسلام وأصفين به أنبـياءهم السابقين ، أو المنتظرين . فالنبى سلـيمان عنـد اليهـود ملك ، وداود ملـك. وفى واقعـة صلب المسـيح كتـب اليهود أعـلى الصليب مسـتهزئين بالمسيح المصلوب «هذا هـو ملك اليهود». بعدما كانوا ينـتظرون ملكا نبيا يرجعهم لأمجادهم التى ولت.

مفهوم الملكية النبويـة كان بالفعل معتقداً لدى الكثير من القبائل الـعربية حتى فى حياته ﷺ. وعندما جاءت وفود القبائل العربية لمبايعة النبى ﷺ فى المدينة فيما سمى بعام الوفود ،

كان الأمر فى حقيقته خضوعاً لدولة جديدة ، وملك جديد ، ترغمهم القوة على تنفيذ قوانينه ، بينما لم يكن إيمانهم قد استقر بعد.

النبوة كانت ـ كما ظنوا ـ بلاغة فى القول ، وعزوة فى الناس وسلطانا يُفرض بحد السيف . ولما جاء وفد بنى حنيفة للنبى ﷺ فى العام نفسه ، جاء معه مسيلمة بن حبيب المعروف بالذكاء والتطلع والطموح ، وبعدما أسلم الوفد كله ، وفى طريق عودته لموطنه اليمامة ، دفع الرجال مسيلمة بن حبيب لادعاء النبوة ، بعدما شاهدوا حجم السلطة والخضوع الذى يتمتع به النبى ﷺ. فقد رأى أهل اليمامة ـ كما اقتنع مسيلمة ـ أنها ملك دنيوى وشرف قبلى ، ونفوذ بشرى.

وكما حدث مع مسيلمة ، حدث مع كثيرين ، فادعى الأسود العنسى فى اليمن النبوة ، وادعاها طلحة بن خويلد من بنى أسد ، وادعتها أيضاً سجاح الكاهنة التى تزوجت من مسيلمة حتى لا تخرج النبوة منهما.

وبعد وفاة النبى ادعى النبوة آخرون من قبائل لم تطق حكومة الإسلام المركزية ، متطلعة فى الوقت نفسه للزعامة ، إضافة إلى رغبتهم ـ شأن معظم العرب ـ فى الحرية المطلقة غير المقيدة بحاكم ليس منهم.

ولما ظهر مسيلمة ، آمنت به قبيلته ، وقبائل أخرى مجاورة تربطها مصالح تجارية مع قومه ، وكان أشد قتال قاتله المسلمون فى حروب الردة هو ذلك الذى استبسل فيه «بنو حنيفة» دفاعاً عن دين «مسيلمة» وقرآنه.

زعم مسيلمة أنه يتلقى الوحى من السماء. ومن آياته «سمع الله لمن سمع ، وأطعمه بالخير إن طمع ، ولازال أمره فى كل ما سر نفسه يجتمع ، رآكم ربكم فحياكم ، ومن وحشة خلاكم ، ويوم دينه أنجاكم ، فإياكم علينا فى صلوات معشراً أبرار. لا أشقياء ولا فجار ، يقومون الليل ويصومون النهار ، لربكم الكُبار ، رب الغيوم والأمطار».

وقال أيضاً: «لما رأيت وجههم حسُنت ، وأبشارهم حفت ، وأنيابهم طفلت ، قلت لا النساء تأتون ولا الخمر تشربون ، ولكنكم معشر أبرار ، تصومون يوماً وتطلقون يوماً ، وسبحان الله إذا جاءت الحياة كيف تحيون ، وإلى ملك السماء ترقون ، فلو أنها حبة خردلة لقام عليها شهيد ، يعلم ما فى الصدور ، وأكثر الناس فيها البثور».

ولما شُهر أمر مسيلمة ودعوته ، خافت بنو تميم ، وكانت منهم سجاح ـ مدعية النبوة ـ أن يأخذ بنو حنيفة نصيبا أكبر من الشهرة ، وربما مُلك العرب لو آمنت قبائل أخرى بدعوتهم ، لذلك جهز بنو تميم جيشاً كبيراً لحرب بنى حنيفة وقتل مسيلمة ، ولكن مسيلمة

استطاع أن يستعمل السياسة ، ودخل هو وسجاح خيمة ملأتها عطور وبخور ودار هذا الحوار:

ـ ماذا أوحى إليك؟!

ـ لا تبدأ النساء اذكر أنت ما أوحى إليك.

فقال مسيلمة: «ألم تر كيف ربك فعل بالحبلى ، أخرج منها نسمة تسعى ، من بين صفان وحشى» وأكمل بكلام جنسى أثارها ، فرأت أنها نبية وهو الآخر نبى فلابد ألا يفترقا ... إذ أن آلافا يتبعونه بسيوفهم ، إضافة إلى الآلاف الذين يتبعونها بسيوفهم لابد أن يحدثوا تغييراً ما فى الجزيرة العربية على غرار التغيير الذى فعله محمد ﷺ. وطلب مسيلمة سجاح للزواج ، فوافقت. ولما ذهبت لقومها وأعلنت الخبر ، سألوها عن المهر ... فعادت لمسيلمة تسأله عن مهرها ، فأمر مسيلمة أحد أتباعه ليخرج فنادى فى الناس أن مسيلمة رسول الله قد ألغى صلاتين مما أمر بهم محمد رسول الله ﷺ ... صلاة العشاء والفجر. وابتسم مسيلمة لسجاح ، لأنه ليس فقط الذى سيدفع مهرها ، إنما يدفعه كل أهل بنى حنيفة.

وإعمالاً لمبدأ تقسيم القوة وإحلال التوازن ، بعث مسيلمة بخطاب للنبى ﷺ قال فيه : «من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله ، أما بعد ... فإن لنا نصف الأرض ، ولكم نصف الأرض. لكن قريشا قوم لا يعدلون».

فإذا كان محمد ﷺ فى طريقه لملك الجزيرة العربية كلها لأنه نبى يوحى إليه ، فإن مسيلمة رأى أن يقاسمه الأمر ... لأنه هو الآخر نبى يوحى إليه ، فما كان من النبى (ﷺ) إلا أن رد عليه فى رسالة يقول : «من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب ، أما بعد ... فإن الأرض لله يرثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين».

وكانت أطرف آيات مسيلمة: «يا ضفدع بنت ضفدعين ، مالك تنقين لا شرباً تشربين ، ولا ماء تكدرين». ثم قال: «والحمام واليمام ، والصرد الصوام ، لقد صمنا قبلكم بأعوام ، ليبلغن ملكنا العراق والشام»(١٠).

قصة مسيلمة وسجاح نموذج واضح لاستغلال النبوة ، والرغبة فى التميز بها ذلك الوقت.

❏

مع صراع القوميات والحضارات كان لابد أن تُستخدم النبوة ـ طبقاً للمفاهيم السائدة ـ

كأداة لحسم النزاع ، فعنـدما فتح المسلمون فارس ، تأكد الفرس ـ بعـد فترة ـ أن العباسيين الذين جـاءوا أشد قوة وبطشاً من الأمويـين ، وبعدما أمـل الفارسيـون أن تظهر الحـضارة الفارسيـة بكل ثقافتها وتـقدمها فى ظل الحكـم العباسى ، وخصوصاً أن الأمـويين مارسوا أشد أنواع القـهر النفسى والـثقافى ضد مواطنـى فارس ، فوجئوا بأنـه لا فرق بين الأموى والعباسى ، وأن الخليفة السفاح مثله مثل الخلـيفة يزيد بن معاوية ، وأن قوة خلفاء بنى أمية وبنى العباس تكمن فى السيوف التى تساندها الآيات القرآنية.

لذلك عاد الفرس لأصول عباداتهم الأولى ، ولعله السبب الأساسى فى خروج «أنبياء» كثيرين منهم ، يخلطون «الوحى» المسلم «بالوحى» الفارسى.

والملاحظ أن الفـتنة الكبرى التـى بدأت بمقتل عثـمان بن عفان لم تكـن إلا صراعاً بين الهاشميين وأبناء عمومتهم الأمويين ، وقف فيه معاوية بن أبى سفيان الأموى ضد على بن أبى طالب الهاشمى ، ولقد رسخ هذا حرباً سـياسية لا دخل للإسلام بها. وهى ـ أى الفتنة ـ المسئولة عن شرخ هائل فى المجتمع الإسلامى إلى الآن.

وهى أيضاً أحد أسباب ظهور الكثير من مدّعى الـنبوة ، بعد ما قُتل على أثرها على ابن أبى طالب ، وأسـست لمقتل الحسين ابـنه فى كربلاء ، ومن قـبل قُتل الزبير بـن العوام أحد الصحابة المبشرين بالجنة ، قتله أحد مقاتـلى جيش على بن أبى طالب فى موقعة صفين مع أنه لا يحق لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ.

لكن السياسة جعلت كل مستحيل ممكنا. وكل مكروه مفروضا.

❑

أراد الله للإسلام أن يكون ديناً ، بينما أراد الناس أن يكون سياسة ، وأن تصبح السياسة دينا ، مع أن الدين عام شامل وإنسانى بحت ، أما السياسة فقاصرة ومؤقتة.

وعندمـا ساس النبى ﷺ أمور المـسلمين ، كان تحت رقـابة الوحى ، تعامـل ﷺ وعامل بالقرآن. إما أن يـنزل له الله آية ، أو يترك ﷺ للمسلـمين ـ فى غياب النص القرآنـى ـ تنظيم أمور دنياهم بأنفسهم ، يفعلون ما يرونه صحيحاً .

حكومة الـنبى ﷺ كانت حكـومة من نوع خاص. الحاكـم فيها هو النـبى ﷺ. ولما كان المسـلم ينـطق الشـهادتين ، كـان رضاء ضمـنياً بسـياسة الـنبى ﷺ لأمـوره ، فقد كـان هو «الحكَم» الوحيد الـذى يلجأ إليه الناس مختـارين ، وينفذون حكمه طائعـين ، حكومة من

هـذا النـوع تختلف تماماً عـن حكومة تـقـود الناس باسـم القانون والدستـور ، ولا يمكن عملـياً أن نحـاول تـطبيق نمـوذج الحكومة الـنبوية فى أى عـصر آخـر، لأنه لا يـوجد من يوحى له الله ، ولا من يعاتبـه سبحانه وتعالى ليعيد النظر فيـما فعل ... ثم إن أى حاكم لن يكون هو الـنبى ﷺ ، ولا يمكن للناس أن يـكونوا مثلما كـان الصحابة والسلف الـصالـح طـوال حياتـه ﷺ.

لذلك ، وبعد وفاة النبى ﷺ عادت قوانين السيـاسة والحياة لتعمل من جديد ، فقد أُخذ علـى الخليفـة عثمـان بن عفـان رضى الله عنه أنـه ولى أقربـاءه من بنـى أمية أمور الـبلاد ومسئولـياتها بصرف الـنظر عن كفاءتـهم ، وسمح عثمـان رضى الله عنه لأكابر المـسلمين والصحابـة أن يغادروا المدينة ، بـعد أن منعهم أبو بـكر رضى الله عنه ، وعمـر بن الخطاب رضى الله عنـه لكى لا يقـيموا منـاطق نفوذ دينـية خارجهـا ... وربما يفتـتن بهم المسـلمون فتتشرب مناطق وجودهم تدريجياً بأنماط وأساليب المُلك ، فيتطلع الطموحون لمغانم الحياة، ومن ثم تكون النتيجة سياسة فى الأسلوب ، دينا فى المظهر.

وهو تقريباً ما حدث فيما بعد.

فمات الـزبير بن العـوام وله واحد وخمسـون أو اثنان وخمـسون مليون درهـم إضافة لأراضٍ بمساحات لـيست هينة بمصـر والإسكندرية والكـوفة والبصرة مع تجارة فـى المدينة المنورة. ومات سـعد بن أبى وقاص بقصر كـبير يبعد عن المديـنة عشرة أميال تقريـباً تاركاً مائتين وخمسين ألف درهم ، فيما ترك طلحـة بن عبيدالله من العقار والأموال ما يزيد على ٣٠ مليون درهم ، وترك عبدالرحمن بن عوف ألف بعير ، وثلاثة آلاف شاة ، ومائة فرس، وكان فيما ترك ذهب ، قُطع بالفؤوس أرهق سواعد من حاولوا تقطيعه[١١].

وفى روايات أخرى بلغت ثروة الزبير مائة وخمسين ألف ألف ، وأن أرباح تجارة طلحة كانت ألف درهم كل يوم[١٢].

أما عثمان بن عفان نفسه رضى الله عنه فقـد ترك يوم قُتل ثلاثة ملايين وخمسمائة ألف درهم ، ومائة ألـف دينار ، وترك ألف بعـير بمنطقة الـربذة وترك صدقات كان تـصدق بها بمناطق براديس وخيبر ووادى القرى قيمتها مائتا ألف دينار[١٣].

فيـما يحـكى عن عمـر بن الخطـاب رضى الله عنـه أنه حج هـو وابنه فأنـفق فى ذهـابه ومجيـئه إلى المدينة سـتة عشر ديناراً فـقال لولده عبدالله« لـقد أسرفنا فى نـفقتنا فى سـفرنا

هذا». ولما مات على بن أبى طالب لم يترك إلا ستمائة درهم أراد أن يشترى بها خادماً لأهله، وقال بعضهم أنه لم يترك سوى مائتين وخمسين درهماً ومصحفه وسيفه(١٤).

أُخذ على الخليفة عثمان رضى الله عنه ـ أيضاً ـ أنه نفى المعارضين لحكمه إلى الشام كى يؤدبهم واليه هناك معاوية بن أبى سفيان، كذلك نفى أبا هريرة لمنطقة الربذة بعد خلاف تاريخى شائع بينهما، ونبه بمقاطعته والامتناع عن وداعه، وحدث ما كان يخشاه عمر بن الخطاب وجاهد ألا يحدث، فلقد وثبت قريش على السلطة بمجرد ولاية عثمان رضى الله عنه لما عرف عنه من لين وحب لأهله وعشيرته، ومع أن عمر بن الخطاب، وأبو بكر كانا من قريش هما الآخران، إلا أنهما نظراً لاختلاف شخصيتيهما عن عثمان، ونظراً لأن عثمان وحده من بنى أمية الذين تكمن فيهم عصبية قريش؛ تبدلت الأمور فى خلافته.

قال ابن خلدون «عصبية مضر فى قريش وعصبية قريش فى عبد مناف وعصبية عبدمناف فى بنى أمية». وفى عهد عمر بن الخطاب لم يكن لبنى أمية من بين إحدى عشرة ولاية إلا واحدة فقط، ولم يكن للقريشيين سوى ثلاثة فقط، بينما لم يكن «لعدى» فرع عمر بن الخطاب إلا واحدة، غير أن كل هذا تغير، وأصبحت ٩٥٪ من الولايات لبنى أمية فى عهد عثمان.

ولما ثار مسلمو مصر والعراق ضد ولاية عثمان، وطالبوه هو نفسه بترك الولاية جمع عثمان رضى الله عنه أهل ثقته وأقرباءه وسألهم؛ فأشار عليه عبدالله بن عامر الأموى أن يشغلهم عثمان رضى الله عنه بالجهاد ليلهيهم عما يحدث فيما يتعلق بأمور الحكم واستبداد الولاة. وقال: «أرى لك يا أمير المؤمنين أن تشغلهم عنك بالجهاد حتى يذلوا لك ولا تكون همة أحدهم إلا فى نفسه، وما هو فيه من دبر دابته وقمل فروته».

وخير معاوية بن أبى سفيان الأموى عثمان بين أمرين، فإما أن يسمح لأربعة آلاف مقاتل من أهل الشام يختارهم معاوية نفسه بعناية فيحتلوا المدينة ويثبتوا سلطة بنى أمية، وإما أن ينفى شيوخ الصحابة وكبار أصحاب رسول الله ﷺ لبلدان متفرقة، بحيث لا يبقى اثنان منهم فى بلد واحد. وقال معاوية لعثمان: «اضرب عليهم البعوث والندب حتى يكون دبر بعير أحدهم أحب إليه من صلاته»(١٥).

وكان لابد للأمر أن ينتهى بالدماء.

السيدة عائشة رضى الله عنها نفسها فى معركتها ضد عثمان شبهته بمسيحى مراب مقيم بالمدينة اسمه «نعثل» ونادت فى المسلمين «اقتلوا نعثلاً فقد كفر»(١٦). وخرج طلحة بن

عبيد الله يحرض الثائرين على عثمان هو الآخر ، ولما قُتل بن عفان رضى الله عنه فعلاً ، عاد طلحة للخروج مع السيدة عائشة فى جيش أعدته لقتال على بن أبى طالب ثأراً لعثمان. ويقول طلحة فى سكرات الموت بعد ما أصابه سهم نافذ «هذا سهم رمانى به الله ، اللهم خذ لعثمان منى حتى ترضى»(١٧).

ولما تسلق الثوار سور منزل عثمان ، وعاجلوه وهو يقرأ القرآن ، أمسك محمد بن أبى بكر الصديق الذى كان ضمن من ثاروا بلحية عثمان يهزها ويهزأ به ، فقال له عثمان رضى الله عنه : «يا ابن أخى دع لحيتى فوالله لقد كان أبوك يكرمها ولو رآك فى مكانك هذا لاستحيا مما تصنع». فاستفاق محمد بن أبى بكر لما يفعل ، وعرف أنه مهما حدث لا يمكن أن تصل الأمور إلى هذا الحد ، فترك الخليفة ، وخرج من داره.

لكن بقية الثائرين لم ينتهوا حتى قُتل عثمان وهو يقرأ القرآن ، وبمقتله رضى الله عنه دخل الخلاف بين الأمويين والهاشميين مرحلة أظهرت فرقاً كثيرة ادعت كل منها لنفسها احتكار الحق ، لأنها وحدها على الإيمان ، فيما كفر الباقون ، ولا إيمان لهم ولا عهد.

ولما صار فناء الدين ساحة للسياسة ، أبيحت المحرمات. فالسياسة ـ غالباً ـ تبيح المحرمات ، وتنتهك العورات ، على عكس الدين الذى يرى أن الأصل فى «الدماء» و«الأعراض»... التحريم.

ولما قُتل عثمان بن عفان (رضى الله عنه). رفض الثوار أن يدفنوه بمقابر المسلمين. وضربوا الجثة حتى كسروا ضلعا فيها. وانتهى الأمر بدفنه (رضى الله عنه) فى مقابر اليهود، حتى تولى معاوية بن أبى سفيان... فضم مقابر اليهود لمقابر المسلمين(١٨).

ولما قُتل الحسين بن على (حفيد رسول الله ﷺ)... مثّل الأمويون بجثته. وأخرج ـ الأمويون أيضاً ـ جثة زيد بن على زين العابدين بعد دفنها ، وصلبوها أمام الناس حتى تحللت. وعندما انتصر العباسيون على الأمويين ، نبشوا قبور الخلفاء الأمويين وأخرجوا رفاتهم ، ليجلدوها بالكرابيج ودعا أبو العباس السفاح ـ أول خلفاء بنى العباس ـ من بقى من الأمويين إلى قصره ، وأمر بقتلهم شر قتلة ، ثم فرش مائدة على أجسادهم ـ وبعضها لم يمت بعد ـ وجلس يأكل مع حراسه ووزرائه.

نتيجة طبيعية للخلط فى المفاهيم أن أصبح الخليفة العباسى ، ومن قبله الخليفة الأموى، خليفة لله وظله على الأرض ، فعندما تولى السفاح العباسى قال على المنبر يوم مبايعته «إن

الله قد رد علينا حقنا ، وختم بنا كما افتتح بنا. فاستعدوا فأنا السفاح المبيح ، والثائر المبير»[١٩]، صار الخلفاء معصومين فى الفعل والقول ، وصارت رقاب الناس ملكاً كاملاً لهم ، ودولة الخلافة «عزبة خضراء» تجرى فيها خيولهم ، فيعطوا من شاءوا ، ويمنعوا من شاءوا أيضاً.

وكان الأثر كبيراً على الفقه الإسلامى ، فمن الفقهاء من لف ودار حول الحكام ، والأحكام ، وظهرت طبقة من يمكن أن نطلق عليها «فقهاء السلطان» يبررون المظالم ، ويزينون الخطايا ، ويصدرون الفتاوى بأن أى خصم ، مفسد فى الأرض يحل دمه شرعاً.

وخاطب هؤلاء الخليفة بالآيات القرآنية الكريمة التى خوطب بها النبى ﷺ. وهم بذلك طابقوا بين شخص الخليفة وشخص النبى ﷺ ، وطابقوا بين التزامات الناس على النبى والتزاماتهم على الخليفة ، لذلك ترسخ مفهوم الخلط بين منصب الخليفة ومقام النبوة الرفيع الذى لا يضاهيه مقام. ولما تولى السفاح أول الخلفاء العباسيين الخلافة ، حُكى عن الإمام ابن حنبل أنه قال حديثاً منسوباً لمحمد ﷺ يتنبأ بخلافة السفاح ؛ الحديث يقول: «يخرج رجل من أهل بيتى عند انقطاع من الزمان وظهور الفتن ، يقال له السفاح فيكون إعطاؤه المال حثياً»[٢٠]. وأكد فقهاء العباسيين لخلفاء بنى العباس أن رسول الله ﷺ قد قال لعمه العباس أن الخلافة سوف تؤول إلى أولاده ، وهو ما جعل السفاح نفسه يقول على المنبر: «اعلموا أن هذا الأمر فينا ليس بخارج منا حتى نسلمه إلى عيسى بن مريم» (يقصد إلى ما لا نهاية).

الخلط بين السياسة والدين ، وتسييس الدين ، وتديين السياسة أملاً فى النفوذ وطمعا فى السيطرة كان لابد أن يفرق المسلمين شيعاً وفرقاً وجماعات ، هؤلاء ضد هؤلاء ، اعتصم كل منهم بآيات القرآن ضد الآخر ، وتحدى أعداءه بالأحاديث النبوية ؛ واحتمى فى النهاية بفتاوى فقهائه ، لذلك صار الاتهام بالكفر والفساد فى الأرض اتهاماً شائعاً ، فأحلت الدماء ، وأهدرت الحرمات ، وأثرت المظالم السياسية الرهيبة كل التأثير فى أخلاق المسلمين ، فجعلتهم ينسحبون من الحياة العامة لشئونهم الخاصة ، وأفقدتهم كل اهتماماتهم بأى عمل عام ، ما عدا بناء المساجد أو ربما جمع التبرعات لبنائها.

انطوى المسلمون على مصالحهم الخاصة ، وانحصر الفرد فى أسرته ومن حولها ؛ وتدخل فى توافه المسائل ، وتحول إلى الأنانية والخوف والجبن والفساد ؛ كنتيجة حتمية لربط الدين بالسياسة ، واعتبار أن السياسة هى الركيزة الأولى للدين والصنيعة الوحيدة

لإقامته. ظل هذا هو الحال، حال المسلمين والإسلام حتى ألغيت الخلافة الإسلامية عام ١٩٢٤م. فقد شوه العباسيون أعمال الأمويين، وسعى خلفاؤهم إلى الإساءة قولاً وفعلاً لكل أبناء بنى أمية، وتعمد الشيعة العبث بكل أفعال وأقوال العباسيين.

مع أنهم كلهم كانوا طغاة، والطاغية لا يرد بالمنطق .. ولا يجادل بالحسنى. يواجه العفو بالعدوان. ويجنح للتلاعب بالألفاظ، فيسمى العدوان جهادا.. ويسمى ـ أيضاً ـ الهزيمة نصرا.

وإذا كان منهج الطاغية فى المجال السياسى شديد الخطر على الأمم، لما يسببه من تشويه مؤكد للشعوب، وتحريف شديد للقيم. وتزييف للمعانى. فإنه ـ منهج الطاغية ـ أشد خطورة عندما يحدث فى نطاق الدين، لأنه عندما يتمسح بالعقيدة، يجعل من نفسه وكيلاً عن الله، ومتحدثا بلسان الوحى ... الذى لم ينزل إلا على محمد ﷺ. والطاغية عندما يتحدث بلسان الوحى، يتحكم فى تفسير وتأويل النصوص القرآنية، وإسناد الأحاديث النبوية.

❑

عندما وقع الصراع بين على بن أبى طالب الهاشمى ومعاوية بن أبى سفيان الأموى، وبدأت الأمور تؤول لصالح على. رفع أنصار معاوية ـ بخبث من عمرو بن العاص ـ المصاحف على الرماح، منادين بتحكيم كتاب الله فيما حدث من خلاف. ولما قبل على بن أبى طالب مبدأ التحكيم على مضض، ونزولاً على رغبة بعض جيشه، عارضته جماعة خرجت عليه وعلى الشيعة. والشيعة هم الذين تشيعوا لعلى وأخذوا جانبه. والجماعة التى خرجت على علىّ، هى التى عرفت باسم الخوارج. وهم من أرغم على بن أبى طالب على قبول «التحكيم».

فكان على (رضى الله عنه) إذا دخل المسجد قاموا وتظاهروا قائلين أنه «لا حكم إلا لله». وبعدما رضى على بالتحكيم... تراجع الخوارج وقالوا إنه لم يكن لابن أبى طالب أن يقبل، لأن حكم الله كان لابد أن يظهر فى نهاية المعركة... والمنتصر هو الذى أيده الله. أى أن على (رضى الله عنه) كان عليه الاستمرار فى حرب معاوية حتى يظهر حكم الله.

وبعد المعركة يقول على (رضى الله عنه) كلما واجه قوماً من الخوارج: «قالوا قولة حق يراد بها باطل» يقصد جملة «لا حكم إلا حكم الله». فهى جملة براقة ومطاطة لا يستطيع

أحد أن يرفضها أو يعارضها. ومن يستطيع ـ خاصة فى وجود خلاف سياسى أو اتجاه للعنف ـ مناقشة مثل هذا القول أو أن يفند ما وراءه من مغالطات.

وقد صدق على (رضى الله عنه) فيما قال ، إذ أن جملة مثل «لا حكم إلا لله» لم تستعمل ولا تستعمل إلا كشعار سياسى ، يبعد عن الحق ، ويجنح للتلاعب بالألفاظ .

انقسم الخوارج فرقا عديدة على مدى التاريخ ، وظهر منهم «الأزارقة» و«النجدات» و«الإباضية» و«الصفرية».. لكنهم ظلوا يُعرفون دائماً بالخوارج ، ولفظ الخوارج ـ فى تقدير باقى الفرق الإسلامية ـ يعنى أن هؤلاء خرجوا على إجماع الأمة ، وبالتالى خرجوا عن روح الإسلام.

الخوارج صفة أكثر منها اسما ، لكل من يخرج عن الدين الحقيقى والإسلام الصحيح ، فيتلاعب بالألفاظ والعبارات ، ويستغل الدين فى تحقيق أطماع سياسية ، كما يستغل تعاليم الله ويفسرها على هواه للوصول إلى أهداف معينة.

كان الخوارج ـ منذ البداية ـ خصوماً لعلى بن أبى طالب ، ثم ظلوا كذلك طوال تاريخهم ، فلم يعترفوا له ـ ولا لأى حاكم آخر ـ لا بشرعية ولا فضل.

ومقولة «إن الحكم إلا لله» بالصورة السياسية ، مقولة غير إسلامية ، لا يعرفها القرآن... ولا أقرتها آياته ، وفكرتها تشبه فكرة نشأت فى مصر القديمة ، ثم انتشرت فى المجتمعات المسيحية فى القرون الوسطى[٢١].

ففى مصر القديمة كان الفرعون الحاكم ـ فى اعتقادهم ـ صورة لله على الأرض. وعندما تصدر المحاكم حكماً بالإعدام ، فإنها ترفعه إليه قبل تنفيذه لأنه وحده ، وبصفته اللاهوتية صاحب الحق فى سلب الحياة من أى فرد من رعاياه.

لأن رعايا الفرعون... رعايا الله.

ولما كان الفرعون يُصدق على الحكم ، فإن تنفيذه يعد تنفيذاً لحكم الله.

فى العصور الوسطى ، عصور استبداد ملوك أوروبا وأمرائها ، برر لهم بعض رجال الدين الاستبداد بأفكار تعود كلها بطريقة أو بأخرى للفكرة المصرية القديمة. فقد قالوا إن الحاكم ظل الله على الأرض. وإن حقه فى الحكم مقدس ، لأنه جاء للحكم بواسطة العناية الإلهية ، وأنه يصدر الأحكام والقرارات ـ أيضاً ـ بواسطة العناية الإلهية ، فالذى رتب ولايته وخطط لها ، هو الذى أقر أعماله وأحكامه.

وبعد الخوارج ، تلقف الأمويون والعباسيون «حاكمية الله» ورددها الخلفاء لتصبح جزءا من الدين الإسلامى فتخدم أغراضهم ، ثم تبرر للحاكم مظالمه وتحقق استعباد الناس. وتعطى الحكم لمن يسعى إليه.

وقال معاوية بن أبى سفيان بعدما هزم على بن أبى طالب: «الأرض لله... وأنا خليفة الله ، فما أخذت فلى ، وما تركته للناس فبفضل منى»(٢٢).

وقال أبو جعفر المنصور العباسى: «أيها الناس ، لقد أصبحنا لكم قادة وعنكم ذادة نحكمكم بحق الله الذى أولانا وسلطانه الذى أعطانا. وأنا خليفة الله فى أرضه وحارسه على ماله»(٢٣).

مع أن لفظ «الحكم» لا يعنى فى القرآن الكريم السلطة السياسية ، ولا المعنى الذى يُقصد من اللفظ فى العصر الحالى.

لفظ «الحكم» يعنى فى لغة القرآن الكريم القضاء بين الناس. ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [سورة النساء ٤ : ٥٨]. ويعنى الفصل فى الخلافات ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [سورة الزمر/ ٣٩:٣] ويعنى الرشد والحكمة. ففى سورة يوسف عليه السلام ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾. وجاء على لسان موسى عليه السلام ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [سورة الشعراء/ ٢٦ :٢١].

فى حين عبر القرآن الكريم عن السلطة السياسية بالمعنى الذى يسمى فى عصرنا الحالى الحكومة بلفظ «الأمر». ومن هذ اللفظ جاء «الأمير» وهو الشخص الذى يتولى السلطة والحكم ، لذلك لقّب عمر بن الخطاب نفسه ولُقب الخلفاء الراشدين من بعده بلقب «أمير المؤمنين»... وليس حاكمهم(٢٤).

وفي القرآن الكريم ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [سورة آل عمران/ ٣ : ١٥٩]. ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [سورة الشورى ٤٢ : ٣٨]. و﴿حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [سورة آل عمران/ ٣ : ١٥٢] و ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾ [سورة آل عمران/ ٣ : ١٥٤]. فهم المسلمون الأوائل لفظ «الحكم» ولفظ «الأمر» بهذين المعنيين تماماً ، وبوضوح ، ففى حديث أبى بكر الصديق بعد وفاة النبى ﷺ أنه قال: «إن محمداً مضى لسبيله ، ولابد لهذا الأمر من قائم يقوم به» وعندما قارب أبو بكر نفسه على الوفاة قال :

«وددت لو أننى قذفت هذا الأمر فى عنق أحد الرجلين (يقصد عمر بن الخطاب وأبى عبيدة بن الجراح) فكان أميراً وكنت وزيراً.

وقال أيضاً : «وددت لو أننى سألت رسول الله ﷺ فى الأمر ، فلا ينازع الأمر أهله».

ولما أراد أن يعهد بالخلافة لعمر بن الخطاب قال للصحابة «تشاوروا فى هذا الأمر». وفى خطبة لعمر بن الخطاب قال : «ليعلم من ولى هذا الأمر بعدى ... » وقال: «إن هذا الأمر لا يصلح إلا بالشدة التى لا حدة فيها ، وباللين الذى لا وهن فيه». وقال على بن أبى طالب أنه أعقب موت الرسول: «أن تنازع المؤمنون الأمر من بعده».

أدرك المسلمون الأوائل جيداً أن القرآن حمال أوجه ، وأن تأويله بعكس ما أراد الله خطأ كبيراً. وروى أن عمر بن الخطاب جلس يتساءل : كيف تختلف أمة الإسلام فيما بعد ونبيها واحد وقبلتها واحدة ؟! فقال ابن عباس: «لقد أنزل علينا القرآن فقرأناه ؛ وعلمنا فيما نزل. وأنه سيكون بعدنا قوم يقرأون القرآن ولا يدرون فيم نزل (يقصد أسباب تنزيل كل آية) فيكون لهم فيه رأى ، ثم يختلفون فى الآراء ، ثم يقتتلون فيما اختلفوا فيه».

ومع الصراع على تأويل الآيات كل حسب غرضه ومراده ، وجد أسلوب اقتطاع الآيات القرآنية عن أسباب تنزيلها تشجيعاً فى القاعدة الفقهية المعروفة «العبرة بعموم اللفظ وليس بخصوص السبب» ... وهى جملة ليست غير صحيحة فحسب ، إنما كارثة ، لحقت بالإسلام ، ونشأت عليها أجيال ، فهى - أولاً - من إنشاء فقهاء ، يعنى بشر ، وليست قاعدة شرعية وردت فى كتاب الله، وثانيا هى قاعدة تحتفل باللفظ أكثر مما تحتفل بالمعنى ، وهو ما أنتج نوعاً من التقنين لقطع الآيات عن سياق تنزيلها ، وفصلها عن أسباب النزول ، وعن كل الظروف التاريخية والوقائع والأحداث التى نزلت من أجلها ، بما يسهل استعمالها استعمالاً سياسياً مطلقاً.

النتيجة - مرة أخرى - أن هذه القاعدة الفقهية أوجدت تناقضاً شديداً بين أحكام القرآن، وأدت لنتائج غريبة ، لم يقرها الإسلام ، ولم يقصدها الوحى ، ولم يهدف إليها الكتاب الكريم.

وعلى أساس نفس القاعدة ، يصبح استعمال الآيات ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ ... ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ... و﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ، فى غير ما نزلت من أجله ،

وبتبديل معنى لفظ «حكم» وبتحريف مقصوده ، يجعلها شعاراً سياسياً ، بعيداً كل البُعد عن المدلولات الدينية والقواعد الشرعية(٢٥).

ويصبح ما جاء بالقرآن من آيات مثل ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾ [سورة التحريم/ ٦٦ : ١]. وما جاء فى الكتاب الكريم كذلك فى عتاب النبى ﷺ ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾ [سورة الأحزاب/ ٣٣ : ٣٧]. لو فُسر على مفهوم القاعدة نفسها (العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب) لكان المعنى أن النبى ﷺ كان يحرّم كل ما أحل الله ، وأنه ﷺ كان يخشى كل الناس كل وقت أكثر من خشية الله.

لكن التفسير الصحيح للآيتين ، وعلى ضوء أسباب التنزيل ، إن كلا منهما تتعلق بحادثة بذاتها وأن أسباب النزول ليست مطلقة ، فالآية الأولى نزلت عندما حرم النبى ﷺ على نفسه أكل العسل مراعاة ودرءاً لغيرة زوجاته فى حادثة معينة بذاتها ، فيما نزلت الآية الثانية عندما أخفى النبى قرار زواجه من زينب بنت جحش وخاف أن يطلع أحدا عليه.

❑

عندما مات النبى ﷺ أراد الأنصار (أهل يثرب) أن يخلفه شخص منهم ، بينما رأى المهاجرون (أهل مكة) أنهم أحق بخلافته ﷺ وإكمال المسيرة ، كان المسلمون جميعاً فى انتظار «خليفة» ، وهى ثانى مشكلة كبرى وقع فيها الفكر الإسلامى(٢٦).

ففى معاجم اللغة أن الخليفة هو الذى يستخلف من قبله ... وإن الذى يَسْتَخلف (بتسكين التاء) هو من يجعل له خليفة. والخلف هو التابع لمن مضى ، لكن الخليفة هو البدل عن غيره ، فخلف رسول الله ﷺ هو من جاء بعده وليس مثله ، لكن خليفته هو من جاء بعده ، وهو مثله ، لذلك لما سأل أحد الأشخاص أبابكر الصديق: « أنت خليفة رسول الله؟!» قال أبوبكر: «لا». فقال الأعرابى: «فمن أنت إذاً ؟!» قال أبوبكر: «أنا الخالفة بعده». يعنى أن أبا بكر خلفه وليس خليفته. ويعنى أيضاً أن أبا بكر قد جاء بعد النبى ﷺ فى الزمن ، أو تبعه فى الوقت ؛ لكنه ليس خليفته وليس بدلاً عنه ، إذ أن أبا بكر ليس مثله مثل النبى ، ولا تترتب له - ولا لغيره - نفس الالتزامات التى كانت للناس على النبى.

فى المعاجم أيضاً أن لفظ «الخليفة» يعنى السلطان الأعظم أو الأمير ، وهو المعنى الذى دخل خطأ على مر التاريخ فى الفكر الإسلامى ، وأدى إلى أن يقع فى الأذهان أن الخلافة

لها المعنى الشرعى فى رياسة المسلمين ، وأن لـها معنى آخر لغويا هو الأمير ، والخطأ الخلط بين المعنى الشرعى من جانب ، وبين المعنـى التاريخى أو «الدارج» من جانب آخر ، فالمعنى الشرعى للفـظ هو ما يعنيه هذا اللفظ فـى كتاب الله ، وهو ما يفهم بمدلوله المـعمول به فترة نزول الوحى على النـبى ﷺ. أما ما تلى هذه الفترة ـ أى بعد مـوت النبى ﷺ ـ من قول أو رأى أو تغيير لمـعنى اللفظ ، فهو أمر تاريـخى ، أو فقهى ، وهو من عمل الـناس. ليس من عند الله.

واستعمال لفظ «خلـيفة» على معنى خلافة النبى ﷺ فى حـقوقه أمر لا يصح أبداً. لأنه لا خليفـة للنبى لا فى الحـقوق ولا فى الالتزامات ، وكل مـا يجرى من تسمـيات لا تكون تعـبيـراً شرعيـاً علـى أى حال. وهى ـ مـرة أخرى ـ صـناعة بـشرية ، وكلام بشـر ليـسوا معصومين ، فلا قداسة لبشر مهما كانوا.

بعد وفاة النبى ﷺ. أضفت السياسة على لـفظى «الخليفة» و«الخلف» معانى خاصة ظن معها البـعض أنه معنى شرعى ، ومن ثـم اعتبروا الخلافة جزءاً من الديـن ، ووصل البعض إلى أن الخلفاء هـم صحيح بشر ، لكنهـم بشر «معصومون» ومنـزهون عن الخطأ ، دون أن ينتـهوا إلى أن وفاة الـنبى ﷺ قطعـت نزول الوحى ، وأدخـلت البشريـة والجزيرة العـربية مناطق النظام التاريخى ، والحكم الدنيوى.

وما حدث من مآس وأخـطاء تنسب لأصحابهـا ولا تنسب للدين ، لذلـك «فالخلافة» جزء من «التاريخ» الإسلامى ، وليست «فـرضاً دينياً». ولا هى ركن من أركان الدين ، ولا حكم من أحكام الشريعة الإسلامية.

وقال عمر بن الخطاب بعد وفاة النبى ﷺ أن: «بيعة أبى بكر كانت «فلتة»... غير أن الله وقى شرها ، فمن بايع رجلاً عن غير مشورة المسلمين فإنه لا بيعة له».

يعنى لا أوصـى النبى ﷺ لأبى بكر ، ولا أشار لـلمسلمين إشارة واضـحة بضرورة أن يأخذ أبوبكر «الخلافة». ويعنى أيضاً أن ظروف ولاية أبى بكر (رضى الله عنه) كانت قاسية كادت أن تقوم معها معركة لولا أن «وقى الله شرها».

فلـما مات النـبى ﷺ اجتـمع الأنصار (أهـل المدينـة من الأوس والخزرج) فى دار بـنى ساعدة ليختاروا خليـفة ويتدارسوا فى الوقت نفسه ما يمكن أن يفعـله المكيون (المهاجرون) لو اخـتار أهل المـدينـة خليـفة منـهم ، ومـا يمكن أن يـعالج الأنـصار بـه الأمر لو غـضب

المهاجرون ، وفى الاجتماع كان هناك من يتحمس لأبى بكر حماساً شديداً ، رجلان ممن حاربوا في غزوة بدر ، وكانوا فى حماية رسول الله ﷺ. وهما عويم بن ساعدة ومعن ابن عدى.

ولما اختار الأنصار «سعد بن عبادة» الخزرجى خليفة للنبى ﷺ ، وقف «عويم بن ساعدة» وقال بصوت جهورى إذا كان اختيار سعد بن عبادة هو الأصوب ... ليقدم سعد براهينه على صلاحه ، أما إذا كان المهاجرون هم الأحق ... فعلى الأنصار أن تسلمهم الخلافة. وقال: «والله ما هلك رسول الله حتى عرفنا أبا بكر خليفة».

فقام أتباع سعد بن عبادة وضربوا «عويم» ثم أخرجوه خارج الدار ، لينطلق «عويم» إلى أبى بكر ويخبره بما حدث ، وبعد ما خرج عويم .. قام قيس بن سعد بن عبادة يلقى خطبة نيابة عن والده المريض قال فيها إن للأنصار الفضل الأول على الإسلام ، وإذا كان المهاجرون من المكيين يتفاخرون بأنهم أول من دخل الإسلام ، فإن للأنصار أن يتفاخروا بأنهم أول من أعز الإسلام.

وقال «فشدوا أيديكم بهذا الأمر ، فإنكم أحق الناس وأولاهم به».

وطلب البيعة لأبيه سعد بن عبادة. فوافق الأنصار.. وبايعوا سعدا. ويقول ابن قتيبة: «أجابوه جميعاً وقالوا إن قد وفقت في الرأى وأصبت فى القول ولن نجد إلا أن نوليك هذا الأمر ، فإنك مقنع ولصالح المؤمنين رضى».

ثم ظهر بين الحاضرين تياران ، تيار يرى طرد المهاجرين من المدينة بمن فيهم الصحابة. والآخر يرى إقتسام الخلافة أو تبادلها بين الأنصار والمهاجرين ، فإن مات ابن عبادة يتولى من المهاجرين رجل ، وإن مات يتولى من الأنصار آخر.

إلا أن سعد بن عبادة قال لما سمع أمر «التبادل»: «هذا أول الوهن».. والوهن يعنى الضعف ، فقد رأى سعد أن التبادل يعد تراجعاً فى موقف الأنصار ، ورأى أن يعودوا لرأيهم الأول.

ودخل أبو بكر وعمر بن الخطاب وعبيدة بن الجراح الدار فجأة. ورأوا فى عيون الأنصار ما عرفوا منه كل شيء ، فبدأ أبو بكر (رضى الله عنه) بالكلام ، وتحدث عن امتياز المهاجرين بأنهم أول الناس إسلاما ، وأنهم عشرة رسول الله (ﷺ) فى أيامه الصعبة ، وأشار إلى ضرورة سياسية تجعل من وضع الخلافة والإمارة فى قريش عامل توحيد للعرب أكثر مما لو وضعت الإمارة فى غير قريش[٢٧].

قال أبو بكر: «أما بعد يا معشر الأنصار.. فأنتم لا تذكرون منكم فضلا إلا وأنتم له أهل ، وإن العرب لا تعرف هذا الأمر إلا لهذا الحى من قريش (هذا البيت من قريش) ، هم أواسط العرب داراً (أى من مكة) ونسباً..».

فقام رجل من الأنصار الذين بدأوا يقتنعون بكلام أبى بكر وقال: «منا أمير ومنكم أمير يا معشر قريش».

فارتفعت الأصوات وهمهم الكل فقال أبو بكر: «منا أهل قريش الأمراء ومنكم الوزراء».

فقام الخباب بن المنذر بن زيد بن حرام وأعلن اقتراحه طرد المهاجرين من المدينة حتى تكون الخلافة فى الأنصار.. فقال عمر بن الخطاب : «إنه والله لا ترضى العرب أن تؤمركم (تؤمر بكم) ونبيها من غيركم. لكن العرب لا ينبغى أن تولى هذا الأمر إلا من كانت النبوة فيهم وأولو الأمر منهم. من ينازعنا سلطان محمد وميراثه ونحن أولياؤه وعشيرته إلا مُدل بباطل أو متجانف لإثم أو متورط فى هلكة».

ووقف عمر بن الخطاب وقال لأبى بكر: «أبسط يدك أبايعك.. لقد ارتضاك النبى لديننا ، أفلا نرضاك لدنيانا». فبسط أبو بكر يده .. فبايعه عمر.. وبايعه بشير بن سعد وقومه. وبايع أسيد بن خضير وقومه. وتوالت البيعة من كل من كان بدار بنى ساعدة إلا سعد بن عبادة.. الذى ظل على موقفه ، وتحول فيما بعد عن الإسلام ، فترك الصلاة ، ورفض دخول مكان به مسلمون. وكان يحج ولا يفيض مع المسلمين بإفاضتهم .. وظل يحلم بالخلافة حتى قُتل بالشام عهد عمر بن الخطاب.

وقال عمر بن الخطاب (رضى الله عنه)أنه بعد ما بايع الكل لأبى بكر «وثبنا على سعد ابن عبادة حتى قال قائلهم.. قتلتم سعداً .. وإنا والله ما وجدنا أمراً هو أقوى (أصعب) من مبايعة أبى بكر».

وقال: «خشينا إن فارقنا القوم (غادرنا دار بنى ساعدة) ولم تكن بيعة أن يحدثوا بعدنا بيعة (يولوا واحدا منهم) فإما نتابعهم على ما لا نرضى ، أو نخالفهم فيكون فساد»(٢٨).

شاع خبر ولاية أبى بكر للمدينة ، فرفض بنو أمية وطلبوا الخلافة لعثمان بن عفان (الأموى) وطلبت «بنو زهرة» أن تكون الخلافة لعبدالرحمن بن عوف ، واجتمع رأى بنى هاشم إلى خلافة على ، إلا أن عمر بن الخطاب وأبا عبيدة بن الجراح استطاعا أن يطوفا

على هذه البيوت ويقنعاهم بخلافة أبى بكر.. فبايعوا كلهم .. فيما تأخرت بيعة على بن أبى طالب وبعض بنى أمية اعتراضا على أن تتولى قبيلة «تيم» ممثلة فى أبى بكر الخلافة. وغضبوا على قبيلة «عدى» ممثلة فى عمر بن الخطاب على نصرتها لأبى بكر.

ويعد هذا الموقف الأول من نوعه فى تاريخ الإسلام ، وربما هو أول طرح فعلى وعملى للتساؤل عن علاقة الدنيا بالدين ، والعلاقة بين الخلافة كمنصب سياسى وبين القرابة النسبية والعرقية برسول الله (ﷺ) ،

والثابت امتناع على بن أبى طالب (رضى الله عنه) عن بيعة أبى بكر لأنه رأى أنه الأحق بأن يتولى أمور المسلمين ، وهو لم يصل إلى هذا الرأى لأنه الأكثر علماً أو بلاء ، إنما لأنه الأقرب لرسول الله ، فهو ابن عمه ، وأنه ممثل بنى هاشم فى أول من هاجر من المسلمين ، إضافة لأنه زوج بنت رسول الله ، ووالد النسل الباقى منه (ﷺ). وقد اتضح هذا فى جلسة جلسها على مع أبى بكر وعمر بن الخطاب وأبى عبيدة بن الجراح ، غضب منه فيها عمر وقال له: «لست متروكا حتى تبايع..» وقال له أبو بكر بلين: «إن لم تبايع فلا أكرهك..» وكلمه أبو عبيدة بالمنطق فقال: «يا ابن عم ، إنك حديث السن وهؤلاء مشيخة قومك ليس لك مثل تجربتهم ومعرفتهم بالأمور.. فإنك إن تعش ويطل بقاءك فأنت لهذا الأمر خليق وحقيق فى فضلك ودينك وعلمك وفهمك وسابقتك ونسبك وصهرك».

أبو عبيدة كان يعنى أن على علىٍ أن ينتظر ، وسوف يرد له الزمان الخلافة بعد المشايخ من المهاجرين وأولهم أبو بكر الذى هو أحق الآن بها ، إلا أن علياً صاح قائلا: «الله الله يا معشر المهاجرين ، لا تخرجوا سلطان محمد فى العرب من داره وقعر بيته إلى دوركم وقعور بيوتكم ، وتدفعون أهله عن مقامه فى الناس ، فوالله يا معشر المهاجرين لنحن أحق الناس به ، لأنا أهل البيت ، ونحن أحق بهذا الأمر منكم ما كان فينا القارئ لكتاب الله ، الفقيه فى دين الله العالم بسنن رسول الله ، المتطلع لأمر الرعية ، الدافع عنهم الأمور السيئة ، القاسم بينهم بالسوية ، والله إنه لفينا ، فلا تتبعوا أهل الهوى فتضلوا عن سبيل الله فتزدادوا عن الحق بعدا».

واستمر على (رضى الله عنه) لا يرضى عن خلافة أبى بكر لأنه ـ أى على ـ أهل بيت رسول الله وزوج ابنته فاطمة ، فكان يخرج بها رضى الله عنها راكبة جملاً يطوف به على مجالس الأنصار وأحيائهم ، يسألهم أن يبايعوه للخلافة ، فكان الناس تتوجه للسيدة فاطمة (رضى الله عنها) وتقول: «يا بنت رسول الله قد مضت بيعتنا لأبى بكر».

ولما حدثت الفتنة ، وأخذ معاوية بن أبى سفيان البيعة فى الشام ، بدعوى أنه صاحب رسول الله (ﷺ) تعجب على بن أبى طالب وقال: «واعجباه أتكون الخلافة بالصحابة ولا تكون بالصحابة والقرابة؟!».

وعلى أساس نفس المنطق ظل على معارضا لخلافة أبى بكر وكان وجود السيدة فاطمة (رضى الله عنها) زوجته على قيد الحياة سلاحه الأول فى طلب الخلافة لنفسه ، ولما ماتت (رضى الله عنها) انهارت مقاومة على .. وبايع أبا بكر[٢٩]. فقد ابتعد عنه (رضى الله عنه) من كان يؤيد خلافته فى حياة فاطمة [٣٠].

وفيما بايع على بن أبى طالب ، ظل سعد بن عبادة على خلافه مع أبى بكر ، وعلى خلاف مع عمر بن الخطاب بعد أبى بكر.. ورفض أن يبايع لا لأبى بكر ولا لعمر. ولم يقتنع بخلافة هذا ولا ذاك ، وحدث وتقابل سعد راكبا حصانا مع عمر بن الخطاب راكبا «بغلة». فقال له عمر «هيهات يا سعد». فقال سعد: «هيهات عمر والله ما جاورنى أحد أبغض إلى من جوارك». فقال عمر: «فإنه من كره جوار رجل انتقل إلى جواره من هو أحب إلى جواره منك ومن صحبك». يقصد عمر (رضى الله عنه) قربه وملازمته لرسول الله (ﷺ).

حوادث خلافة أبى بكر (رضى الله عنه) ، تدلل على أن النبى (ﷺ) لم يوص بخلافة أحد من المسلمين أثناء مرضه الأخير.. ولا حتى قبل ذلك المرض ، وهو (ﷺ) لم يحدد أو يوص أو يشر لا صراحة ولا بطريقة غير مباشرة للخليفة من بعده.

ومن حضر احتضاره (ﷺ) من الصحابة (ومنهم على بن أبى طالب) لم يسألوه عن ذلك الأمر ، لأنهم كانوا متأكدين أن حُكم المسلمين بعد النبى أمر دنيا وليس أمر دين ، فيما كان استخلاف أبى بكر لعمر بن الخطاب فعلا من رجل لرجل ، ليس فيهما معصوم ، وما جرى عليه العرف بعد ذلك من تحديد الخليفة مقدما هو أيضا تصرف رجل لرجل ، أو رجال لرجال ، لا نص عليه فى كتاب الله ولا فى سنة رسوله . وفى الجدل الذى حدث فى «سقيفة بنى ساعدة» بين المهاجرين والأنصار ، لم يلجأ أحد لآيات القرآن ، ولا إلى أحاديث نبوية بشأن خلافة النبى (ﷺ) بعد موته ، فالكل كان يعرف أنه أمر من أمور الدنيا ، لا شأن له بالدين ، والاقتراح المقدم من أحد الأنصار بأن من قريش أميرا ومن الأنصار أميرا ، ثم اقتراح أبى بكر أن يكون القريشيون هم الأمراء ، واليثربيون هم الوزراء يؤكد ذلك.

فخلال ذلك الصراع الحاد ، لم يحتج أحد من المهاجرين ولا أحد من الأنصار بحديث «الأئمة من قريش» المنسوب للنبى (ﷺ). فلم يكن ذلك الحديث قد ظهر بعد ، ولم يكن قد اخترعه المخترعون ، ولم يكن قد صار أحد أسس الفكر الإسلامى ، وعمودا أساسيا من أعمدة فقه الخلافة فيما بعد . مع أن تلك الفترة الحرجة وذلك الصراع الرهيب كانا المناسبة الهامة وربما الوحيدة التى ينبغى أن يوضع فيها هذا الحديث ـ لو كان صحيحاً ـ أمام الناس ، ذكره كان كفيلاً لحسم الخلاف من أصله ، وإنهائه قبل بدايته واستفحاله.

ولم يكن ليجعل من خلافة أبى بكر (رضى الله عنه) «فلتة» كما قال عمر بن الخطاب. «والفلتة» أمر يحدث أو حدث دون تعمد مسبق أو ترتيب وليس سهلاً أن يتكرر مرة أخرى.

لما ولى أبو بكر الصديق (رضى الله عنه) ، رفضت قبائل (أسد وغطفان وطيء) أن تدفع الصدقة لأبى بكر. قالوا إن النبى (ﷺ) قد مات ، وأن آية الصدقة الكريمة فى هذا الخصوص كانت تخاطبه (ﷺ) وحده. ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة/ ١٠٣].

فسروا الآية بصريح لفظها وبكامل معناها وفقاً لظروف تنزيلها. فهى ـ أى الآية ـ حكم خاص بالنبى (ﷺ) وحده ، لا يستمر بوفاته. فهم ـ وفق تفسيرهم ـ كانوا يدفعون الصدقة للنبى طاعة لنص قرآنى ، يفرض عليهم واجبا دينيا مقابل صلاة النبى (ﷺ) عليهم وتزكيته لهم ، وبوفاة النبى (ﷺ) لم تعد هناك أى صلاة عليهم ولا تزكية ، وأبو بكر ليس نبياً حتى يصلى عليهم أو يزكيهم ، وبذلك يكون الالتزام قد سقط .. وبقى عليهم فقط كمسلمين إخراج الزكاة للفقراء والمعوزين تحقيقاً لفرض الله على كل المسلمين سواء فى حياة النبى أو بعد وفاته . ولما قرر أبو بكر حرب هؤلاء حتى يدفعوا له الصدقة التى كانوا يدفعونها للنبى ، عارضه عمر بن الخطاب قائلا: «أتقاتل رجالاً يقولون لا إله إلا الله» فقال أبو بكر (رضى الله عنه) إنه يجاهد من يمنعه «عقالاً» مما كان يؤديه للنبى.

لذلك خلط المسلمون بين أن «حروب الصدقة» اجتهاد من «أبى بكر» يحتمل الخطأ والصواب ، وبين أنها أمر شرعى إسلامى لا يستقيم الدين إلا به ، وهو الخلط الذى غير الإسلام وبدّل نظماً كثيرة فيه ، واستحدث نظماً أكثر. فقد كان هذا الفهم الخاطىء لاجتهاد أبى بكر الشخصى ، وحسبانه أمراً من الله منقلباً سيئاً. أرسى مبدأ أن كلام الخليفة لا يجب أن يجد معارضة ، وأن للخليفة «تقريباً» نفس الحقوق التى كانت للنبى (ﷺ) ، إضافة لعدم

الأخذ بظروف تنزيل القرآن ولا بالأحكام الخاصة بالنبى (ﷺ) وحده ، وربما مهدت ـ حروب الصدقة ـ للخلفاء فيما بعد أن يستقلوا بتفسيراتهم الخاصة لآيات الكتاب ثم يطرحوا تفسيراتهم بالقوة والعنف على المسلمين وغير المسلمين ، وأن يجعل الحاكم (كما شهدت الخلافة الأموية والخلافة العباسية) من رأيه الشخصى حكما دينياً وأمراً شرعياً ، وكما كانت حروب الصدقة فى عهد أبى بكر إشهاراً لسيوف المسلمين على المسلمين ، ووضعت أول سابقة بهذا الشأن فى التاريخ الإسلامى فقد أدت ـ أيضاً ـ لتحول الفكرة لإشهار السيوف على غير المسلمين لنشر الدين.

فحروب الصدقة موجهة من مسلمين موحدين ، لمسلمين مُصلّين.. وإذا كان ذلك جائزاً بأمر الخليفة ، فإنه بالتالى يجوز رفع سيوف المسلمين فى وجه غير المسلمين فى أى مكان فى العالم لنشر الدين ، وبالتالى تتعصب كل فرقة لرأيها ، وتتحيز كل جماعة لتفسيرها لكتاب الله ، ثم تفرض التفسير أو الرأى على الغير بالقوة والعنف.. والحرب والسبايا من النساء ، وكان ما سمى فى الإسلام بفكر الفتوحات الإسلامية.

وشهر عن النبى (ﷺ) أحاديث غير حقيقية بخصوصها مثل «جعل رزقى تحت سن رمحى» ومثل: «بعثت بالسيف والخير مع السيف والخير فى السيف والخير بالسيف» ومثل: «لا تزال أمتى بخير ما دامت تحمل السيف».

انتشار مثل هذه الأفكار فى العقل الإسلامى صبغ الإسلام بميل للغزو ورغبة فى القتال لا تقف عند حدود استقرار الإسلام أو صيانته والحفاظ على أرواح المؤمنين والمسلمين ، إنما تعدت إلى ما هو أكثر من ذلك ، ومع أن بعض المسلمين الأتقياء كانوا يتصورون خطأ فى أن الغزو نشر للإسلام وتثبيت له وصيانة لحدوده وجهاد فى سبيل الله ، فلا شك أن آخرين ممن لم يتشربوا روح الإسلام أو ممن مالت نفوسهم إلى الدنيا نظروا لتلك الغزوات على أنها سبيل للغنى واتجاه للسيادة.

ولما فتح المسلمون فارس ـ على سبيل المثال ـ حدث الصراع هناك بين القومية الفارسية ذات الحضارة القديمة العريقة ، التى تعرف جيداً الفرق بين علومها وثقافتها وفنونها ، وبين العرب البدو التجار المحدودى الثقافة.

وأدى صراع الإرادتين .. فارسية وعربية لخروج فرق إيرانية مسلمة إسلام جديد.

ومن الإسلام الجديد خرج من ادعى أنهم أنبياء.

لما تولى عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) الخلافة غضب طلحة بن عبيدالله.

طلحة تيمى (من قبيلة تيم) كأبى بكر ؛ لذلك كان يتطلع لأن يتولى بعد وفاة أبى بكر أمور المسلمين ، وقد جادل طلحة أبا بكر أثناء مرضه الأخير ، ولما قال أبو بكر أنه يود أن يعهد لعمر بن الخطاب بإمارة المسلمين قال طلحة: «وماذا تقول لربك إذا لقيته وقد وليت علينا فظا غليظاً»(٣١).

وبلغ عمر بن الخطاب أن هناك من يحرض طلحة من أتباعه على الخلافة وكان فى منى يؤدى فريضة الحج فقال: «إنى لقائم العشية فى الناس فمحذرهم هؤلاء الرهط الذين يريدون أن يغصبوا الناس أمرهم». وعاد عمر بن الخطاب للمدينة وصعد المنبر وخطب فى الناس يحذرهم من طلحة.

ومنع بن الخطاب أى صحابى من الخروج من المدينة حتى لو كان سبب خروجهم الغزو فى سبيل الله ، حتى إن من كان يستأذنه فى الخروج للحرب يمنعه عمر ويقول: «إن لك فى غزوك مع رسول الله ما يكفيك».

ولما مات ابن الخطاب.. تأثر المسلمون بخروج الصحابة من المدينة أشد التأثر. وهو ما أدى للثورة على عثمان بن عفان بداية ولايته.

وهى الولاية التى أحاطها ـ كما يقول المؤرخون ـ الفساد الإدارى ، فبينما ترك عثمان (رضى الله عنه) أمر عدم خروج الصحابة من المدينة ، أعاد إليها الحكم بن العاص بعد ما كان النبى (ﷺ) قد طرده منها ، ورفض أبو بكر ومن بعده عمر دخوله إليها فى حياتيهما.

الحكم بن العاص عُرف باسم طريد رسول الله (ﷺ). وظل طريدا طوال ولاية أبى بكر وعمر لأنه اخترع أحاديث كاذبة عن النبى. وكان «الحكم» يستهزئ به (ﷺ) وبأهل بيته من الهاشميين لصالح بنى أمية.

ومثلما أعاد عثمان (رضى الله عنه) الحكم بن العاص ، اتخذ اقرباءه مسئولين وولاة على مختلف الدول الإسلامية المفتوحة ، دون النظر لسمعتهم ولا لكفاءتهم.. ورغم شهرة بعضهم بالفسق والفجور ، فولى عثمان الوليد بن عقبة ابن أبى معيط على الكوفة ، وكان الوليد عدواً للنبى (ﷺ) فى حياته .. ولما سألوا النبى عنه : «من له يا رسول الله؟!» قال: «النار».

وفى الكوفة صلى الوليد بن عقبة بن أبى معيط بالناس وهو مخمور ، فزاد فى عدد

الركعات والسجدات ، وكـانت صلاة المغرب ، فلما نبهه النـاس فى الصفوف الأولى قال: «هلا زدتكم؟!».. يعنى لو تكلمتم فسوف أزيد ركعات أخرى.

ومثلـما كان الولـيد بن عقبـة ، كان «عبدالله بـن أبى السرح» أخو عـثمان بن عـفان فى الرضاعة الذى ولى ولاية مصر.

وفتح عـثمان بن عفـان خزائن بيت المال لـبنى أمية ؛ ولـما زوج ابنته لمروان بـن الحكم ، أهداه خمس غنائم إفريقية (نادرة النوع) تـبلغ مائتى ألف دينار ، ثم ترك إدارة الحكم لمروان بن الحكم ، مع أنه ـ مروان ـ كان فاسداً سكيراً مشهورا بسوء التصرف وسوء المشورة.

وقد آذى عثمـان بن عفان أصحاب الـنبى (ﷺ) أو الذيـن بقـوا منهم على قـيد الحياة ، وكان ضمـن من آذاهم عبـدالله بن مسعـود ، الذى غضبت قـبيلتـه كلها عـلى عثمـان لهذا السبب . ومنع أبو ذر الغفارى من البقاء فى المدينة ، ومنعه من الذهاب لمكة.. وأرغمه على البقاء فى مكان على حدود المدينة اسمه «الربذة».

ورغم هذا أحدث قتـل عثمان بن عفان شرخاً كبـيراً ، ليس لمجرد قتله ، ولكن لـلنتائج التى تـرتبت علـى مصرعه ، سواء مـن مطالبـة معاوية بـن أبى سفيان بـالثأر ممن قـتله ، أو بالتفاف أهل المدينة حول على مطالبينه بحرب معاوية.

❑

وقد جاء فى بطون بعض كتب التاريخ عدة وقـائع تشير إلى ما وصلت إليه أمور الحكم بعد وفاة الـنبى (ﷺ) ، فقد ولى عـلى بن أبى طالـب (رضـى الله عنه) ابن عباس الـبصرة ، وابن عـباس ابن عـم النبـى (ﷺ). والمعروف بـحبر الأمـة الإسلاميـة .. وهـو أشـهر رواة الحديث ، لذلك فوجىء على عندما بعث له أبو الأسود الدؤلى (صاحب بيت مال البصرة) برسالـة يخبره فيهـا أن ابن عمه ـ ابن عبـاس ـ اغتصب مالاً مـن بيت المال بغيـر حق ، ولما أرسل على (رضى الله عنه) لابن عباس يسأله الحقـيقة ، بعث ابن عباس لعلى يقول: «والله لآن ألقى الله بما فى بطن هذه الأرض وما على ظهـرها لأحب إلى من أن ألقاه وقد سفكت دماء الأمة لأنال بذلك الملك والإمارة. فابعث إلى الولاية بمن تحب».

واستقال ابن عباس ، وأخـذ معه المال الذى حكى عنه أبو الأسود الدؤلـى ، فيما كانت رسالته لعلىّ إشارة إلى دماء المسلمين المسـفوكة بخلاف على مع معاوية ، وهو الأمر الذى أدى لفتنة أكبر عنده من أخذ بعض الأموال دون وجه حق.

فى رأى ابن عباس أن سبب الحرب بين معاوية وعلى هو الرغبة فى الملك والإمارة ، ولأن هذه الحرب راح فيها مسلمون كثيرون من الجانبين.. فإن السرقة أهون(٣٢).

لذلك ترك ابن عباس الولاية ، واحتمى بأخوال له فى البصرة (ومعه ما يقدر بحوالى ستة ملايين درهم) فبعث له على بن أبى طالب يطلب منه ـ مرة أخرى ـ رد المال. فأجاب ابن عباس مؤكداً أن حقه فى بيت المال أكثر مما أخذ ، وأنه سوف يرسل بالمبلغ لمعاوية كى يحارب على فينتصر عليه(٣٢).

وبعد فترة اعترض على خلافة على بن أبى طالب كل من السيدة عائشة مع طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام. قالت السيدة عائشة إنها تطلب دم عثمان والثأر له ، وهى متأكدة من أن قتلة عثمان هم من جيش على ضد معاوية. ولما قالوا للسيدة عائشة أنها أول من كفّرت عثمان فقالت: «قُتل مظلوماً.. والله لأطلبن دمه. فقبل أن يقتلوه استتابوه فتاب فقتلوه بعد ما تاب».

أما الزبير وطلحة فقالوا إنهما بايعا عليا تحت التهديد وتحت سيوف الذين قتلوا عثمان ، وأن بيعتهم لعلى كانت غصباً عنهما ، ولا بيعة لمن خضع للتهديد ، وخرج الثلاثة لمحاربة على فيما سُمى معركة الجمل.

فلما بويع على بن أبى طالب خليفة بالمدينة بعد مقتل عثمان بن عفان. رفض الأمويون مبايعته ، وأخذ رجل منهم قميص عثمان الملطخ بالدماء للشام ، فأخذه معاوية بن أبى سفيان وعلقه مع أصابع زوجة عثمان التى قطعوها. فازداد الأمويون غيظا وحقداً وطلباً للثأر ، ولما أنزل معاوية القميص والأصابع بعد أيام ، هدأ الأمويون ، إلا أن عمرو بن العاص أشار على معاوية ألا يفعل هذا وأن يبقى القميص والأصابع معلقين ليراهم الناس.

وبعد ما رفض معاوية الإقرار بخلافة على بن أبى طالب إلا بعد أن يسلّم قتلة عثمان ، حاول على عزل معاوية بن أبى سفيان ، وأرسل من عنده رجلاً جديداً والياً على الشام ، فلما دخل الوالى الجديد أرض الشام .. استوقفه فرسان معاوية وسألوه.

ـ من أنت؟!

ـ أمير.

ـ على أى شىء؟!

ـ على الشام.

ـ إن كان قد بعثك عثمان بن عفان فأهلا بك.. وإن كان قد بعثك آخر فارجع من حيث أتيت.

فعاد الرجل وحكى ما حدث ، وأيقن على بن أبى طالب أنه لا مفر من القتال ، ولما فرغ من حربه مع عائشة وطلحة والزبير (رضى الله عنهم جميعا) ، تحول للتفكير الكامل فيما يفعله مع معاوية ، والرجل الذى يشير على معاوية ماذا يفعل وماذا يقول وكيف يكيد كان عمرو بن العاص ؛ الداهية.. الذى قال عنه على (رضى الله عنه) «يسعى لدنياه ولا يسعى لآخرته»(٣٣).

استقر على بجيشه قرب نهر الفرات بمكان استراتيجى واسع قرب الماء ، إلا أنه وجد أن جيش معاوية وبإيعاز من عمرو بن العاص قطع الطريق للماء ، وكاد رجال على أن يموتوا عطشاً ، فلم يجد إلا القتال ، على الأقل للاستيلاء على الماء.

وبدأ القتال ، ولما دخل شهر المحرم ، اتفق على ومعاوية أن يتركا القتال حتى ينتهى الشهر الحرام ، فربما يتصالحون وكفى الله المؤمنين القتال ، وانتهى الشهر فوجد على أن معاوية وعمرو بن العاص يعبئان جنودهما للقتال ، فأوصى على جنوده ألا يقاتلوا إلا إذا بدأ الآخرون ، وبدا فى المعركة أن جيش على بقيادة «الأشتر النخعى» أوشك على النصر. وأن الهزيمة تظهر فى معسكر معاوية شيئا فشيئاً.

فأشار عمرو بن العاص على معاوية أنه لابد من خدعة ، وكان على قد قال فى عمرو أنه : «يقول فيكذب ويعد فيخلف ويسأل فيبخل.. ويخون العهد ويقطع الرحم»(٣٤).

وأشار عمرو على معاوية وقال: «إن رجالك لا يقومون رجاله ، ولست مثله .. هو يقاتلك على أمر وأنت تقاتله على غيره. أنت تريد البقاء. وهو يريد الموت وأهل العراق يخافون منك لو ظفرت بهم (لو حكمتهم).. وأهل الشام لا يخافون منه إن ظفر بهم.. فالق إلى القوم أمراً إن ردوه اختلفوا (لو رفضوه اختلفوا) وإن أخذوه اختلفوا(٣٥).

ولما طلع الصباح وجد على أن فرسان معاوية قد رفعوا المصاحف على السيوف ، ووجد أمام جيشه مائة مصحف مرفوع ، وعن يمينه مائتى مصحف ، وعن شماله مائتى مصحف أخرى ، ووجد من ينادى من جيش معاوية ويقول: «يا معشر العرب.. الله الله.. الله فى النساء والبنات والأبناء.. الله الله فى دينكم .. هذا كتاب الله بيننا وبينكم».

فكان ما توقعه عمرو بن العاص ، انتشرت الفوضى فى جيش على ، ودب الخلاف بين

أفراده بعد ما سحرهم كلام المنادى من جيش معاوية. فقام على ونادى ربه قائلا: «اللهم إنك تعلم أنهم لا يريدون الكتاب ، فاحكم بيننا وبينهم.. إنك أنت الحكم الحق المبين».

تشعب الخلاف في جيش على. فنادى بعضه بالقتال .. ومنهم من نادى بالاحتكام للقرآن وقالوا لا يحل لنا الحرب وقد دُعينا لكتاب الله. وعلم على أن جنده قد خدعوا، وأن معاوية وعمرو بن العاص قد نجحوا فقرر الحرب ، إلا أنه فوجيء بمجموعة من فرسان جيشه مقنعين فى الحديد .. وفى ملابس حربهم كاملة خرجوا من بين الصفوف واتجهوا صوب خيمته منادينه باسمه لا بأمير المؤمنين قائلين: «يا على.. أجب القوم إلى كتاب الله وإلا قتلناك كما قتلنا ابن عفان».

فقال إنه أول من دعى لكتاب الله. وأنه يحارب هؤلاء القوم لأنهم أرادوا أن ينقضوا حكم الله ، ثم قال أنه مؤمن .. وإن إيمانه لا يسمح له أن يُدعى لكتاب الله فلا يجيب ، إلا أن هؤلاء القوم أرادوا الخديعة.

وقتها كان «الأشتر النخعى» قائد جيش على قد قارب على إنهاء المعركة لصالحه. وأوشك على النصر. فأمر الفريق المقنع فى الحديد على (رضى الله عنه) أن ينادى الأشتر ويمنعه من القتال. وأمام إلحاحهم وتهديدهم لم يجد على إلا أن يبعث برسول للأشتر يناديه ، لكن الأشتر رفض وقال إنه لا ينبغى لأحد أن يناديه الآن. فالنصر قريب. وقال لرسول على: «قل له إنى قد رجوت الفتح فلا تُعجلنى».

ولم يكد الرسول يبلغ علياً ما قاله الأشتر ، حتى اجتمع المعارضون بعلى وهددوه مرة أخرى قائلين أنه ـ أى على ـ هو الذى أوعز إلى الأشتر بالرفض. وأرغموه على أن يبعث إليه مرة أخرى ، ففعل على.. ليستجيب الأشتر على مضض. ولم يكد يبلغ مكان على حتى ظهر له الفرسان المعارضون فصاح فيهم: «يا أهل الذل والوهن.. أحين علوتم القوم.. وظنوا أنكم لهم قاهرون.. رفعوا المصاحف يدعونكم إلى ما فيها. وقد ـ والله ـ تركوا ما أمر الله به فيها. وتركوا من أنزلت عليه فلا تجيبوهم». وطلب العودة للقتال ، إلا أن المعارضين سبوه وضربوا حصانه بالكرابيج ، فضرب الأشتر خيولهم هو الآخر.

ووجد على أن معركة ستنشب بين جنوده ، فقال إنه قبل الاحتكام لكتاب الله.

وبعد تبادل الرسائل بين الجيشين ، اتفقوا على أن يبعث كل فريق بمندوبين ومعهم المصحف ، فجلسوا وقرأوا بعض آياته واتفقوا على اختيار رجلين .. أحدهما من جيش على ، والآخر من جيش معاوية ، وما يصل إليه الرجلان يوافق عليه الجميع. اتفقوا أيضا

على أن يتفق الرجلان على خليفة واحد يجتمع تحت رايته الكل. فإما على بن أبى طالب ، وإما معاوية بن أبى سفيان.

اختار أهل الشام عمرو بن العاص حكماً عن معاوية ، واختار أهل العراق (جيش على) أبو موسى الأشعرى حكماً عن على بن أبى طالب ، دون موافقة على نفسه.

رأى على أن أبا موسى ليس مثل عمرو بن العاص. فعمرو داهية مراوغ كذاب ، وأبو موسى بسيط سمح يسهُل الغدر به ، لكن أهل العراق لم يعدِّلوا اختيارهم.. وعرض عليهم على بن أبى طالب أسماء أخرى ، لكنهم أصروا على أبى موسى.

واجتمع عمرو وأبو موسى وحدهما واتفقا على أمر ما ، ولما خرجا على الناس قال عمرو بن العاص إنهما اتفقا على الخليفة الجديد.. لكنه دفع أبا موسى لأن يبدأ بالكلام. وقال له : «إنك صحبت رسول الله ﷺ قبلى ، وأنت أكبر منى سناً فتكلم أنت .. وقل لهم ما اتفقنا عليه».

فانزعج عقلاء من جيش على ونادوا أبا موسى قائلين «اترك عمرو يبدأ أولا» لكن أبا موسى لم يهتم فصاحوا فيه من جديد : «ويحك والله إننا نظنه قد خدعك.. إن كنتما قد اتفقتما على أمر فاجعله يتكلم قبلك .. وتكلم أنت بعده. فإنه رجل غدار».

لكن أبا موسى لم يهتم ووجه حديثه للناس : «إنا قد نظرنا فى أمر هذه الأمة فلم نر شيئاً هو أصلح مما اتفقنا عليه .. وهو أن نخلع على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان.. فيكون الخليفة شورى بين المسلمين .. يولون أمورهم من أحبوا». وصمت ثم قال: «وإنى قد خلعت علياً كما أخلع خاتمى هذا» وخلع خاتمه من أصبعه.

وقام عمرو ليقول: «إن هذا (يقصد أبا موسى الأشعرى) قد قال ما سمعتم.. وخلع صاحبه .. وأنا أخلع صاحبه كما خلعه.. وأثبت صاحبى معاوية فى الخلافة ، فإنه ولىّ عثمان بن عفان .. والطالب بدمه أحق الناس بمقامه».

وهكذا سطر معاوية بن أبى سفيان بتخطيط من عمرو بن العاص أكبر صفحة سوداء فى تاريخ الإسلام والمسلمين ، فالفتنة رسخت السياسة الدينية.

❑

الملاحظة المهمة.. إن عمرو بن العاص هو أحد أبناء عمومة معاوية بن أبى سفيان. وهو أيضا أحد أقرباء الحكم بن العاص طريد رسول الله .. وأخيراً هو أحد أبناء البيت الأموى!!.

لما تغير مفهوم الخليفة ، ومفهوم الحاكم .. بدأ المسلمون يحولون مفهوم «ميراث النبوة» ومفهوم النبوة نفسه عن معناه ، ولما فتح المسلمون بلاد العجم (الأجانب) ، نظر مواطنو هذه البلاد لجيش المسلمين على أنها قوات احتلال تنفذ تعاليم ملك العرب «النبى». لذلك ظهرت عقائد غريبة دخلت الإسلام أملاً فى ترقية سياسية ، وظهرت تفسيرات وتأويلات جديدة للقرآن على أساس تكتيكى ، وليس على أساس دينى روحى ، وكان طبيعياً أن يظهر «من ادعوا النبوة» من منطلق سياسى أيضا ، رغبة فى عكس الأمر ، والتحرر من الاحتلال الإسلامى ، فربما تلغى دعوة نبى العرب دعوة نبى آخر ، وربما تحرر عقيدة ملك «فارسى» - مثلا - الفارسيين من مظالم وقسوة شهدوها على أيدى المسلمين.

وكانت معركتى «صفين» و«الجمل» بالقوة التى زلزلت الفكر الإسلامى كله ، فقد رفع المبشرون بالجنة السيوف ضد بعضهم البعض. على بن أبى طالب ، ضد الزبير بن العوام وطلحة تساندهما السيدة عائشة أم المؤمنين وكلهم مبشرون بالجنة ، لذلك انفتحت سراديب الأسئلة ، كيف لمبشر بالجنة أن يخطئ خطأ يحول مجرى العقيدة الإسلامية كلها؟! وهل يجوز أن يخطيء مُبشر بالجنة فتكون الفتنة والفتنة أشد من القتل؟!

وهل يغفر الله خطأ الفتنة ؟! وإن لم يغفر فمن من المبشرين بالجنة فى النار ؟! وإن كان طلحة قد قُتل ، وقُتل الزبير بن العوام .. قتلهما جيش على ، فهل يجوز لمؤمن قتل مؤمن ، دون خطأ أو نفس أو فساد؟! ثم هل عارض على بن أبى طالب والزبير بن العوام والسيدة عائشة وطلحة بن عبيد الله وعمرو بن العاص ومعاوية بن أبى سفيان ، حكم القرآن؟!

الأهم هو انعكاس هذه الظروف على مواطنى البلاد المفتوحة.

فقد وصل إليهم أن السياسة هى المعيار ، لذلك تغير لديهم معنى «النبوة». فلم تعد النبوة فى نظر الكثير من القوميات الأخرى إلا طريقا للسلطة ، وعرش فُرشت طرقه بالسيطرة والجاه.

من الممكن اعتبار معركتى «الجمل» و«صفين» بدايات كل تطور سياسى ودينى حدث فى المستقبل بالنسبة للمسلمين ، وهو أول تطور فلسفى أيضا، ذلك لأن الواقعتين قد أثارتا المشكلة العقلية الأولى فى الإسلام وهى ماذا يكون الحكم السليم بالنسبة للفريق المخطئ ؛ على أساس أنه لابد أن يكون أحد المتحاربين على صواب ، مما يعنى أن الآخر على خطأ ، لأنه لا يمكن أن يكون الاثنان على صواب. فالصواب واحد.

ولا يمكن أن يكون كل المتحاربين على حق. فيما يمكن أن يكون كلهم على خطأ.

فإما أنه خطأ على بن أبى طالب. وإما أنه خطأ السيدة عائشة والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله، وإما أنه خطأ معاوية بن أبى سفيان وعمرو بن العاص.

وإما أنه الحياد.

كل حل فى الثلاثة شكل مذهباً فكريا على طول التاريخ الإسلامى، فهناك من اعتقد فى كفر كل من قاتل على (رضى الله عنه) بما فى ذلك أصحاب الجمل (السيدة عائشة والزبير وطلحة)، وهناك من قال إن عليا نفسه كان على حق طوال واقعتى صفين والجمل، إلى أن قبل مبدأ التحكيم .. فخرج عندئذ عن الصراط المستقيم.

وظهرت فرقة «المعتزلة» التى فرقت بين المبدأ النظرى من جهة، والأشخاص من جهة أخرى. فقالوا إنه من الناحية المنطقية يمكن القول بأن الضدين (الكفر والإيمان) لا يجتمعان فى شخص واحد، لكن من ناحية التطبيق يصعب تصنيف الأشخاص الذين يقعون تحت هذا الضد أو ذاك، ورأى المعتزلة أن بين الكفر والإيمان منزلة وسطاً وهو المؤمن العاصى، الذى لا يدخله عصيانه دائرة الكفر، بينما لا يدخله إيمانه جانب التقوى. وقالوا لو أن على بن أبى طالب كان على حق فإن الزبير بن العوام أخطأ بقتاله، ولو أن جيش السيدة عائشة كان على خطأ.. فإن الزبير أخطأ بالانضمام له.

ووقف أهل السنة على الحياد فلا على كافر، ولا هو عاص، ولا الفريق الآخر كافر.. ولا عاص أيضا.

ومع كل هذه الآراء بدأت الخلافة الأموية على جمرة من نار.

الهوامش

(١) سورة البقرة: قرآن كريم الآية (٢١٩).

(٢) سورة البقرة: قرآن كريم الآية (١٨٩).

(٣) سورة البقرة: قرآن كريم الآية (٢٢٢).

(٤) سورة المائدة: قرآن كريم الآية (٤).

(٥) سورة البقرة: قرآن كريم الآية (٢١٧).

(٦) تفسير الجلالين: السيوطى: أسباب نزول آية التحريم.

(٧) أسباب النزول.

(٨) سورة الأحزاب: قرآن كريم الآية (٣٧).

(٩) سورة عبس: قرآن كريم الآية (١ , ٢).

(١٠) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك: ج٢ ص ٤٩٩.

(١١) الطبقات الكبرى لابن سعد ـ ج٣ ص ٧٦ ـ دار صادر ـ بيروت.

(١٢) البداية والنهاية لابن كثير ـ ج٧ ص ٢٥٩ ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت.

(١٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ج٣ (سبق ذكره).

(١٤) مروج الذهب: المسعودى: الجزء الرابع ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ ص ٤٢٦ ، ٣٤٣.

(١٥) جذور الفتنة فى الفرق الإسلامية: اللواء حسن صادق : مكتبة مدبولى القاهرة. الطبعة الثالثة ١٩٩٧ ـ ص ٣٠ ، ٣١.

(١٦) السيدة عائشة ونعثل (عبقرية الإمام على ـ المجموعة الكاملة لمؤلفات العقاد ـ المجلد الثانى ـ دار الكتاب اللبنانى).

(١٧) الطبقات لابن سعد ، تاريخ الطبرى ومروج الذهب للمسعودى.

(١٨) (دفن عثمان بمقابر اليهود) (تاريخ الطبرى الرسل والملوك ـ الجزء الثالث ص ٤٣٩).

(١٩) الكامل فى التاريخ لابن الأثير ـ ج٤ ـ ص ٣٣٣.

(٢٠) مسند الإمام أحمد بن حنبل. راجع أيضا د. فرج فودة فى الحقيقة الغائبة: ص٩٧.

(٢١) المستشار محمد سعيد العشماوى: الإسلام السياسى: الطبعة الثانية: مكتبة مدبولى الصغير القاهرة.

(٢٢) معاوية لما قال ما أخذته فلى. الطبرى. مرجع سابق.

(٢٣) أبو جعفر المنصور العباسى خطبته.

(٢٤) المستشار محمد سعيد العشماوى: أحوال الشريعة: الطبعة الثانية. مكتبة مدبولى الصغير. وكتاب جوهر الإسلام: دار سينا للنشر. ١٩٩١.

(٢٥) المستشار محمد سعيد العشماوى: الإسلام السياسى: ط٤ ، ١٩٩٦ ، مكتبة مدبولى الصغير ص ٦٤ ، ٦٥.

(٢٦) الفرق الإسلامية منذ عهد الرسول ﷺ - حتى اغتيال السادات: اللواء حسن صادق. ط٣ ، ١٩٩٧ : مكتبة مدبولى ، القاهرة ، ص ٧٢ ، ٧٣.

(٢٧) الطبرى: مرجع سابق. اللواء حسن صادق. مرجع سابق.

(٢٨) أحمد أمين: ضحى الإسلام. مرجع سابق ، المستشار محمد سعيد العشماوى: الخلافة الإسلامية: ص ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١. مدبولى الصغير. ط٣. ١٩٩٦. القاهرة.

(٢٩) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك. مرجع سابق.

(٣٠) على أساس أننا نحسم تاريخ وفاة السيدة فاطمة قبل حروب الردة لا بعدها. وعلى هذا لم يبايع على (رضى الله عنه) أبا بكر (رضى الله عنه) إلا بعد وفاتها (رضى الله عنها) ، وليس بسبب حروب الردة.

(٣١) جذور الفتنة في الفرق الإسلامية: حسن صادق: مرجع سابق ، ص ٢٦ ، ٢٧. عن تاريخ الإسلام: دكتور حسن إبراهيم. وفى نزول القرآن: د. محمد خليفة. الفتنة البكرى: د. طه حسين. وعبقرية عمر: د. طه حسين. وعبقرية محمد ﷺ د. طه حسين.

(٣٢) تاريخ الرسل والملوك: الطبرى: ج٤ ، ص ١٠٨ ، ١٠٩. مرجع سابق.

(٣٣) الفتنة الكبرى لطه حسين ، الجزء الرابع ص ٥٥١ ، ٥٥٧ ، د. زكى نجيب محمود المعقول واللامعقول ص ٣٨ ، ٣٩. - نهج البلاغة: الإمام على بن أبى طالب.

(٣٤) (كلام على فى عمرو بن العاص يخون العهد ويقول فيكذب) نهج البلاغة ج٢ ، ص ٥٥١ : ٥٥٧ د. زكى نجيب محمود . المعقول واللامعقول ، ص ٣٨ ، ٣٩ .

(٣٥) (عمرو بن العاص والأمر الذى طلب من معاوية فعله). (د. زكى نجيب محمود: المعقول واللامعقول فى تراثنا الفكرى) دار الشروق: الطبعة الأولى: ١٩٧٢ ، ص ٤٠ , ٤١ , ٤٢ مرجع سابق.

دراسة فى الاستخدام السياسى للدين

مدعو النبوة فى التاريخ الإسلامى

3

«النبوة» ..

و«الخلافة»!!

دار الخيّال



فقهاء ليسوا ملائكة

بعد جيل واحد من وفاة النبى ﷺ أصبحت الدولة الإسلامية إمبراطورية حقيقية وصارت الخلافة وراثية فى بداية الحكم الأموى عام ٦٦٠م. وأصبح الخليفة بالفعل والواقع إمبراطورا مثل إمبراطور فارس أو قيصر الروم.

وركز رجال الخلفاء وفقهاء البلاط «الملكى» على وجهة النظر التى تؤدى ـ ولو ضمناً ـ أن الخليفة يخلف النبى فى حقوقه ، ودار الفقه الإسلامى حول الخليفة وحقوقه ، بينما لم يعط إلا القليل من الاهتمام لحقوق المحكومين.

خلال تاريخ الخلافة الإسلامية ، كان التطبيق السياسى دائماً ضد مصالح الناس.

تحول العدل والمال والسلطة الدينية ملكاً خاصاً للخليفة ، ومن حقوقه المطلقة ومن حقوق أبنائه ... ثم وزرائه.

بالفهم الخاطئ للدين والقرآن ومع التصورات التراثية والخيالية غير الحقيقية لسيرة النبى ، وأصحابه ، عادت الخلافة وضعاً قبلياً مرة أخرى ، وبدأ القريشيون (أمويين وعباسيين وشيعة على بن أبى طالب) فى الصراع على أساس أن الخلافة حق لأبنائهم ونسلهم فقط لأنهم قبيلة رسول الله ﷺ.

وقتها ظهر الحديث النبوى: «الأئمة من قريش». وظلت الخلافة بالفعل فى قبيلة قريش

فترة امتدت لتسعة قرون ، بدأت بالخلفاء الراشدين ثم الأمويين وانتهت بالخلافة العباسية ، وبعدها الخلافة الفاطمية.

وعلى الرغم من تغيّر الظروف التاريخية والاجتماعية ، ظلت الخلافة دائماً مقصورة على قبيلة قريش بعينها ، فيما اعتقد البسطاء من الناس أنه أمر دينى وسنة نبوية وشريعة إلهية ، وبذلك احتجبت المشاركة السياسية وولاية أمور الحكم على المسلمين عن غير العرب ، فقد انتصر الرأى الفقهى الذى يؤكد أنه لا تصح ولاية غير القريشيين للمسلمين ، ومع أن الخلافة ـ عند السنة على الأقل ـ ليست نظاماً دينياً ، فقد تحولت لنظام دينى ، وأصبح ذلك يجد تعليلاً من الفقهاء فى وصفها بأنها «حراسة للدين وسياسة للدنيا». وهو ما أدى إلى الاعتقاد لدى العوام فى أن الخليفة بالفعل معصوم فى قوله وفعله.

وبالممارسة الفعلية تركزت الحكومة الإسلامية فى جنس معين وقبيلة معينة بشكل عام ، وفى عائلة النبى ﷺ بشكل خاص. وهو ما دعم سعى الخلفاء ـ كأباطرة ـ إلى غزو بلاد أخرى حماية لملكهم أو زيادة لقوتهم وتنمية لمواردهم.

ورغم ما يقال أن الغرض من الفتوحات كان نشر الإسلام ، فلقد أثبت التاريخ أنه ليس قولاً صحيحاً ، فالمصريون على سبيل المثال ظلوا على دينهم لمدة تزيد على الثلاثة قرون بعد الفتح الإسلامى ، وفى الأندلس ظل كثير من السكان مسيحيين طوال الحكم الإسلامى الذى استمر حوالى سبعة قرون.

ورغم أن غير المسلمين لم يكونوا مضطهدين بالمعنى الحقيقى الواضح تحت الحكم الإسلامى فى البلاد المفتوحة ، لكنهم كانوا ـ بالفعل ـ محلاً للتفرقة بينهم وبين العرب ، صحيح كانوا يباشرون شعائرهم الدينية ، لكن لم يكن لهم حق ممارسة أى حقوق سياسية أو اجتماعية كبناء المعابد أو الإعلان عن الأعياد ، مما أدى ـ بعد فترة من الحكم الإسلامى ـ إلى تحول المواطنين المضطهدين لتأليف مذاهب دينية خاصة ، وادعى أكثرهم النبوة ـ بعد دخولهم الإسلام ـ إما رغبة فى السيطرة أو أملاً فى الخلاص.

فالخلفاء المسلمون الفاتحون وبطاناتهم وعائلاتهم ووزراؤهم وحكامهم شكلوا عداء قوياً لأى تعليم أو ثقافة رفيعة غير إسلامية. لذلك منعوا التعليم ، وفرضوا الجهل ، وحصروا حق مواطنى البلاد المفتوحة حتى لو كانوا مسلمين فى مجرد حفظ بعض آيات القرآن الكريم وبعض الأحاديث النبوية ، إضافة لآراء متفرقة لبعض الفقهاء ، مع بعض النوادر والنكات التراثية ـ وكلها عربية ـ لمن أراد الاستزادة.

الأمية الثقافية كانت سمة غالبة على مواطنى معظم البلاد المفتوحة ، وكان يجب أن يتحول «المقهورون» إلى الإلحاد ، أو إلى الانحراف فى الدين بأفكارهم وتراثهم القديم ، رداً على المسلمين العرب المنادين باحتلال بلادهم جهاداً فى سبيل الله ، مع إن معنى الجهاد فى اللغة إعطاء وبذل كل ما فى وسعك من طاقة أو قول أو فعل للدفاع عن حق(١).

وفى الفترة الأولى من التنزيل القرآنى (الفترة المكية ٦١٠ ـ ٦٢٢) استُعمل لفظ الجهاد بمدلول معنوى يعنى مجاهدة النفس وبذل الطاقة وتحمل المشقة فى سبيل الله ودينه ودعوة رسوله.

كان مطلوباً من المسلمين «الجهاد» «بالاحتمال» ومواجهة أعداء الدين وتحمل كافة الضغوط من تعذيب وضرب وإهانة. ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [سورة لقمان/ ٣١ : ١٥]. وهو أن يتحمل المؤمن كل مشقة حتى من والديه لو أرادوا صده عن الإسلام ودين الله. ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [سورة العنكبوت/ ٢٩ : ٦٩ مكية] تؤكد أن الذين يجاهدون (بالتحمل والصبر على المكاره) فى سبيل الله فإنه يهديهم إلى الطريق الصحيح.

الجهاد فى الفترة المكية كان جهاد النفس لتأكيد الإيمان ، ثم تحمل إيذاء الكافرين فيما يتعلق بالعقيدة الإسلامية فى بدايتها. ﴿فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [سورة الفرقان/ ٢٥ : ٥٢ مكية]. وهو ما يعنى عدم طاعة الكافرين وجهادهم جهاداً كبيراً بالقول الصادق وبالفعل الذى هو القدوة والأسوة الحسنة وألا يفقد العذاب المسلمين الأوائل إيمانهم... إذ أن الجهاد الأكبر هو جهاد النفس وتثبيت إيمانها.

ولما لم يقف مشركو مكة عند حد التعذيب والضرب والإهانة ، وفرضوا على المسلمين المقاطعة التجارية واضطروهم للهجرة إلى المدينة (يثرب). تحول «الجهاد» لمعنى آخر غير الجهاد الذاتى المعنوى.

المعنى الجديد أن يمتد الجهاد للمال فيكون فى سبيل الله ، إلى جانب جهاد النفس، فنزلت الآيات القرآنية ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ﴾ [سورة الحجرات/ ٤٩ : ١٥ مدنية]. والمعنى أن الجهاد هو ـ ذلك الوقت فقط ـ بذل المال لمعاونة المهاجرين من مكة للمدينة ، وهم الذين تركوا أموالهم ونساءهم وأولادهم وفروا بأنفسهم ليحموا إيمانهم من مشركى مكة. وقتها أصبح الجهاد بالمال يسبق

جهاد النفس. وفى مرحلة أخرى قال سبحانه: ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [سورة التوبة/ ٩ : ٤١]... وهو ما يؤكد أن الجهاد فى هذه المرحلة (المرحلة المدنية ٦٢٢ ـ ٦٣٢م) أصبح جهاداً مادياً ببذل التضحيات بالمال إلى جانب الجهاد بالنفس.

وهو أمر طبيعى... فالصعوبات الخارجية شديدة، ومكائد المشركين والكفار بالغة وذات بأس شديد، ولعل المعنى واضح حول «الجهاد الأكبر» جهاد النفس، وتثبيت الإيمان يظهر بوضوح بعد انتصار المسلمين فى معركة بدر الأولى، ففى طريق عودته للمدينة قال ﷺ: «عدنا من الجهاد الأصغر للجهاد الأكبر». يقصد بذلك أن الحرب مع العدو مهما اشتدت، فهى جهاد صغير، وإن حرب الأنفس هى الجهاد الأكبر والأعلى.

ففى العهد المكى (٦١٠ ـ ٦٢٢م) كان النبى ﷺ مأموراً بالصبر على مشركى مكة وألا يرد الإساءة [٢]. وكل الآيات المكية لها نفس المعنى مثل: ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلاً﴾ [سورة المعارج/ ٧٠ : ٥]. و﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [سورة الكهف/ ١٨ : ٢٩]. وأيضاً ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [سورة العصر/ ١٠٣:٣].

غير أن مشركى مكة لم يسكتوا عن الشر، ولم يتوقفوا عن إيذاء المسلمين، الذين جهزهم النبى فى المدينة ونفذ بهم بعض المعارك الصغيرة ضد قوافل مكة، على أن هذه المعارك لم تجبر سادات مكة على الاعتراف بالمسلمين والسماح للمهاجرين منهم بزيارة مكة حيث يوجد الأهل والمال والأقارب والزوجات والأبناء، ولما رفض المكيون أى تفاهم أو تقديم أى تنازل للمسلمين عامة والمهاجرين منهم خاصة، تغير معنى الجهاد فى الآيات القرآنية مرة ثالثة... وأصبحت كلمة «الجهاد» هى الحرب المقدسة ضد المشركين، وفى هذا المعنى نزلت كل الآيات المدنية تعطى الإذن بالحرب ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ [سورة الحج/ ٢٢ : ٣٩]. و﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [سورة البقرة/ ٢ : ١٩٠].

لم يكن الجهاد حرباً غير مشروطة، إنما حرب محددة السبب والظروف ضد الأعداء الذين هم فقط كفار مكة، فالمسلمون قد ظُلموا وأخرجوا من مكة بغير حق، لمجرد أنهم قالوا ربنا الله، وبعد أن أخرجوهم ظلما، جهز مشركوا مكة جيشاً ساروا به إلى المدينة للقضاء على الإسلام.

ضوابط الآيات الكريمة للنبى ﷺ أن الحرب فقط ضد هؤلاء المعتدين دون غيرهم ، ومنها أيضاً ألا يبدأ المسلمون الحرب ، وألا يقاتلوا إلا من يقاتلهم.

الجهاد فى هذه المرحلة كان الحرب دفاعاً عن النفس ، ولم تكن تعنى أنها قتال على الإطلاق لأى كافر أو غير مسلم ، كذلك كان على المسلمين ألا يبادروا بالقتل ، وعليهم فقط أن يردوا بقدر ما يكون العدوان.

وفى موقعة الخندق (٦٢٦م) أحاط مشركو مكة بالمدينة ، وحاصروها وكادوا أن يدخلوها لإفناء المسلمين ، إذ أن قبيلة بنى قريظة اليهودية قد تحالفت من داخل المدينة مع المشركين ، فيما كان الطريق الوحيد للدخول من خلال مساكن بنى قريظة لأنها الوحيدة التى لم يحفر المسلمون حولها خندق ، واكتفوا بأن أخذوا عهداً منهم بعدم الخيانة.

وهو ما وضع محمدا ﷺ فى مأزق وكان عليه أن يتصرف مع هؤلاء الخونة ، أولاً لحماية نفسه وثانياً لحماية الدولة الجديدة التى أقامها فى المدينة ... لذلك نزلت الآية ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [سورة التوبة/ ٩:٢٩].

القتال فى الآية ليس لكل أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، ولا يعنى أن دين اليهود ليس ديناً حقيقياً ، لكنه مقصور على هؤلاء الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرّمون ما حرم الله ، على أساس أن خيانة العهد ونقض الميثاق إباحة لما حرم الله ، فقد أمر سبحانه وتعالى بالقسط والوفاء بالعهود ، ثم إن عدم إيمانهم بالله ورسوله ولا اليوم الآخر يعنى أنهم لو كانوا سمحوا للمشركين بدخول المدينة من ديارهم ، لكان المشركون قد فتكوا برسول الله والمسلمين وهو ما يعنى أنهم ـ أى اليهود ـ ليسوا متأكدين أن محمدا ﷺ هو رسول الله ، وإلا لما كانوا حاولوا تسهيل مهمة المشركين فى قتله ، وهدم الإسلام.

ثم إن قتال أهل الكتاب الخارجين على الدين (دينهم هم) موقوف عند أدائهم الجزية للنبى وجماعة المؤمنين ، وهو دليل حسن نواياهم وخضوعهم ، والجزية تضمن عدم خيانتهم من جديد[٣].

أما الآيات التى نزلت عند فتح مكة (عام ٦٣٠م). فكانت خاصة بقتال مشركى مكة

وحدهـم. مثـل الآية ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١) فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٩٢) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٩٣) الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [سورة البقرة/ ١٩١ : ١٩٤].

ثم نزلت الآية: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ [سورة التوبة / ٩ : ٣٦] بعد الفتح. والآيتان تخُصان مشركى مكـة ، فقتالهم واجب حتى يسلموا ، ولن يقبـل منهم غير الإسلام ، لأنه من غير المنطقى أن يعيش بمكة أحد أهم مراكز الإسلام مشركون بالله ورسوله ، ناهيك عما يشكله هذا من خطر على المسلمين وعلى شخص النبى ﷺ.

أما قتال «أهل الكتاب» من اليهود ، فهو لمن خرج عن شريعة التوراة بغرض إخضاعهم للنبى ﷺ وجماعته من المسلمين ، والجزية دليل قبولهم الدخول فى ذمة النبى وجيوشه.

ففى صحيح الإسلام للجهاد معنى محـدد ، تطور عبر الظروف بذاتها من خلال قانون الفعل ورد الـفعل المساوى فى القـوة والمضاد فى الاتجاه ، لم تكـن الحرب ولا بذل المال إلا تطبـيقا ـ فى وقت مـعين ـ لمبدأ مجـاهدة النفـس ، على اعتبـار أن التطوع بالمـال والأنفس أوضح مسائل كبح شهوات الحياة والمال والمتع الدنـيوية ، وبهذا المعنى يكون الجهاد أسلوباً كريماً ودافعا للارتقاء بالنفس ، فتعطى دون توقع للرد ، لكن هذا المعنى الرفيع السامى فُسر خطـأ ، وحُرف عمـداً من السلـطات السـياسيـة ، وجاء من يـقول أن الصلـة الدائمـة بين الإسلام وغيره من الـدول غير المسلمة هى الحرب الـدائمة وإن السلم ليس إلا هـدنة مؤقتة إلى أن يتهيأ المسلـمون للحـرب ، وأصبحت الدولة الإسلامية دار سـلام ، بينما الدول غير الإسلامية دار حرب.

واحتج عدد لـيس قليلا من الـفقهاء بالآية الـكريمة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ﴾ [سورة التـوبة/ ٩ : ١٢٣] ، مع أن الآية نـفسها ، وحـسب ظروف التـنزيـل ، تـقصد قتـال الكفار أو غـير المسلـمين الذين لـم يؤمنوا بمـحمد ﷺ ممن كـانوا يجاورون المسلمين فى مكة ، أى القبائل المحيطة ، ولا يسرى حكمها فى وقتنا هذا.

الآية كانت مجرد تنظيم حربى يأمر بتطهير الأراضى المجاورة للمجتمع المسلم فى مكة حتى يأمن المسلمون كل تهديد وشر ، على الأقل من المجاورين ، ثم ينتهى الأمر ولا يكون هناك مبرر ولا واجب لأى قتال جديد لدول غير إسلامية بعيدة عن نطاق العاصمة الإسلامية.

أما فى المدينة ... فقد نزلت آية المؤلفة قلوبهم ، وهم من القبائل المجاورة للمدينة سايسهم النبى ﷺ وأعطاهم من صدقات المسلمين دون أن يدخلوا فى الإسلام حتى يأمن شرهم ، فلا يقاتلهم ولا يقاتلونه ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [سورة التوبة/ ٦٠:١٠] . ثم عاد عمر بن الخطاب وألغى العمل بهذه الآية بعد وفاة النبى ﷺ إذ أن الإسلام لم يعد ضعيفاً ، ولم يعد لإعطاء المؤلفة قلوبهم مصلحة ، وهو ما عرف بتوقيف عمر بن الخطاب لسهم «المؤلفة».

فالإسلام وقت تنزيل القرآن كان محاطاً بامبراطوريتين كبيرتين على استعداد دائماً للحرب ... الإمبراطورية الرومانية فى الشمال ، والإمبراطورية الفارسية فى الشرق ، وكان الحفاظ على الإسلام وحماية المسلمين ممن كانوا يقيمون فى هذه الأماكن دفاعاً عن النفس ليس إلا. والقاعدة الحربية من قديم الأزل «إن الهجوم خير وسيلة للدفاع». والدفاع عن النفس بهذا المعنى وحماية المجتمع الإسلامى الناشئ يتطلب بالضرورة تطهير الأماكن المجاورة له وقت التنزيل ، وعندما جهز النبى ﷺ جيشاً قبل وفاته (٦٣٢م) لتطهير شمال الجزيرة العربية ، كان يقصد إعمال الآية الكريمة وتنفيذ حكمها بالنسبة لمن يجاورون (يلُون) المجتمع الإسلامى ، الذين ظهرت عداوتهم للإسلام وبات من المؤكد أنهم يحاولون إجهاض دولته.

لعبت السياسة ـ فيما بعد ـ بكل هذه المفاهيم ، وقصدت اللعب بالتأويل لأغراض ليست دينية ، وعمد الفقه إلى تبرير أخطاء السياسة وتعميم تأويلاتها، بجعل الحكم القرآنى المؤقت حكماً دائماً، والقاعدة العارضة قاعدة ثابتة ، والرأى الخاص رأياً عاماً ، والحكم الخاص بالنبى حكما خاصا بكل المسلمين ، والأحكام الخاصة بنساء النبى ﷺ أحكاما تنطبق وتسرى على كل نساء المسلمين ، فألغت السياسة وفقهها الجهاد الأكبر ، جهاد النفس ، ورفعت لواء الجهاد الأصغر ، الحرب والقتال المطلق لكل من لم يسلم من

اليهود والنصارى ، فالجهاد الأصغر ـ وببساطة ـ هو الذى يخدم أغراض حكام الخلافة الإسلامية الاستعمارية التوسعية.

فارس التى فتحها العباسيون بعد الأمويين كانت تتطلع لحماية «حضارتها» وثقافتها ، لذلك ناصرت العباسيين على الأمويين ، فقد تأكد للفُرس أن الأمويين يحاولون طمس كل هويتها وإلغاء حضارتها الأرقى والأقدم من الحضارة العربية ، وبعدما ساعد أبو مسلم الخراسانى (الفارسى) العباسيين ... قتلوه ، فتأكد الفارسيون أن العباسيين ليسو إلا أمويين آخرين ، وكان عليهم الدفاع عن أنفسهم ، وربما كان رد فعلهم ـ سواء شعروا ـ أو لم يشعروا ، هو العودة لعقائدهم القديمة وخلطها بالإسلام ، فمنهم من اعتقد أن هناك أنبياء غير محمد ، ومنهم من اعتقد أن «أبا مسلم الخراسانى» نفسه هو النبى بعد محمد ﷺ ... وأنه لم يُقتل ، إنما رفعه ربه للسماء ، لينزل بعد فترة ويسوس الناس بالحق ، ويخلّص الفرس من العرب(٤).

هزيمة الفارسيين العسكرية وقهرهم بواسطة العرب ، حولهم للاعتقاد أن التراث والأفكار أقوى من الحرب والسيوف ، لذلك خلطوا تراثهم وأساطيرهم بالإسلام.

وخرج من فارس وحدها ـ على مر التاريخ ـ ما يزيد على «٤٠ نبيا» و«٤ آلهة» منذ غزاها الأمويون حتى جلا عنها العباسيون.

لم تكن النبوة إلا شرفا ومستقبلا سعيدا لشعب النبى ، ففى صراع الحضارات الذى بدأ بالفتوحات الإسلامية الغلبة دائماً لأهل النبى العربى محمد ﷺ ... الذين هم أولى بالحكم والإمامة من غيرهم حسب المفهوم الذى أشاعه المسلمون.

وعندما أسس معاوية بن أبى سفيان بعد ثمانية وعشرين عاماً من وفاة النبى ﷺ الدولة الأموية ، كانت إمبراطورية بكل ما تحمله الكلمة من معان ، كذلك الدولة العباسية ، وتحول حكام الدولتين إلى ملوك ، فقصدوا توسيع ملكهم ، وزيادة عدد رعاياهم وبالتالى مضاعفة الكنوز والثروات ، فغزوا أكثر ما يمكن من بلاد ، وقهروا أكثر ما يمكن من الناس ، خاضوا حروباً كثيرة وانتصروا بعد ما أشعلوا حماس العامة من المسلمين باسم «الجهاد» ... أو الحرب الإسلامية ... أو الفتوحات.

وزعم «الملوك المسلمون» (الخلفاء) أنهم إنما يفعلون ما يفعلونه لنشر الدين وزيادة

سلطانه بينما الحقيقة أنهم غزوا بلاداً وقهروا عباداً وأهلكوا كثيرين لأغراض مادية ، وأهداف دنيوية ، بينما لا يوجد تكليف شرعى بالحرب ولا قتل الآمنين.

وبرر فقهاء «البلاط الملكى» تصرفات الخلفاء ، وسعوا لدى فكر البسطاء مؤكدين أن حروب الدولة الإسلامية (أموية وعباسية) فريضة إسلامية ، وأنها جهاد فى سبيل الله ، لأن من مبادئ الإسلام فتح البلاد ودعوة الناس (بالسيف) لدخول الإسلام ، مع أن مجرد فتح أى بلد لا يعنى بالضرورة دخول أهله الإسلام.

مرة أخرى ، ظل المصريون على دياناتهم السابقة ثلاثة أو أربعة قرون بعد الفتح الإسلامى لمصر والأسبان أيضاً ظلوا على مسيحيتهم طوال مدة بقاء المسلمين هناك. يعنى ثمانية قرون. فإذا كان الفتح يقصد نشر الإسلام ودعوة غير المسلمين وإدخالهم الدين. فالفتح لم يحقق المراد منه[٥]. إضافة إلى أن الفتح «احتلال» بالنسبة لمواطنى البلاد المفتوحة ، والغريب أن المسلمين يحتفلون حتى اليوم بذكرى «سقوط الأندلس» وضياعها من الحكام العرب ، مع أن الحقيقة هى عودة الأندلس لأهلها الحقيقيين .. الأسبان ، بعد احتلال عربى (!!).

ثم إن الإسلام دخل البلاد الأفريقية فى أعمق أعماق قارة أفريقيا ودول آسيا وروسيا والصين شمالاً وجنوباً دون حروب أو قتال أو فتوحات.

والدولة العثمانية بعد ما سيرت الجيوش لفتح البلاد «المسلمة أصلاً». فرض السلطان العثمانى الجزية على «مصر» وبلاد أخرى رغم أن معظم شعوبها من المسلمين.

ولم تعامل الإمبراطورية العثمانية مسلمى البلاد المفتوحة كإخوان فى الدين. إنما عاملتهم كرعايا مقهورين. ورأى بعض الفقهاء الخارج عن الخلافة العثمانية ، خارجا عن الدين.

لذلك قُطعت الرقاب ، وأبيحت الأعراض ، وعلقت المشانق ، وكشفت النسوة عن شعورهن حزناً على تقطيع «الخلفاء» لأرجل وأيدى أزواجهن من خلاف. فقد رأى «الخلفاء» أن هؤلاء الرجال ينطبق عليهم حد الحرابة ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ﴾.

ولأنهم ـ الخلفاء ـ خلفاء لدين الله ، فمعارضتهم والخروج عليهم خروج عن الدين ، والخروج عن الدين خروج عن حكم الله.

العصر الأموى عصر فتن متوالية ، اختفت فيه روح الدين ، وتحولت السياسة لصيغ مخالفة ومفاهيم متناقضة تناقضاً كبيراً مع المفاهيم القرآنية ، وخلال العصر الأموى وقعت الفتنة الأكبر ، فبعدما قُتل على بن أبى طالب ، بايع أهل المدينة ابنه الأكبر الحسن خليفة على المسلمين ، فيما ظل معاوية بن أبى سفيان والياً على الشام ؛ لذلك خرج الحسن مع أصحابه لقتال معاوية وانتزاع الخلافة منه ، لكنه فشل فى الانتصار ، واضطر إلى تسليم معاوية الخلافة ومبايعته(٦)، وقيل أن «الحسن» أخذ مبالغ مالية من معاوية بلغت ألف ألف درهم (مليون). وقيل مائة ألف دينار ... وقالوا أربعمائة ألف دينار. قيل أيضاً أن الحسن اشترط على معاوية أن يأخذ من بيت المال ما يحتاجه(٧).

ورغم تسليم «الحسن» ـ رضى الله عنه ـ ظل معاوية خائفاً ألا تصير الخلافة فى ولده ؛ لأن الأكيد أن يولى المسلمون الحسن الخلافة بعد موت معاوية ، لذلك خطط لدس السم للحسن فى طعامه ، لكنه لم يمت ، إلى أن نجحت المحاولة الثانية ووضعت للحسن السم زوجته «جعدة بنت الأشعث» فى عسل يشربه ، فتألم مدة شهرين حتى مات ، ولما بلغ معاوية موت الحسن ، جلس يكبر (الله أكبر الله أكبر ولله الحمد) فى ديوانه مع أتباعه وقالوا إن «لله جنوداً فى العسل»(٨).

وقيل أن معاوية قال القول نفسه عندما دس «للأشتر النخعى» (قائد جيش على فى حربه مع معاوية) السم فى عسل كان يشربه أيضاً كل صباح(٩).

معاوية سعى بدأب لتوريث الخلافة فيما لم يكره المسلمون الأوائل شيئا أكثر من توريث الخلافة ، فرفض أبوبكر أن يعهد بها لأحد من بنيه ، ورفض عمر أن يولى ابنه عبدالله ، وحصر أمر الشورى فى الخلافة فى ستة وقال لأصحابه أن يقتلوا ابنه لو اختلف المسلمون على الخليفة من بعده حتى لا يفتتن المسلمون به فيولوه.

أما على بن أبى طالب فقد سألوه وهو يحتضر عن مبايعة الحسن ابنه فقال «لا آمركم ولا أنهاكم». وقال: «أترككم كما ترككم رسول الله».

كانت صدمة كبرى حينما ولى الخليفة معاوية بن أبى سفيان يزيد ابنه ولاية العهد ، ولأن معاوية يعلم مدى خطورة توريث الخلافة ، فقد حذر ابنه من ثلاثة ... الحسين بن

على بعد وفاة الحسن ، وعبدالله بن الزبير (ابن الزبير بن العوام). وعبدالله ابن عمر (ابن عمر بن الخطاب). فلم يكن من أبناء الصحابة حياً سوى هؤلاء ، ولأنه لا يوجد صحابى حى ، فإن الأبناء ـ حسب منطقه ـ أولى بالمطالبة بخلافة المسلمين.

ولما مات معاوية... ظل الحسين بن على وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر رافضين بيعة يزيد بن معاوية خليفة للمسلمين ، ووصلت رسائل كثيرة من أهل العراق لمقر إقامة الحسين بن على تدعوه للقدوم للكوفة ليبايعوه إماماً ، ويرفضوا بيعة يزيد بن معاوية ويطردوا واليه على الكوفة النعمان بن بشير. وعرف يزيد بسفر الحسين فى طريقه للكوفة ، ولما كان واليها نعمان بن بشير رجل دين لا رجل سياسة ، فقد عهد يزيد إلى «عبيد الله ابن زياد» واليه على البصرة بمنع الحسين بن على من دخول الكوفة أو الوصول لأهلها بأية طريقة.

واستعان «عبيد الله بن زياد» «بالحر بن يزيد« (من أشراف الكوفة معروف بالجشع والكفر) لمنع الحسين وأهله من دخول الكوفة ، ومنعهم أيضاً من العودة لبلادهم حتى يصله أمر جديد [١٠].

وتجلى شكل الصراع (أموى وهاشمى) فى حوار للحسين بن على مع الحر بن يزيد عندما قال الحسين : «أما بعد أيها الناس ، فإنكم إن تتقوا الله ، وتعرفوا الحق لأهله (يقصد خلافة البيت الهاشمى) يكن أرضى لله ، ونحن (يقصد أبناء البيت الهاشمى) أولى بولاية هذا الأمر من هؤلاء المدعين ما ليس لهم (يقصد الأمويين) ، السائرين فيكم بالجور والعدوان ، فإن أنتم كرهتمونا وجهلتم حقنا (حق البيت الهاشمى فى الخلافة) ، وكان رأيكم غير ما أتتنى به كتبكم ورسلكم انصرفت عنكم».

كان الحسين يشير إلى الرسائل التى وصلته بمبايعته من أهل العراق أميراً للمؤمنين بدلاً من معاوية ، فرد عليه الحر بن يزيد قائلا: «إنا والله ما ندرى ما هذه الكتب والرسُل التى تذكر» فأمر الحسين فأخرجوا صحفاً فنشرها بين أيدى الناس وقال: «هذه هى الكتب».

فقال الحر: «فإنا لسنا من هؤلاء الذين كتبوا إليك ، وقد أُمرنا إذا نحن لقيناك أن لا نفارقك حتى ندخلك الكوفة على واليها عبيد الله بن زياد».

ولما رفض الحسين ، وأمر أصحابه بركوب خيولهم ، منعهم الحر بن يزيد.

فقال الحسين: ثكلتك أمك ، ما تريد؟!

قال الحر: «أما والله لـو غيرك من العرب قـالها لى ما تركت ذكـر أمه بالثكل كـائناً من كان ، ولكنى والله مالى إلى ذكر أمك سبيل إلا بأحسن ما يقدر عليه».

فقال الحسين: «ما تريد؟!»

قال الحر: «أنطلق بك إلى ابن زياد والى الكوفة».

فقال الحسين: «إذاً والله لا أتبعك».

فقال الحر: «إذا والله لا أدعك».

وبعـد جـدل قـال الحر: «إنى لـم أؤمر بقـتالك ، إنمـا أمرت ألا أفارقـك حتى أقـدمك الكوفة ، فإذا أبيت ، فـخذ طريقاً لا تدخلك الكوفة ، ولا تردك المدينـة حتى أكتب إلى ابن زياد ، فأرى رأيه ما يكون».

واقترح الحر بن يزيد عـلى الحسين بن على أن يكتب إلى ابن زيـاد ، أو يكتب إلى يزيد بن معاوية على حد قـوله «لعل أن يأتى بأمر يرزق فيه الحر العافية مـن أن يبتلى بشىء من أمر الحسين».

كان الحر يعرف نية الأمويـين قتل الحسين بن على للقضاء على مـصدر تهديد الخلافة الأموية الأول ؛ وفطن الحسين بن على هو الآخر لـذلك سار فى الطريق الذى قاله الحر بن يزيد ، وسار جيش الحر بحذاه يراقبه ، ولما نزل الحـسين وأهله عن خيولهم للراحة ، خطب فيهم وقال: «أيها الـناس إن رسول الله قال من رأى سلطاناً جائراً مسـتحلاً لحرم الله ، ناكثاً لعهده ، مـخالفاً لسنـة رسول الله ، يعمل فى عـباد الله بالإثم والعدوان ، فـلم يغير ما عـليه بفعل ولا قول ، كان حقاً على الله أن يدخله مدخلاً إلا أن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان».

واستمر الحسين بن على فى شحذ همم جنـوده مذكراً بحقه (حق البيت الهاشمى) فى الخلافة فقال : «هؤلاء (يقصد الأمويين) تركوا طـاعة الرحمن ، وأظهروا الفساد ، وعطلوا الحدود ، وأحلوا حرام الله ، وحرموا حلاله ، وأنا أحق من غيرى ».

فقال له الحر بن يزيد: «أنى أذكرك الله فى نفسك ، فإنى أشهد لئن قاتلت لتقتلن».

فقال الحسين: «أبالموت تخوفنى؟!».

ثم ظهر خمسة فـرسان أتوا للانضمام لجيش الحسين ، وبعـد جدل ، وافق الحر بن يزيد أن يدخلوا للحسين فى حصاره ، ولما وصل الحـسين نينوى ، وصل رسول عبيد الله بن زياد

للحر بن يزيد ولم يسلم على الحسين بن علي ، بينما سلم الحر رسالة من ابن زياد يأمره فيها بتضييق المكان على الحسين وجيشه وأهله (أقل من مائة بما فيهم النساء والأطفال). فلا يسمح لهم بالراحة إلا فى العراء ، وبمكان ليس فيه ماء. ما يُعتبر تحضيراً للإجهاز على فرع «الخلافة الهاشمى».

وفى الكوفة بدأ عبيد الله بن زياد ترتيباته لإرسال من يقتل الحسين ، فأتى بعمر ابن سعد بن أبى وقاص ووعده ولاية «الرى» إن ذهب وقتله ، فخرج عمر بن سعد ابن أبى وقاص تنفيذاً للمهمة ، وكان الحسين قد استقر بمكان اسمه «العقر» يوم الخميس الثانى من شهر المحرم سنة ٦١ هـ . وقتها وصل عمر بن سعد بن أبى وقاص ومعه أربعة آلاف مقاتل ، ولحق رسول من عبيد الله بن زياد يقول لعمر أن يعرض على الحسين مبايعة يزيد ابن معاوية خليفة المسلمين ، وأن يتعهد الحسين بألا يطلب الخلافة مرة أخرى ، وإذا رفض فليمنع فرسان عمر بن سعد بن أبى وقاص الماء عن الحسين وأهله حتى تصله رسالة أخرى.

ولما رفض الحسين أن يبايع يزيد ، نزل خمسمائة فارس من جيش عمر بن سعد بن أبى وقاص ، ووقفوا بين الحسين وبين بئر الماء ، ونادى أحدهم الحسين وأهله قائلاً: «يا حسين أما تنظر إلى الماء كأنه كبد السماء ، والله لا تذوق قطرة حتى تموت عطشاً».

ولم يجد الحسين بداً من التفاوض ، فتقابل مع عمر بن سعد بن أبى وقاص ليلاً وطلب منه أن يختار واحدا من ثلاثة اختيارات: فإما أن يتركوه يرجع للمدينة مع نسائه وأطفاله، وإما أن يتركوه يذهب للخليفة يزيد بن معاوية فيتحاوران ويتفقان على رأى ، وإما أن يختاروا له بلداً مسلماً يعيش فيه عيشة كريمة.

فبعث عمر بن سعد لعبيد الله بن زياد بالخيارات الثلاثة ، فكاد عبيد الله أن يبحث الأمر ، إلا أن أحدهم فى مجلسه (شمر بن ذى الجوشن) قال له: «أتقبل هذا منه وقد نزل بأرضك ، وإلى جنبك ، والله لئن رحل من بلادك ، ولم يضع يده فى يدك ليكونن أولى بالقوة والعزة ، ولتكونن أولى بالضعف والعجز ، فلا تعطه (بين الناس) هذه المنزلة».

فقال ابن زياد: «فماذا ترى؟!».

قال شمر: لينزل على حكمك وأصحابه ، فإن عاقبت كنت ولى العقوبة ، وإن عفوت كان ذلك لك».

وأراد أن يملأ صدره ضد عمر بن سعد بن أبى وقاص فقال: «والله لقد بلغنى أن الحسين وعمر يتسامران معظم الليل بين المعسكرين».

فقال عبيد الله بن زياد: «نعم ما رأيت ، اخرج بكتاب أكتبه إليك إلى عمر بن سعد ، فليعرض على الحسين وأصحابه النزول على حكمى ، فإن فعلوا فليبعث بهم إلى سلماً ، وإن أبوا فازحف إليهم حتى تقتلهم ، وتمثل بهم فهم لذلك مستحقون».

وقال: «فإن قتلت الحسين فأوطئ الخيل صدره ، وظهره ، فإنه عاق ، شاق ، قاطع ، ظلوم».

وفي يوم عاشوراء عبأ الحسين أصحابه (اثنان وثلاثون فارساً وأربعون رجلاً) ، ولما بدأت المعركة صاح الحسين فى الذين يقاتلونه: «أيها الناس ... انسبونى فانظروا من أنا ثم راجعوا أنفسكم فعاتبوها ، وانظروا هل يصلح ويحل لكم قتلى ، وانتهاك حرمتى. ألست ابن بنت نبيكم وابن وصيه وابن عمه وأول المؤمنين بالله والمصدق لرسوله؟! أوليس حمزة سيد الشهداء عم أبى؟! أو ليس جعفر الشهيد الطيار فى الجنة عمى؟! أو لم يبلغكم قول مستفيض أن رسول الله ﷺ قال لى ولأخى: أنتما سيدا شباب أهل الجنة ، وقرة عين أهل السنة؟! فأصدقونى بما أقول وهو الحق. فوالله ما تعمدت كذباً منذ علمت أن الله يمقت عليه. وإن كذبتمونى فإن فيكم ما إن سألتموه عن ذلك أخبركم ، سلوا جابر ابن عبد الله أو أبا سعيد أو سهل بن سعد أو زيد بن أرقم أو أنساً ، فهم يخبرونكم أنهم سمعوه من رسول الله ﷺ. أما فى ذلك حاجز يحجزكم عن سفك دمى؟!».

واستمر الحسين يستعطف المقاتلين ، فنادى بأسمائهم: «يا شبث بن ربعى ، ويا حجار ابن أبجر ، وياقيس بن الأشعث ، ويا زيد بن الحارث. ألم تكتبوا إلىّ فى القدوم عليكم؟ فصاحوا : «لم نفعل».

فقال الحسين : « بلى والله لقد فعلتم ».

ثم سكت وقال: أيها الناس إذا كرهتمونى فدعونى أنصرف إلى مأمن من الأرض.

لما وجد الحر بن يزيد أن الحسين ميت لا محالة ، وأنهم يرتبون لقتله بشتى الصور ، ذهب لعمر بن سعد وقال: أما لكم فى واحدة من الخصال التى عرضها عليكم رضا؟!».

فقال عمر بن سعد: «والله لو كان الأمر إلىّ لفعلت ، ولكن أميرك قد أبى ذلك» ، فتقدم الحر بن يزيد ونادى فى الناس: «يا أهل الكوفة ، لا حكم الهبل والثكل ، أدعوتموه

حتى إذا أتاكم أسلمتموه؟! وزعمتم أنكم تقتلون أنفسكم دونه ، ثم تعدون عليه الآن لتقتلوه؟! ومنعتموه ماء الفرات الجارى يشربه اليهودى والنصرانى والمجوسى ، وتتمرغ فيه خنازير الوادى وكلابه ، وهو وأهله قد صرعهم العطش ولا تسقونهم؟ بئسما خلفتم محمداً من ذريته. لا سقاكم الله يوم الظمأ». فلما سمع من يقاتلون الحسين ما قاله الحر بن يزيد ، خافوا أن يتحول الأمر ضدهم ، فرموا بالسهام. فهرب الحر ، ووقف أمام الحسين يدافع عنه ، فتقدم عمر بن سعد بن أبى وقاص وأخذ سهماً وصوبه تجاه الحسين وأهله وقال: «أيها الناس اشهدوا أنى أول من رمى».

فتقدم رجل من الجيش تجاه أهل الحسين ونادى: «أفيكم الحسين؟!» قالوا: «نعم» فقال: «يا حسين أبشر بالنار». وكان أول من قُتل على أكبر إبن الحسين ، ثم قُتل عبدالله بن مسلم ابن عقيل ، ثم عون بن عبدالله بن جعفر ، وعبدالرحمن بن عقيل بن أبى طالب ، وجعفر ابن عقيل ، ثم تقدم أحدهم فضرب القاسم بن الحسن بن على بن أبى طالب على رأسه بالسيف فسقط على وجهه وهو يصيح «وا عماه».

ثم خرج أحد أبناء الحسين الصغار إلى أبيه يطلب ماء. فحمله بين يديه ونادى فى الناس «أن اسقوا هذا الغلام الصغير». فرمى رجل من بنى أسد بسهم ، فأصاب عنق الصبى فمات. ثم أصيب أبوبكر بن الحسين بسهم آخر. ثم قُتل العباس بن على وجعفر وعثمان وعبد الله ومحمد. وفجأة خرج من خيمته طفل صغير من أهل الحسين فشاهد الرجال يفصلون رأس محمد بن على بن أبى طالب عن جسده ، فخاف وبكى ، فجاءه رجل على فرس فنزل وذبحه.

واتجه الحسين للماء يشرب بعدما اشتد به العطش والحزن ، فرماه الحصين بن نمير بسهم فى فمه ، فخلعه الحسين ورماه ونظر للسماء والدم يخرج من فمه.

وأحاط الجيش بخيام نساء الحسين ، فخرج إليهم صبى من أبناء أخيه منادياً فى أحدهم: «أتقتل عمى يا ابن الخبيثة؟!» فضربه الرجل بالسيف ، فقطعت الضربة يد الغلام وظلت معلقة ، وبينما الحسين يقاتل وحده ، وامتلأ جسده بالطعنات والدماء ، خرجت السيدة زينب ـ رضى الله عنها ـ تنظر إليه ، وتنظر لعمر بن سعد ابن أبى وقاص (سعد بن أبى وقاص هو أحد الستة أصحاب الشورى ، وأحد العشرة المبشرين بالجنة) ثم صرخت فيه : «يا عمر أيُقتل أبو عبد الله (تقصد الحسين ابن على) وأنت تنظر إليه؟!». فأدار عمر وجهه عنها ولم يرد ، وصرخ شمر بن ذى الجوشن: «ماذا تنتظرون؟! اقتلوه ثكلتكم

أمهاتكـم». فتحامل الحسين وقـام رغم جراحه ، فنادى ابـن ذى الجوشن: «اقتلوه ثكـلتكم أمهاتكـم» ، فتوجـه سنـان بن أنس النخعـى فطعنه فى صـدره ، ونـزل عن حصانـه وقطع رأسه ، ثم تقدم الـباقون ونزعوا عنه ثيابـه ، بينما دخل سنان بن أنـس حاملاً رأس الحسين علـى عمر بن سـعد بن أبى وقـاص ، الذى انتـدب عشرة رجال يـدوسون جسد الحسين بجيادهم كما أمر عبيد الله ابن زياد والى يزيد بن معاوية بن أبى سفيان على الكوفة.

ولما دخلت السيدة زينب بنـت فاطمة على عبـيد الله بن زياد أسيرة سـأل : من تكون؟ فقـالوا: «إنـها زيـنب» فـقال: «الحمـد لله الذى فـضحـكم وقتـلكـم وأكذب أحـدوثتـكم (مطالبتكم الخلافة وأحقيتكم فيها).

ونظر ابن زياد إلـى على أصغر ابنى الحسـين وكان طفلاً مريضاً فسـأله: «ماسمك؟!» قال: «على بـن الحسين» فدهش ابن زياد وقال: «أو لـم يقتل الله على ابن الحسـين؟!» فلم يرد الغلام ، فقـال له ابن زياد : «مالك لا تتكلـم؟!» فقال: «كان لى أخ يقال له عـلياً أيضاً فقتله الناس». فقال ابن زياد: «إن الله هو الذى قتله». فلم يرد الغلام فقال: «مالك لا ترد؟» فقال الـطفل: «الله يتوفـى الأنفس حين موتـها. وما كان لـنفس أن تموت إلا بإذن الله كـتاباً مؤجلا».

فقال ابن زياد: «أنت والله منهم» وقال لواحد من رجاله: «اقتله».

فقال الـطفل فى ثبـات: «إلى من توكل هذه الـنسوة؟! (يقصـد نساء الحسين وبـناته). فنهض الـرجل ليقتل الطـفل ، فهبت السيدة زيـنب وقالت: أسألك الله إن كنـت مؤمناً إن قتلته أن تقـتلنى معه». فقال الطفل: «ابعـث معهن رجلاً تقياً يصحبهـن إلى مأمن بعدى». فتـراجع ابـن زياد وأمر أن يـحبسـوا الجمـيع. وأخرج مـن يطوف بـرأس الحسـين شوارع الكوفة.

ولما وصل رأس الحسين لـيزيد بن معاوية ، أخذه يزيـد وعبث فى فمه وعينيـه بقضيب معدنى وقال:

أبى قومنا أن ينصفونا فأنصفت	قواضب فى أعياننا تقطر الدما
يفلقــن هـامـاً فى رجـال أعزة	علينا وهم كانوا أعـق وأظلما

ودخلت بنات الحسـين على يزيد بن معاوية ، فـسألت فاطمة بنت الحسـين وهى تبكى مع أختـها «سكينة»: أبـنات رسول الله سبايا يـا يزيد؟» فلم يـرد ثم تقدم رجل من فـاطمة قائلاً ليزيد: «هب لى هذه». فصاحت زينب : «كذبت ولؤمت ، ما ذلك لك ولا له».

فقال يزيد يعقب : «كذبت والله ، إن ذلك لى لو شئت ولو شئت أن أفعله لفعلته».

قالت السيدة زينب : «كلا والله ما جعل الله لك ذلك ، إلا أن تخرج من ملتنا وتدين بغير ديننا».

فشاط يزيد غضباً وقال: «أإياى تستقبلين بهذا ؟! إنما خرج من الدين أبوك وأخوك».

قالت زينب: «بدين الله ودين أبى وأخى وجدى اهتديت أنت وأبوك وجدك».

قال يزيد: «كذبت يا عدوة الله».

وأنهى هذا الحوار أكبر المعارك على خلافة المسلمين بين البيت الهاشمى (أبناء الحسين ابن على بن أبى طالب) وبين البيت الأموى (يزيد بن معاوية بن أبى سفيان الأموى).

وانتهى الأمر بأن تساق السيدة زينب وفاطمة وسكينة أحفاد الرسول سبايا.

❑

بعد مصرع الحسين ـ رضى الله عنه ـ دعا عبد الله بن الزبير بن العوام الناس إلى مبايعته خليفة للمسلمين ، فبايعه كثير من أهل تهامة والحجاز ، وظل خليفة للحجاز واليمن تسع سنين (طوال فترة ولاية يزيد بن معاوية ومعاوية بن يزيد ، ومروان بن الحكم ثم عبدالملك ابن مروان). وأخرج يزيد بن معاوية جيشاً لقتال عبدالله بن الزبير بقيادة «الحصين بن نمير» ، فلما وصل مكة وجد أن عبدالله بن الزبير قد تحصن بالكعبة هو وأفراد جيشه ، فحاصر «الحصين» مكة ... ولما طال الحصار ، خاف أن يرجع ليزيد فيقول له إنه لم يستطع أن يهزم جيش عبدالله بن الزبير، لذلك أمر فنصبوا المنجنيق ورموا الكعبة بكرات النار الحديدية ، فهدموها وأماتوا معظم عساكر جيش عبدالله بن الزبير(١١).

لكنهم لم يستطيعوا الإمساك بعبد الله نفسه ، الذى ظل يهدد الخلافة الأموية فترة طويلة فلما ولى عبدالملك بن مروان ابن الحكم ... اختار «الحجاج بن يوسف الثقفى» (وزير أبيه) قائداً لمحاربة عبدالله بن الزبير مرة أخرى ، فحاصر الحجاج بن يوسف «مكة» ، لكنه لم يستطع الدخول لقتال جيش عبدالله بن الزبير ، ولثانى مرة ، يضرب جيش الأمويين كعبة المسلمين بالمنجنيق ؛ بعدما كان عبدالله بن الزبير قد أعاد بناءها ... وفصل الحجاج رأس عبد الله بن الزبير عن جسده بعدما أمسكوا به ، وصلبوا جثته فى مكة أياماً طويلة ، حتى أن الخليفة عبدالملك بن مروان كتب للحجاج بن يوسف أن ينزلها ويدفنها(١٢) ، فأنزلها الحجاج ، ودفنها مع باقى الجثة فى مقابر اليهود.

وظل الصراع بين البيت الأموى ، والبيت الهاشمى قائماً، ففى سنة (١٢٢هـ) خرج زيد بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب لقتال الأمويين واسترجاع الخلافة ، لكنه أصيب بسهم فى رأسه ومات ، وبعدما دُفن سراً ، عثر واحد من أتباع الخليفة الأموى هشام بن عبدالملك على القبر ، فنبشه وقطع رأس الجثة ، وحملها للخليفة الذى صلبها على باب دمشق وصلب الجسد قرب مكان القبر، وظلت جثة حفيد النبى ﷺ مصلوبة حتى مات الخليفة هشام وتولى بعده الوليد ابن يزيد بن عبدالملك... فأنزلها وأمر بإحراقها.

وقبض الأمويون سنة ١٢٥هـ على يحيى بن زيد بن على زين العابدين بن الحسين بإيران التى هرب إليها بعد مقتل أبيه ، فتسلمه مجموعة من جند الخليفة الوليد بن يزيد وقتلوه ، وفصلوا رأسه عن جسمه وصلبوا جثته ، ولم تزل مصلوبة حتى ظهر أبو مسلم الخراسانى (حليف العباسيين)... فأنزلها وصلى عليها ودفنها.

❑

عام ٢٠هـ ... وقف عمر بن الخطاب خطيباً على منبر رسول الله ﷺ بالمدينة وتكلم عن الخلافة ووعد بأن يحقق العدل للرعية ، فوقف أحد الأعراب قائلاً: «والله لو وجدنا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا» فقال عمر بن الخطاب: «الحمد لله الذى جعل فى رعية عمر من يقومه بالسيف إذا أخطأ».

عام ٤٥هـ. وقف معاوية بن أبى سفيان يخطب فى الناس ويتكلم عن الخلافة ، فقام رجل من بين الناس وقال : «والله لتستقيمن بنا يا معاوية ... والله لنقومك».

فنظر معاوية للرجل فى غضب والشر يتطاير من عينيه وقال:بم؟! (بماذا ستقومونى؟) أو (كيف تقومونى)... فخاف الرجل ولجأ للضحك وقال: «بالخشب». فقال معاوية ـ بخبث ـ إن كان بالخشب إذن نستقيم (١٣).

أما عام ٧٥هـ. فقد صعد عبد الملك بن مروان الخليفة الأموى منبر الرسول ﷺ فى المدينة بعد أن قتل عبدالله بن الزبير بن العوام وقال: «والله لا يأمرنى أحد بتقوى الله بعد مقامى هذا إلا ضربت عنقه»(١٤). ثم نزل.

وهو يقصد أن من طلب منه تقوى الله. فإنه ـ بوصفه الخليفة ـ سيأمر بقطع رقبته.

سيرة عبد الملك قبل الخلافة مناقضة تماماً لسيرته بعدها ، فكان يوصف قبل الخلافة

بالفقه والتدين والصدق ، فيقول نافع: لقد رأيت المدينة وما بها شاب أشد تشميراً ولا أفقه ولا أنسك ولا أقرأ لكتاب الله من عبدالملك بن مروان. وقال أبوالزناد: فقهاء المدينة سعيد ابن المسيب وعبدالملك بن مروان وعروة بن الزبير وقبيصة بن ذؤيب. وقال عبادة بن نسى: قيل لابن عمر: إنكم معشر أشياخ قريش يوشك أن تنقرضوا ، فمن نسأل بعدكم (أو من الفقيه بعدكم) فقال: «إن لمروان ابناً فيها فاسألوه»(١٥).

كان عبدالملك رجل دين ، ثم تحول لأسد سياسى ، جاءه خبر وفاة أبوه وهو يقرأ المصحف ... فقفله بقوة وقال: «هذا آخر عهدى بك»(١٦).

وكان مروان بن الحكم (رابع خلفاء الأمويين) قد نصب ابنه عبدالملك بن مروان ولياً للعهد ، بعدما وعد قبلها أن يولى خالد بن زيد (ابن زوجته) ، فاستاءت زوجة مروان من زوجها وانتظرته حتى نام ، وقامت ووضعت على وجهه «ثوبا مسموما» ووضعت فوق الثوب «وسادة» وكتمت أنفاسه حتى مات.

وقد أوصى عبد الملك ابنه وولى عهده الوليد بن عبدالملك فقال له : «انظر الحجاج فأكرمه (يقصد الحجاج بن يوسف الثقفى) فإنه هو الذى وطأ لكم المنابر ، وهو سيفك ياوليد ويدك على من ناوأك ، فلا تسمعن فيه قول أحد ، وأنت أحوج إليه منه إليك ، وادع الناس إذا أنا مت للبيعة ، فمن قال برأسه هكذا ، فقل بسيفك هكذا». ثم قال: «إذا مت فشمر وائتزر. والبس جلد النمر ، وضع سيفك على عاتقك فمن أبدى ذات نفسه فاضرب عنقه ، ومن سكت مات بدائه».

ونفذ الوليد ما قاله أبوه ، وكان أسوأ أربعة خلفاء أمويين ، هم يزيد بن معاوية ويزيد ابن عبد الملك والوليد بن يزيد ، والوليد بن عبدالملك.

فقد هاجم جيش يزيد بن معاوية المدينة المنورة بعدما رفض أهلها خلافته ، ولما هزم أهلها فى موقعة الحرة ، أصدر أوامره باستباحة المدينة ومالها ونساءها ثلاثة أيام، وتذكر كتب التاريخ أن جيش يزيد قتل من المدينة أربعة آلاف وخمسمائة نفس ، وأنه فضت فيها بكارة ألف بكر بأمر من الخليفة الذى بعث برسالة لقائد جيشه مسلم بن عقبة يقول: «ادع القوم ثلاثاً ، فإن أجابوك وإلا فقاتلهم ، فإذا ظهرت عليهم فيها ... فأبحها ثلاثاً ، فكل ما فيها من مال أو دابة أو سلاح أو طعام فهو للجند ، فإذا مضت الثلاث فاكفف عن الناس»(١٧).

وطلب يزيد من قائد جيشه أن يبايع أهل المدينة على أنهم «عبيد». يفعل بهم وفيهم الخليفة وفى أولادهم وأبنائهم وأموالهم ما يشاء ، ولما جمع مسلم بن عقبة أهل المدينة وتلا ما قاله الخليفة ، رفض كثيرون شروط يزيد ، وظهر رجل من الأشراف يرد : «بل أبايع على كتاب الله وسنة رسوله» فقطع جيش يزيد رأسه حتى يبايع الباقون على ما يريده الخليفة، الذى وقف يقول شعراً بقصره بالشام عندما وصله الخبر:

ليت أشياخى ببدر شهدوا ... جزع الخزرج من وقع الأسل

حين حكت بقباء بركها ... واستمر القتل فى عبد الأشهل(١٨)

ففى البيت الأول يتمنى يزيد أن أجداده من بنى أمية الذين ماتوا فى موقعة بدر لو أنهم شهدوا كيف خاف الخزرج (أهل المدينة) من الرماح والسيوف ، أما من هم أجداده؟! فهم أعداء الخزرج فى موقعة بدر ، والخزرج أكبر قبائل الأنصار ببدر ضمن جيوش المسلمين ، والمعنى أن يزيد (خليفة المسلمين) و(أمير المؤمنين) يتمنى لو كان أجداده من بنى أمية ممن هزمهم الرسول ﷺ والمهاجرون والأنصار فى بدر ، يتمنى لو كانوا على قيد الحياة ، حتى يشاهدوا كيف انتقم لهم من الأنصار فى المدينة.

مرة أخرى ، يزيد بن معاوية هو الذى قال عندما وصلته رأس الحسين من كربلاء مقطوعة:

لعبت هاشم بالملك فلا ... ملك جاء ولا وحى نزل

لكن يظل بعض فقهاء المسلمين متمسكين بما يُعتقد أنه حديث نبوى : «أول جيش يغزو مدينة قيصر مغفور لهم». وكان يزيد أول خليفة يغزو القسطنطينية سنة ٤١هـ ، وكان الخليفة يزيد بن عبدالملك. هو الذى أتى بأربعين شيخاً مسلمين فى بداية ولايته فشهدوا له أنه ما على الخليفة حساب أو عذاب(١٩).

ولما ضاق بنو أمية بالخليفة العادل عمر بن عبدالعزيز ، تحالفوا ضده ، ودفعوا مالا لعبده الأسود ليضع له السُم فى الشراب ومات مسموماً ، ودخل يزيد بن الوليد بن عبدالملك على ابن عمه الخليفة الوليد بن يزيد لما بويع بالخلافة فقتله ، وقطع رأسه وطاف بها فى دمشق ثم مثل بجثته.

وفى عهد يزيد بن الوليد بن عبد الملك اضطربت الأمور ، فتمرد عليه أهل مدينة حمص ، وقتل أهل فلسطين أمراءهم حكام الخليفة الرسميين ، وأخرجوا سليمان بن

هشام بن عبدالملك الذى كان قد سجنه الخليفة فى سجنه بعمان... فأخذ كل ما كان بالمدينة من أموال وذهب إلى دمشق يثير أهلها ويحفزهم على الخليفة.

وعندما مات يزيد بن الوليد، ولى الخلافة أخوه إبراهيم بن الوليد، فامتنع الناس عن مبايعته فترة، ثم رضوا به بعد ذلك على ألا يلقب بأمير المؤمنين... ثم رفضوه أميراً أو خليفة آخر الأمر.

وفى عهد إبراهيم بن الوليد حرّض على نبش قبر يزيد بن الوليد، وصلب جثته، ثم جاء مروان بن محمد والى إبراهيم بن الوليد على أرمنيا والموصل وأذربيجان وقتل الخليفة وصلب جثته... وظل مروان بن محمد خليفة حتى انتصر عليه الجيش العباسى، فقتلوه فى مصر، وقطعوا رأسه وأرسلوه إلى أبى العباس السفاح، فسجد على الأرض أول ما رأى رأس مروان مقطوعة.

❑

زادت أموال الأمراء الأمويين وثرواتهم، وتحول الحكم لجاه وسلطان، فحوت الدولة (الخلافة الإسلامية) الأموية كثيراً من المتناقضات... الفقه والترف، السلطة والفتن... الجد والعبث.

وفى العهد الأموى ظهرت مفاسد، أكثر من أى مفاسد أخرى فى أى عصر، فقد انتشر شرب الخمر، والتخنث واللواط، وامتلأت مكة والمدينة بالمغنين والماجنات، واجتمع فى زمن واحد من مشهورى الغناء كل من «جميلة» و«هيت» و«طويس» و«الدلال» و«برد الفؤاد» و«نومة الضحى» و«رمحة»، و«سعد بن مسجع» و«ابن حجر» ـ الشواذ جنسياً ـ وبالخصوص «سعد بن مسجع» الذى أفسد الفتيان الأمويين، وجعلهم ينفقون عليه المال.

وشُهر الفسق والفجور على بعض الخلفاء الأمويين أنفسهم، فقد عرف عن الخليفة يزيد بن معاوية أنه كان يشرب الخمر بشراهة... ويجاهر بعدم اعترافه بالدين، وعندما ولى الخلافة يزيد بن عبدالملك بن مروان. وقالوا له أنه لا حساب ولا عقاب للخلفاء يوم القيامة، أخذ جارية له اسمها «حبابة» بعيداً عن الناس فترة طويلة، ولما ماتت من حبة عنب وقفت فى حلقها... ذهب عقله ومات بعد أسبوعين حزناً عليها. ويحكى أنه أخرجها من قبرها بعد دفنها... وراح يقبلها ويضاجعها... ثم أبعدوه عنها بالقوة. ودفنوها... إلا أنه أخرجها مرة أخرى، حتى أبعدوه من جديد(٢٠).

فقد كانت حبابة غاية فى الجمال ، اشتراها فى زمن أخيه بأربعة آلاف دينار ، فهم أخوه أن يحجر عليه ، فباعها ... ولما تولى الخلافة سألته امرأته هل يشتهى أمراً آخر فى هذه الدنيا بعد الخلافة ... قال: «حبابة». فبعثت زوجته واشترتها وألبستها ثيابا جديدة وأخفتها وراء ستارة ... وفاجأت بها زوجها الذى أخلى قصره للاستمتاع «بحبابة» التى عشقها عشقاً شديداً بعد «سلاّمة» الجارية الهندية.

ولسطوة يزيد وجبروته ، لم يخرج فقيه واحد فى عصره لينهاه ، رغم أن عصره كان زاخراً بالفقهاء ورجال الحديث المشهورين كالحسن البصرى ، وعمر بن عبيد وواصل بن عطاء ، وشهر عن يزيد بن عبدالملك أنه أكثر خليفة إسلامى حباً فى النساء ، بعد الخليفة العباسى «المتوكل» الذى مات وله أربعة آلاف جارية ... دخل بهن جميعاً[٢١].

ولما جاء الخليفة الأموى الوليد الثانى ، لم يخفِ أنه لا يؤمن بالإسلام ، وشهر عنه اللواط. وحدث أنه فتح المصحف ذات يوم فوقعت عيناه على الآية الكريمة: ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (١٥) مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ﴾ فأمر أن يعلقوا المصحف على وتد ، وضربه بالسهام»[٢٢].

وقال له: لو قابلت ربك ذات يوم قل له مزقنى الوليد. ثم أنشد شعراً:

أ أتتوعد كل جبار عنيد ؟	فها أنا ذاك جبار عنيد؟
إذا ما جئت ربك يوم حشر	فقل يا رب مزقنى الوليد[٢٣]

وحدث أن واقع الوليد جارية له وهو سكران ، ودخل عليه حاجبه ينبهه لميعاد الصلاة ، فحلف ألا يصلى بالناس إلا جاريته ، فلبست ثيابه وتلثمت وصلت بالمسلمين وهى سكرانة ، ولم تجهر بالقراءة حتى لا ينكشف أمرها ... رغم أنها كانت صلاة العشاء[٢٥].

الطريف أن هناك من دافع عن الخليفة الوليد ، فيقول الذهبى: «لم يصح عنه كفر ولا زندقة ، فقط اشتهر بالخمر والتلوط (!!). فخرجوا عليه لذلك». كما لو كان التلوط خطأ مغفوراً ، يخرج الرجل عن الزندقة والكفر ، وكما لو كان الخليفة الوليد مظلوماً ، إذ أن الرعية كرهوه لأخطاء صغيرة كاللواط وشرب الخمر. ومن غرائب الأمور أنهم لما ذكروا أعمال الوليد مرة عند الخليفه المهدى فقال رجل «كان زنديقاً». فقال المهدى: مه ، خلافة الله عنده أجل من أن يجعلها فى زنديق»[٢٦].

وقول المهدى « إن الله لا يعطى خلافته لزنديق». يشير إلى المفهوم الراسخ وقتها من أن الخليفة مرسل من الله ... وهو رجل الله وليس رجل سياسة.

وراود الوليد أخاه عن نفسه ، وغلبت عليه فكرة حاول معها نصب قبة فوق الكعبة المشرفة ليشرب فيها الخمر مع أصدقائه وقت الحج ، لكن حاشيته نجحت فى إقناعه أن يعدل عن هذا (٢٧).

وفى عهد سليمان بن عبدالملك كثر المخنثون فى المدينة المنورة ، فأرسل سليمان إلى والى المدينة يقول له: «أحصى المخنثين عندك». ومن الحبر وقعت نقطة على «أحصى» فأصبحت أخصى المخنثين عندك... فقام الوالى بإخصاء كل المخنثين.

والخليفة عبدالملك بن مروان بنى قبة الصخرة ببيت المقدس ودعا الناس لزيارتها بدلاً من زيارة الكعبة فى مكة ، لأنه خاف أن يقابلهم هناك عبد الله بن الزبير بن العوام ، الذى يطالب بالخلافة ، فيفتن الناس... وربما يبايعونه خليفة ، وظل المسلمون يقفون يوم عرفة بقبة الصخرة كما أمر عبدالملك ، إلى أن قتل عبدالله بن الزبير(٢٨).

❑

شعر أبو مسلم الخراسانى (الإيرانى) أن المناخ الأموى صار منحطا ، وأن العباسيين الذين يطالبون بالخلافة قد يخلصون المسلمين والإيرانيين والبلاد المفتوحة من الوباء الأموى ، وكان أن سرت الدعوة للخلافة العباسية بشدة فى كل البلاد المفتوحة ، على أساس أن العباسيين أكثر سماحة ، وأكثر إيماناً... فهم أبناء عم النبى ﷺ... وهم أهله وعشيرته ، واعتقد الفرس بدورهم أنهم لو انتصروا على الأمويين لصالح العباسيين ، فإن بنى العباس سوف يحفظون الجميل ، وربما يطلقون أيديهم ـ أيدى الفرس ـ فيحكمون بلادهم بأنفسهم وفق ما يرونه من تقاليد وعادات وتراث.

لكن لما نجح العباسيون فى سحق الأمويين ، وقف أول خلفاء بنى العباس على المنبر وأمر بنبش قبور الخلفاء الأمويين ، وبدأ بقبر معاوية بن أبى سفيان. فلم يجدوا فيه شيئاً ، ثم نبشوا قبر يزيد بن معاوية فوجدوا فيه عظاماً ، ثم نبشوا قبر عبدالملك بن مروان فوجدوا جمجمته... لكنهم وجدوا جثة هشام بن عبدالملك كاملة تقريباً... فضربوها بالكرابيج ثم أحرقوها ورموا رمادها فى الهواء.

ثم تحول العباسيون ناحية أبى مسلم الخراسانى فقتلوه ، رغم أنه صاحب الفضل الأول عليهم وعلى دولتهم... وقد دخل ولى عهد الخليفة المنصور «عيسى بن موسى» فوجد أبا مسلم قتيلاً ، فانزعج ونظر للخليفة المنصور وقال: «قتلته»!».

قال المنصور: «نعم».

ـ إنا لله وإنا إليه راجعون. بعد بلائه وأمانته (بعد كل ما فعل؟).

قال المنصور: «خلع الله قلبك. والله ليس لك على وجه الأرض عدو أعدى منه، وهل كان لكم (بنى العباس) مُلك فى حياته؟!

ووقف الخليفة المنصور يخطب بالمدينة المنورة فقال إنه سلطان الله فى أرضه، وهو ظل الله الممدود بينه وبين خلقه، اعتمادا على نسبه، فهو ابن عم رسول الله ﷺ. وهو نفس السبب الذى دعا العلويين (شيعة على) المنادين أيضا بالخلافة لقربهم لرسول الله، وانحدارهم من نسل على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ وزوجته فاطمة إلى مناهضة وتحريض المسلمين على رفض خلافة الخليفة المنصور.

فإذا كان النسب هو الفيصل... فهم نسل النبى ﷺ الحقيقى، وليسوا فقط أقرباءه ﷺ.

ودار حوار بين الخليفة العباسى المنصور من جهة... وبين محمد العلوى (حفيد على ابن أبى طالب) المشهور بالنفس الزكية، يؤكد أن الأمر لا يخلو من كونه حكما وسيطرة ورغبة فى النفوذ، دون أن يكون عدلا وإقامة للدين وتحسين أحوال المسلمين.

فعندما عرض المنصور الأمان على محمد العلوى على ألا يطالب العلويون بالخلافة، رد محمد العلوى قائلاً: «أى أمان تعطينى؟! أمان ابن هبيرة؟! أم أمان عمك عبدالله بن على؟! أم أمان أبى مسلم؟!»، وكان هؤلاء كلهم قد أعطاهم المنصور الأمان ثم قتلهم.

فيرد المنصور على محمد العلوى: «إنما الأمان الذى أخذه الحسن بن على بن أبى طالب من معاوية بن أبى سفيان لما باعه الخلافة بحزمة دراهم ولحق بالحجاز وأسلم شيعته ليد معاوية، ودفع الأمر إلى غير أهله»(٢٩).

كان المنصور يشير إلى مايحُكى أنه حدث بين الحسن بن على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ عندما خرج مطالباً بالخلافة وبين معاوية بن أبى سفيان، فقد أرسل الحسن بن على بن أبى طالب خطاباً لمعاوية يصالحه على شروط مالية، وعلى أن يبقى معاوية خليفة، بعدما يحصل الحسن على ما يتفقان عليه من مال، بينما كان معاوية قد أرسل فى نفس الوقت للحسن صحيفة بيضاء وختم تحتها وترك للحسن أن يشترط فيها ما يشاء ليترك لمعاوية الخلافة.

ووصلت الرسالتان لكل منهما فى وقت واحد، فكتب الحسن فى صفحة معاوية

البيضاء أضعاف ما كتبه فى رسالته ، بينما تمسك معاوية بما كتبه الحسن ، ولما تقابلا ليحسما الخلاف تصالحا على خمسة ملايين دينار.. هى كل أموال بيت مال الكوفة[٣٠]. إلا أن معاوية عاد وخطط لقتل الحسن حتى نجح فعلا بعدما رشح ابنه يزيد بن معاوية للخلافة .. وخاف أن يناطحه الحسن ، ولما سمع عبدالله بن عباس ، أرسل لمعاوية يطلب منه مثل الذى حصل عليه الحسن ، فأعطاه معاوية ما طلب[٣١].

وبعد فترة هاجم جيش الخليفة المنصور محمد العلوى (النفس الزكية) بالمدينة المنورة وقتله ، ثم هاجم أخاه إبراهيم العلوى فى البصرة وقتله أيضاً ، وجلس المنصور يأكل بعد ما صنع له طباخه «عجّة» بسكر ، فأعجبته فقال: «أراد إبراهيم وأخوه أن يحرمانى هذا وأشباهه»[٣٢].

الطرفان كانا يدافعان عن «النسب».. أو يدافع أحدهما عن النسب بينما الآخر عن «العجّة». وكان المسلمون فى الجيشين يعتقدون أنهم هم الأحق ، لأنهم يدافعون عن صحيح الإسلام ، ولأن القرآن حمال أوجه على حد قول على بن أبى طالب ، فقد قرأ الخليفة المنصور عندما وصله خبر مقتل إبراهيم العلوى ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾[٣٣]. لاحظ أن المنصور كان يتكلم عن حفيد على بن أبى طالب... حفيد رسول الله ﷺ.

واستعلى العباسيون على الفرس... وعلى كل المسلمين وغير المسلمين من مواطنى البلاد المفتوحة ، واكتشف الفرس بالذات أنهم ضحية خديعة عباسية كبرى ، خصوصاً أن النظرية العباسية الجديدة تتبنى نغمة الاستعلاء الدائم ، لأن الإسلام نزل على العرب أولاً ، ونزل القرآن بلغة عربية ثانياً ، وأنه نزل على محمد بن عبدالله الهاشمى ثالثاً ، مما يعنى أنهم ـ العباسيين ـ هم الورثة الشرعيون الحقيقيون ، ومما يعنى أيضاً أنهم وحدهم حماة الدين ، وهم وحدهم هداة الشعوب الضالة. والفرس شعوباً ضالة

فعاد الأمر إلى ما كان عليه ، وفعل العباسيون ما أُخِذ على الأمويين بعدما أتلفهم الإحساس بالسيادة والعظمة. وبدأت الدولة العباسية على نفس مفاهيم الدولة الأموية ، المفاهيم التى تفصل بين العنصر العربى من جانب ، والعنصر «الأجنبى» من جانب آخر.. ووجد الفرس أنهم يدخلون تحت باب «الأجانب» أو «العجم» أو «الموالى».

واتصف العباسيون بالعنصرية الشديدة واضطهاد «العجم» بأكثر من شكل ، وكان لابد مع الاعتزاز المبالغ فيه من العنصر العربى ، ولجوء بعض العجم إلى نسبة أصولهم للجنس العربى حتى يُحسن معاملتهم ، أن يحدث من جانب آخر رد فعل مبالغ فيه من العنصر العجمى.

فالغرور العباسى قد بلغ مداه ، نفس الغرور الذى جعل من الحجاج بن يوسف الثقفى قائد جيش عبدالملك بن مروان الأموى ، والذى ضرب الكعبة الشريفة ، بالمنجنيق وهدمها أن يغيّر فى المصحف أحد عشر حرفاً (٣٤). فبدأ بـ[سورة البقرة/ ٢٥٩] ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ وانظُرْ﴾ فجعلها «لم ينسه». و﴿شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [سورة المائدة / ٤٨] جعلها «شريعة ومنهاجاً». و﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ﴾ [سورة يونس/ ٢٢] فجعلها «ينشركم». و﴿أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ [سورة يوسف/ ٤٥] جعلها «أنا آتيكم بتأويله». و﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [سورة المؤمنون/ ٨٥] جعلها «سيقولون الله لله». و﴿مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ [سورة الشعراء/ ١١٦] جعلها «من المخرجين». و﴿مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ [سورة الشعراء/ ١٦٧] جعلها «المرجومين». وغيّر ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ﴾ [سورة الزخرف/ ٣٢] فجعلها «نحن قسمنا بينهم معايشهم». وغيّر ﴿مِن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ [سورة محمد / ١٥] فجعلها «من ماء غير ياسن». وجعل ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا﴾ [سورة الحديد/ ٧] جعلها «فالذين آمنوا منكم واتقوا». وغيّر ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ [سورة التكوير/ ٢٤] ، فجعلها «وما هو على الغيب بظنين».

السيف وتسييس الدين

أطلق العرب على الذين أسلموا من أبناء البلاد المفتوحة اسم «الموالى» ، أما الذين لم يسلموا من النصارى واليهود فهم الذميون أو أهل الذمة ، والدولة العباسية هى التى ثبتت مفهوم الموالى العنصرى فى فكر الخلافة فقد أرغمت العنصرية العباسية الولاة المسلمين فى البلاد المفتوحة على تفضيل المسلمين العرب على المسلمين من المواطنين الأصليين ، وهو أحد أهم أسباب اصطدام ثقافة المسلمين بثقافات البلاد المفتوحة ، وتنمية شعور «الموالى» بأن المسألة لم تعد دينا بقدر ما أصبحت صراع إرادات لابد أن تتغلب إحداها على الأخرى.

ومفهوم «الموالى» أو التفرقة بين العربى وغير العربى ليس إسلامياً ، فالإسلام قام على أساس أنه لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى ، ولما اقترب عمر بن الخطاب من الموت قال: «لو كان سالم مولى أبى حذيفة حياً لاستخلفته». وسالم مولى أبى حذيفة أحد المسلمين الأوائل الذين آمنوا بالنبى ﷺ فى بداية الدعوة ، وكان خادماً لأبى حذيفة بن عتبة ابن أبى ربيعة ... وهو فارسيا من أهل اصطخر ، وبمكانته من النبى ﷺ رفعه المسلمون لمصاف كبار الصحابة ، وأعتقته سيدته «ثبتية الأنصارية» زوجة أبى حذيفة ، فتبناه أبو حذيفة نفسه ، وبالتالى نسبه المهاجرون إليه افتخاراً به وبقربه من الرسول ﷺ وحاولت قبيلة بنى عبيد من يثرب نسبته إليهم أكثر من مرة ، فى حين ينسبه الفرس لهم على أساس ميلاده ونشأته ، ورغم أن سالم من «الموالى».. اعتبره القراء (قراء القرآن) منهم لقول رسول الله ﷺ خذوا القرآن من أربعة ، وذكره منهم(٣٥).

ورغم عدم تفرقة الإسلام بين «عبد» و«حر» ... وبين «مولى» و«عربى». حاول العباسيون طمس هوية الموالى فى البلاد المفتوحة ، لذلك حرص الكثير من «الموالى» (خصوصاً أهل بلاد فارس) على التميز ... وكانت أفضل طريقة للتميز «اختراع المذاهب».

وانفجرت الأرض فى دار الإسلام بالعديد من «المذاهب الدينية» والحركات الإلحادية ، فقد سلب العرب «الموالى» أى تقدير أدبى ، فيما كان «الموالى» يبحثون إضافة للمادة عن المعنويات ، وتطلعوا لممارسة الحضارة من لغة وأدب وثقافة ، فى الوقت الذى رأى فيه المسلمون ، خصوصاً العباسيين أن الثقافة والقومية .. عربية.

ولما قتل العباسيون أبا مسلم كانت الصدمة الكبرى ، التى لم تنتبه لها دار الخلافة ، فقد كان العباسيون مشغولين برواية القصص التى تثبت أن العلويين (شيعة على بن أبى طالب) لا عهد لهم ولا دين ، وانشغلوا فى الوقت نفسه بتكذيب القصص التى يرويها الشيعة ليثبتوا أن العباسيين أحط أنواع الكائنات على الأرض.

ولما تصاعد الوضع بدأ العباسيون فى التفاخر بالنسب والأجداد ، تماماً مثلما فعل الأمويون من قبل ، ومع التفاخر ، دخلوا الغيبوبة ، فأصبحت «الخلاعة» و«اللهو» سمة أساسية من سمات الخلفاء العباسيين وأولادهم ، وإخوتهم وأولاد أولادهم. وشهر عن قصور الخلفاء المهدى والرشيد والأمين أنها حانات للشرب والدعارة والشذوذ الجنسى ، وتحولت بغداد إلى «حانة كبيرة» ، وأباح العراقيون شرب النبيذ بعد أن أحله بعض فقهاء

الخليفة الأمين . وانتشر القول أن بغداد ضيقة علـى المتقين ، لا ينبغى لمؤمن أن يعيش فيها ، وشهـر أن للخلـيفة ألـفين من الجوارى ، وكـان للمتـوكل ما زاد عـن ضعف هذا الـعدد ، وفضل الخلفاء ممارسة الجنس مع الجوارى عن الحـرائر ، وأذن الخليفة المهدى بشرب الخمر فى حضرته ، ولما علم أن هناك من يشرب فى داره أمر بجلده إقامة للحد(٣٦).

وشهر عن الخليفة المتوكل أنه ـ أكثر من أى خليفة آخر ـ يحب الخمر والدعارة ، لذلك استقر لفترات طويلة بمدينة اسمها «الماخورة» للعربدة.

وصار «اللواط» مألوفاً لدى الخلفاء العباسيين ، واعتبره رؤساء الجند «مودة» يتفاخرون بها ، فشهر الشذوذ عن الخليفة الأمين والخليفـة الواثق ، كما شُهر أيضاً عن القاضى يحيى ابن أكثم والقاضى إبراهيم النظام(٣٧).

واشترى الخـليفة الأمين «الخـصيان» من الـعبيد لأنه ولـع بهم وأحبهـم لنفسـه ، لذلك نشأت حركة تجارة نشطة تتاجر بالعبيد الـتى يحبها الخليفة ، والذى يرفض النساء ... سواء جوارى أو حرائر ، ولما اشتهر الأمر عن «الأمين» ، حاولت أمه زبيدة أن تكرهّه فى الرجال وتحببه فى الـنساء ، فألبست بعـضهن ثياب الرجال وأدخلـتهن على ابنها ، لـكنه رفض ... وعاد للرجال(٣٨).

لذلك أنشـأت ديوانا عاما أسمتـه ديوان الغلاميات ، وهن الـنساء اللاتى يلبسـن ثياب الرجال ... إلا أن الأمين اعتـرض ... وأصر على رفضهن . (وفى نفس الـعصر «الموبوء». تغزّل الشاعر «أبو نواس» فى الخليفة الأمين واشتـهاه، وعُرف عن الخليفة حبه لشاب اسمه «كوثر» ... أما الخليفة الواثق فقد عشق شابا اسمه «مُهج»(٣٩).

ولم يطبق الخـلفاء العباسيون عقوبـة الكفر والإلحاد إلا على المضادين لـهم فى المذهب السياسى ، أو حين يكون هناك ـ فقط ـ تهديد للخلافة ولدعائم حكمها.

ولأن الدولة الـعباسية قـامت على أساس ـ كـما يقال دينـى ـ وهى ـ أيضاً ـ كمـا يقال تحكم باسم الله ، والخليفة ـ كما يقال مرة أخـرى ـ مختار من الله ، فإن معارضتها يجب أن تكـون عـلى أسـاس هو الآخر ديـنى ، لهذا شـكّل الشـيعة المعـارضة الأساسـية للخـلافة العباسـية ، وظهرت حركة «الحشاشـين» الشيعية التـى مارست الاغتيالات السيـاسية تحت عباءة الدين هى الأخرى ، فالـدولة التى تحكم باسـم الديـن ، يرد علـيها بالدين ، وكان رد الشيعة على العباسـيين بالمذاهب الدينية المتطرفة منطقياً فى الـوقت الذى يمارس فيه الخليفة سلطاته باسـم الديـن من جانب ، وتتفاعل فيه المعارضة باسم الـدين أيضاً من جانب آخر .

وكان لابد أن يظهر من يرفض الدين من الأساس أو أن يسعى لدين يلزم الخليفة كما يلزم الرعية ، وأن يكون رجاله ـ رجال الدين ـ مثار احترام الكل ... خصوصاً الخليفة ، إذ أن العباسيين لم يحترموا أبداً رجال الدين الإسلامى ، فبعد بناء مدينة بغداد ، استدعى الخليفة المنصور الإمام والفقيه أبا حنيفة النعمان ليعرض عليه القضاء ، وفى ظل ثقة أبى حنيفة فى ما وصلت إليه الأمور السياسية من انحطاط ، وفى ظل ما يمارسه الخليفة ووزراؤه وأبناؤه وأقرباؤه من تدخل فى كل الأمور حتى الدينية والقضائية بما لا تستقيم معه الأحوال ؛ رفض أبو حنيفة القضاء ، فأمر المنصور أن يضربوه بالسياط على ظهره(٤٠).

ولنفس الأسباب تجنب الإمام مالك بن أنس السياسة رفضاً للإهانة ، فوشى به مجموعة من الساسة الحاقدين مؤكدين للخليفة أنه أفتى بأنه لا تجوز البيعة تحت التهديد ، وقالوا أنه تلميح إلى أن كل من بايعوا العباسيين خوفاً من السلاح تعتبر بيعتهم لاغية أو كأن لم تكن ، فأمر الخليفة (المختار من الله) فجاءوا بالإمام مالك ، وجردوه من ثيابه وضربوه بالكرابيج وشدوا يديه حتى خلعوا كتفه.

❑

بدأ الإلحاد فى الإسلام متأثراً بعوامل «فكرية» ناتجة عن الصراع العقلى الرهيب الذى حدث بداية من الفتنة الكبرى ، مروراً بمقتل الحسن بن على ـ رضى الله عنه ـ ثم انتهاء بالخلافة الأموية ، ثم انتزاع العباسيين الحكم منهم ، وظهر العديد من الفرق الملحدة ، منهم من ألحد تعصباً لقوميته ولدين آبائه من «المجوس» و«المانوية» مثل بشار ابن برد ومنهم من ألحد تحرراً من تكاليف الدين ، ورفضاً لتبديل نظام متوارث قبل دخول الإسلام البلاد المفتوحة.

وكانت «النبوة» الهدف الذى رمى الملحدون سهامهم عليه ، وعلى مر العصور الإسلامية المختلفة ظهرت «خرافات» مختلفة نُسجت حول شخصية «النبى ﷺ» وحول قصة حياته ، ربما فرض هذه الخرافات تراث الشعوب المختلفة التى دخلت الإسلام ، وربما فرضها رغبة فى رفع مكان ومكانة النبى ﷺ وتمييزه ، وربما كان الحب الشديد لشخصه ﷺ لكنها على كل الأحوال كانت عدم فهم حقيقى لما يمكن أن تدخله وتعمله هذه «الخرافات» فى الدين الإسلامى على مر التاريخ.

كان النبى ﷺ صاحب الرسالة والنبوة ، وكان هدم النبوة أساس لما ترتب عليها من عقيدة إسلامية ولذلك عهد الملحدون الأولون إلى النيل من النبوة ، وانتشرت أسماء كثيرة

من مشاهير الملحدين ... «بشار بن برد» و«أبا النصيبى» و«ابن الباقلانى» و«ابن الراوندى» و«جابر بن حيان». وانضم لهذه التيارات الإلحادية تيارات المذاهب «السرية» الشيعية المتأثرة بالديانات الأسطورية والمجوسية والعراقية القديمة كلها حاولت أن تنال من النبوة.

وربما كان أبوبكر الرازى من أشهر الملحدين فى هذه الفترة ، وظهر فى كتبه أن النبوة هى شغله الشاغل ، حتى انتهى إلى رفضها ، وإقامة الدلائل العقلية على عدم وجودها من الأساس ، مع أنه لم يلغ وجود الله ، فقد رأى الرازى أن الله(٤٢)(أو الخالق أياً كان اسمه حسب الثقافات المختلفة) أعطانا العقل وفضّلنا به على الحيوان ، وبالعقل عرفنا ما ينفع وما يضر ، وبذلك أصبح التفكير العقلى أفضل نعم الله علينا ، لأننا أدركنا به الأمور الغامضة ، وارتقينا لمعرفة الخالق عز وجل ، فإذا كان العقل جبارا وقادرا وأعطانا كل هذه المعارف ، فلا يجب أن نُنزله عن هذه المكانة وألا نخفض من رتبته ، ولا نجعله ـ وهو الحاكم ـ محكوماً عليه ، ولا وهو «المتبوع» تابعاً. إنما يجب أن نرجع إليه فى كافة الأمور ، وضرورى أن نعتمد عليه كل الاعتماد.

والنبوة لا تقوم بأكثر من أنها تعرفنا خالق الكون ، وخالق الإنسان ، لهذا فإننا نحط من قدر عقولنا حين نخضعها إلى سلطة دينية ، خارجة عنها مثل النبوة.

وبعدما أنكر الرازى النبوة ، راح يشرح ما وراء فكره من آراء. فتساءل وكأنه يسأل العرب. من أين جاء إيمانكم بأن الله قد اختص العرب بالنبوة دون آخرين؟! ولماذا فضلكم بالذات؟! ولماذا جعل العرب مُعلمين لبقية خلق الله ، مع أنهم أحوج الناس للتعلم؟! (لاحظ اعتزازه بحضارته الفارسية). واعتبر أن تفضيل العرب بالذات عن أى شعب آخر أوجد العداوات بينهم وبين «الموالى»... وكل مواطنى البلاد الأجنبية المفتوحة ، فكثرت الفتن وكثرت الحروب ، وكثرت المؤامرات أيضاً.

ووصل الرازى إلى أن تفضيل العرب سببا رئيسيا فى حروب وقتال حدث بين الدين الإسلامى والعقائد الأخرى ، إضافة للقتال بين أتباع الدين الإسلامى نفسه بمذاهبهم المختلفة (٤٤).

الحكمة الإلهية ـ فى مفهوم أبى بكر الرازى ـ أن يتساوى الناس فى استعدادهم لإدراك الخير والشر. وكان لا يجب أن يجعل الخالق بينهم أى «ثغرات» لقتال بعضهم البعض ـ كثغرة تفضيل العرب على العجم مثلاً فى النبوة ـ لأن تفضيل البعض على البعض الآخر ، كما أنه شرارة الحرب الأولى ، فهو نقطة إنطلاق أتباع كل زعيم لقتال الآخرين ، إذ أن

القتال ضرورى بين الأتباع فيما اختلف فيه الزعماء . وعلوم الاستراتيچيات تؤكد أن اختلاف الإرادات والآراء أساس نشوب الحروب ، بحيث تهدف كل جماعة إما إلى سحق الجماعة الأخرى أو كسر إرادتها.

ثم ركز الرازى على التناقض بين العقائد.

المسيحيون زعموا أن المسيح ابن الله ، بينما ادعى اليهود كذبه فصلبوه. فيما أكد المسلمون أنه لم يصلب. وأكد كل كتاب «سماوى» كل رأى على حدة. ويعتبر هذا التناقض بين الديانات دليلاً على بطلان النبوة. فالنبوة تقوم على الإلهام والوحى من الله ، ومادام المصدر واحدا ، فالواجب أن يكون قوله الصادر عنه واحدا أيضاً ، فإذا ظهر اضطراب وتناقض بين الأنبياء ، فليس أمامنا إلا أن ننسب هذا التناقض والاضطراب لله.

والتناقض بين الأنبياء ـ مع زعمهم جميعاً أنهم مبعوثون من إله واحد ـ يدل على أنهم غير صادقين ، وأن نبوءاتهم باطلة ، غير صحيحة.

عند الرازى العقل وحده كاف لمعرفة الخير والشر ، والضار والنافع ، وهو ـ أى العقل ـ كاف وحده لمعرفة الله وأسرار ألوهيته ، ولا حاجة لمن يزعم أنه بُعث لهداية الناس بدعوى أنه نبى ، فالأنبياء لا حاجة لنا بهم ، ثم إنه لا معنى لتفضيل بعض الناس أو الشعوب على البعض الآخر، واختصاص «المُفضلين» بإرشاد الناس جميعاً ، إذ أنه من المفروض أن كل الناس يولدون وهم متساوون فى العقول ، والتفاوت ـ فيما بعد ـ ليس فى المواهب الفطرية ذات الاستعدادات ، إنما التفاوت فى تنمية هذه المواهب وتوجيهها.

واتجه الرازى بعد الإسلام لإبطال كل الأديان السماوية ، وقد بنى هجومه عليها من هجومه على الإسلام(٤٥).

فقال: «إن اليهود قالوا إن موسى قال إن الله قديم غير مصنوع ، وإنه لا تنفعه ولا تضره الأشياء». ومع هذا مكتوب فى التوراة «أن يوضع الشحم على النار لترويح شمة الرب سبحانه» فكيف نوفق بين هذين القولين المتضادين؟! القول بثبات الله وعدم تأثره بشىء. والقول بأن الله يتأثر بالروائح؟.

قال أيضاً: «كذلك نجد فى التوراة ما يناقض القول بأن الله قديم غير مصنوع ... إذ أنه فى التوراة أنه فى قديم الأيام جاء الرب فى صورة شيخ أبيض الرأس واللحية وهو تشبيه وتجسيم مما يؤذن بأن الله مصنوع ... فكيف يتفق هذا مع ذاك؟!»

ويقول الرازى: «فإذا انتقلنا من بيان طبيعة الله إلى بيان صفاته ، وجدنا فى التوراة أوصافاً يوصف بها الرب لا يمكن أن تليق بمكانته ولا مقامه». وفى التوراة: «مالكم تقربون إلى كل عرجاء وعوراء؟ أتراكم لو أهديتم ذلك إلى أصدقائكم ما قبلوه إلا صحيحاً؟!».

وفيها قال الرب: «اتخذوا لى بساطا من أبريشم دقيق الصنعة وخواناً من خشب الشمشاد».

وبنفس الطريق نقد الرازى الديانة المسيحية ... فقال: «زعمت النصارى أن عيسى أزلى وأنه قال ما جئت لأنقض التوراة بل جئت لأكملها ، ثم ألغى كثيراً من شرائعها ، وبدّل قوانينها وأحكامها».

وأخذ الرازى على المسيحيين قولهم بوجود أزلى قديم غير مخلوق إلى جانب الله ، وإذا كان المسيح أزليا.. فهو يشارك الله فى أزليته. وهو شرك بالله. وقال الرازى أن المسيح قال أنه جاء ليتم التوراة ، ثم عاد وألغى شرائعها. فإذا كان المسيح كذابا ... نتوقع منه الكذب فى كل شىء. وهو ما يجعلنا نرفض المنطق الذى يقول أنه ـ أى المسيح ـ ثالوث مكّون من أب وابن وروح قدس.

ثم اتجه الرازى لأديان أخرى مثل «الزرادشتية» و«المانوية» (الزرادشية تنسب لزراد شت الفارسى ، بينما المانوية تنسب لمانى العراقى). فقال إن ما يدعيه الزرادشتيون خطأ ، وأن قول مانى أن الكلمة الأولى (خطوة الخلق الأولى) انفصلت عن الأب ومزقت الشياطين وأن السماء قد بنيت من جلود العفاريت وأن الرعد والجن ، وأن الزلازل صوت تحرر الشياطين تحت الأرض ـ كله كلام لا يمكن تصوره.

وأن ما قيل عن أن «مانى» كان يطلع الشمس وينزل كلام ليس صحيحاً ولا منطقياً وإن مثل هذه الخرافات قد دخلت للمسيحية واليهودية والإسلام ، ولم نعد نستطيع أن نفرق بينها وبين الحقائق.

وعندما قالوا للرازى: «إذا كانت الأديان ليست حقيقية ، فكيف تفسر تعلق الجمهور العريض بها! وكيف تفسر انتشار الأديان بحيث لا نجد إلا النادرين جداً هم الذين لم يعتنقوا ديناً ما ؟!»

فأجاب بأن المتدينين أخذوا الدين عن رجال الدين بالتقليد ، دون أن ينظروا لأصول الديانة ومعقوليتها ، وأن من فكر يتهم بالكفر ، بزعم أن الجدل فى الدين والتفكير فى أصول العقيدة كفر.

وقال الرازى: «قال رجال الديـن للعامة لا تفكروا فى الله وتفكروا فـى خلقه وأن القدر من عند الله فلا تخوضوا فيه ، وإياكم والتعمق فـإن من كان قبلكم هلك بالتعمق. ومع كل هذه العـوامل لو سَئل المتدينون عن الـدليل علـى صحة معتـقدات رجال الدين ، اسـتطار رجال الدين غضباً ، وأهدروا دم من يطالبهم بذلك ، وحرضوا على قتل من سألهم ، لذلك دُفن الحق ، ولم يعد هناك أمل فى أن يعرف المتدينون أن كلامهم كله باطل.

وبعـد سنوات قال الـرازى: «المسلـمون غرهم لحـى التيـوس وبياض ثـياب المجتمـعين حولهم من خلفاء الرجال والنساء والصبـيان ، ومع طول المدة صار طبعاً وعادة فى النفوس من ناحية ، ومن ناحية أخرى يقوم رجال الديـن بصرف الناس عن امتحان هذه المعتقدات ، بتخويفهم وارهابـهم ، بما يصوغونه من تهديد تارة وتارة أخرى من عـبارات عامة تثنى عن التعـمق فى البحـث وتأمر بالكـف عنه . فرجال الديـن يحيطون مـبادئ العقيـدة بالأسرار والتهاويل التى تضفى عليها غموضاً مقدس ، لا يفكر إنسان فى اختباره.

والتقليد ـ عنـد الرازى ـ أحد أهم أسباب التدين ، والسلطة الـسبب الثانى ، لأن رجال الدين يتعـلقون بالسلطان ، وعنـدما يصبح لهم شأن ، يُسـمح لهم بفرض معتقـداتهم على الناس «قسراً» إن لم يستطيعوا الإقناع ، والمظاهر الخارجية التى يظهر عليها رجال الدين من قوة وسلطان وبطش هى الـتى تثير الدهشة والرعب فى نفوس البـسطاء من الناس ، لذلك تنتشر العدوى بين طبقات المجتمع.

وأخذ أبوبكر الرازى من بعض تناقضات رجـال الدين شاهداً على فساد كلامهم[٤٦]. ورفض الأحاديـث النبوية عنـد المسلمين ؛ مؤكـداً أنه لو كان التـواتر (النقل) صحـيح ، لما تناقضت الأحاديث فيما بينها فى مسألة رئيسة كمسألة خلق القرآن ومسألة القدر.

وقال أنه لا يمكن اعتبار القرآن «أزلى» ـ كما يـقول بعض المسلمين ـ إذ أنه لو كان هذا صحيحاً ، فإنه ـ أى القرآن ـ سيشارك الله فـى وحدانيته ، لأن الله هو الوحيد الأزلى ، ثم إنه لا يمكن اعتباره مخلـوقا ، لأن كل مخلوق ناقص ولو كان القرآن مخلـوقا فهو ناقص ؛ فى حين أن المسلمين يقولون أن القرآن هو الكتاب الكامل الوحيد ، ثم إذا كان القرآن «ناقص» لأنه مخلوق ، وهو فى الوقت نفسه كـلام الله ، فلابد أن نصل إلى أن كـلام الله ناقـص ، بما لا يمكن أن يـتسق مع مـفهوم الإله الـقادر الكامـل ، فالنقـص فى الخصوص ... نـقص فى العموم.

ورأى الرازى أن تأويل الـقرآن ليس إلا إنقاذاً لآيـاته مما تدل عليـه من أشياء تتنـافى مع

كمال الألـوهية ، وقد اكـتشف ـ من وجهـة نظره ـ أن التأويـل ليس إلا تحايـلاً لا أكثر ولا أقل.

وقال: «أمـا بالنسـبة للقـرآن. فقولكـم بأنه مُـعجز ، مملـوء بالتنـاقض ... وهو أساطير الأولين ... وهو خرافة. إن كنتم تدعون أن المعجزة قائمة فيه وموجودة ، وقلتم أن على من ينكره أن يأتى بمثله ، فإنا نأتيكم بألف ألف مثله من كلام البلغاء والفصحاء والشعراء ، وما هو أفضل منه ألفـاظاً ، وأشد اختصاراً للمعانى. وأبلغ أداء وعبـارة ، فإن لـم ترضوا بذلك فإنا نطالبكم بالمثل الذى تطالبوننا به».

وانتقد القرآن من ناحية طريقة تركيب ألفاظه ، فيقول أنه ملىء بالتطويـل والتكرار ، ثم هاجمه من حيث البلاغة أو القدرة على أداء المعنى المقصود بأيسر الطرق.

أما الناحية الموسيقية فى نظم القرآن ، فقال أن كلام البلغاء أكثر موسيقية منها لو نظرنا بعين الحياد الـتام . ووصل الأمر به إلى أن هاجم الآيـات القرآنية لأنها ـ كمـا قال ـ مملوءة بالأساطيـر ، وأنها تحتوى على تـناقض واضح بين معظـمها ، إضافة إلى أنه لـيس لها أى فائدة فى وجود العقل.

وبعد هـجوم شامل من المسـلمين على كـلام الرازى ، مطالبـينه بأن يكتـب ـ قرآن ـ لو استطاع. فقال: «أئتونا أنتم بمثل ما فى كتاب الهندسة والجبر». وقال «أطالب المسلمين بمثل الذى يزعمون أننا لا نقدر على أن نأتى بمثله». وقال: «ليس فى وسع إنسان أن يأتى تماماً بما أتى به آخر».

وفى أحد كـتبه قال: إن الكـتب العلمـية وأمثالها أكـبر فائدة ونفـعاً للناس مـن القرآن والكتب الدينية ، ولو حدث وكان لكتاب قداسة ، فالأولى أن تكون القداسة لكتب أصول الهندسة ، والفلك التى تشرح حركات الكون والأفلاك وقوانين الفيزياء ثم كتب الطب.

هذه الكتب أولى بالتقديس مما لا ينفع ولا يضر. الذى هو القرآن(٤٣).

الملاحظة المهمة أن أبا بكر الرازى كان فارسياً ... من «الموالى».

الهوامش

(١) المستشار محمد سعيد العشماوى. الإسلام السياسى. مكتبة مدبولى الصغير. الطبعة الرابعة ١٩٩٦. ص ١٢٨.

٢) المستشار محمد سعيد العشماوى. المرجع السابق ص ١٣٠ وما بعدها.

(٣) المستشار العشماوى المرجع السابق. راجع أيضاً كتاب «جوهر الإسلام» ، سينا للنشر.

(٤) وليد الأعظمى. والملل والنحل للشهرستانى.

(٥) المستشار العشماوى. المرجع السابق. ص ١٣٩. أحمد أمين ضحى الإسلام.

(٦) د. زكى نجيب محمود. المعقول واللامعقول فى تراثنا الفكرى.

الفتنة الكبرى. د. طه حسين ، أحمد رائف. الخلافة من السقيفة إلى كربلاء.

(٧) تاريخ الأمم والملوك. الطبرى. ج. ٤، ص ١٢١ وما بعدها.

(٨) السيوطى ، د. فرج فودة. الحقيقة الغائبة ص ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٣٩٩١.

(٩) المرجع السابق. قراءة فى أوراق الأمويين.

(١٠) أحمد رائف ، الخلافة من السقيفة إلى كربلاء.

(١٢) الكامل لابن الأثير. ج٥ - ص ٣١٠ إلى ٣١٤. دار الكتاب العربى ، بيروت. والطبرى ج٤ ص ٣٧٤ ، ٢٥ وما بعدها مؤسسة الأعلمى للمطبوعات بيروت. المستشار العشماوى مرجع سابق ص ١٧٦ ، ١٧٧.

(١٣) السيوطى. تاريخ الخلفاء. ص ١٩٥.

(١٤) المرجع السابق. ص ٢١٩.

(١٥) الخلفاء للسيوطى ص ٢١٦.

(١٦) المرجع السابق ص ٢١٧.

(١٧) الكامل لابن الأثير. ج٥ (موقعة الحرة). الطبرى (سابق) نفس الموقعة ج٤.

(٨) الدينورى. الأخبار الطوال ، دار المسيرة. بيروت. ص ٢٦٧ وما بعدها. ابن كثير. البداية والنهاية ، ج٧ ، دار الكتب العلمية بيروت.

(١٩) جلال الدين السيوطى. (مرجع سابق).

(٢٠) البداية والنهاية لابن كثير: مجلد ٥ ، جزء ٩ ، ص ٢٤٢ ، (مرجع سابق). المسعودى : مروج الذهب. ج٣ ، ص ٢٠٧.

المستشار محمد سعيد العشماوى: الخلافة الإسلامية: ص ١٨٩. نقلاً عن رسالة الغفران: أبو العلاء المعرى ، ص٢٣٦ وما بعدها.

(٢١) تاريخ الخلفاء: السيوطى: مرجع سابق - ص ٣٤٩ ، ٣٠.

(٢٢) مروج الذهب للمسعودى: ج٣ ، ص ٢٢٨ ، ٢٢٩. مرجع سابق.

(٢٣) المرجع السابق.

(٢٤) محمد بن يزيد المبرد (النحوى) . نقلاً عنه دون تصرف.

(٢٥) المرجع السابق: الخلافة الإسلامية. ص ١٩٠ وما بعدها.

(٢٦) تاريخ الخلفاء : مرجع سابق ص ٢٥١.

(٢٧) المسعودى: مرجع سابق.

(٢٨) المستشار العشماوى: الخلافة الإسلامية: مرجع سابق ص ١٩٠.

(٢٩) التاريخ الإسلامى العام: د. على إبراهيم حسن. مكتبة النهضة المصرية ـ ص ٣٥٥. وراجع د. فرج فودة الحقيقة الغائبة ـ ص ١٠٦. ١٩٩٣.

(٣٠) تاريخ الأمم والملوك: ابن جرير الطبرى: ج٤ ، ص ١٢١ ، ١٢٥. (مرجع سابق).

(٣١) المرجع السابق: ص ١٢١. الطبرى.

(٣٢) مروج الذهب: المسعودى : ج٣ ، ص ٣٠٩. مرجع سابق.

(٣٣) المرجع السابق ـ نفس الصفحة.

(٣٤) أبوبكر عبدالله بن أبى داود سليمان بن الأشعب الساجستانى ـ كتاب المصاحف ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ، الضبعة الأولى. ص ١٣٠ ، إبراهيم الإبيارى. الموسوعة القرآنية. ج١ ، ص٣٦١، ٣٦٢ ، ٣٦٣.

(٣٥) صحيح البخارى. الحديث ٤٦١٥.

(٣٦) راجع ضحى الإسلام. أحمد أمين. ج١. ط١٠ ، ١٩٨٤. النهضة المصرية ص ١١٩ ، ١٢٠.

(٣٧) الخلافة الإسلامية. مرجع سابق ص ٢٣٨ ، ٢٣٩.

(٣٨) تاريخ الخلفاء . السيوطى . مرجع سابق.

(٣٩) المرجع السابق. ص ٣٤٢ ، ٣٤٥.

(٤٠) قراءة فى أوراق العباسيين ، د. فرج فودة. ص ١٠٧ ، ١٠٨.

(٤١) الشهر ستانى. الملل والنحل. مقدمة الجزء الأول.

(٤٢) د. عبدالرحمن بدوى. من تاريخ الإلحاد فى الإسلام.

(٤٣) رسائل فلسفية لأبى محمد بكر محمد بن زكريا الرازى ، ج ، ص ٢٩٥.

(٤٤) ابن الجوزى. المنتظم فى التاريخ ج١٣ ، ص ٢٦١.

(٤٥) باول كروس ، فصول من كتاب «أعلام النبوة» الرازى. منشورة فى مجلة شرقيات. ج٥. كراسة ٣ ـ ٤ ، روما ١٩٣٦. ص ٣٦٢.

(٤٦) ابن النديم. الفهرست ، ص ٤٢٠. القاهرة ، ١٩٢٩.

دراسة فى الاستخدام السياسى للدين
مدعو النبوة فى التاريخ الإسلامى

4

الفاطميون بين الخلافة وفكر الموالى!!

دار الخيّال



قصة الحاكم بأمر الله مع الإسلام

كانت الدولة الفاطمية حركة شيعية ، حاولت استخدام الدين للسياسة ، وعصر الحاكم بأمر الله كان عصر انحراف الفاطميين لأقصى اليسار ، فقد اشاع الدعاة الدينيون الفاطميون مثل «حمزة بن على الزوزنى» و«الحسن الضرغامى» فى المجتمع المصرى دعوات غريبة ومعتقدات أغرب ، تشرح ولو بأسلوب ضمنى تطور الحركة الفاطمية وتدل على شكل الدين الإسلامى بعد أن بدلته السياسة[١] ، أو تدل على الدين الذى ابتكره الفاطميون على أساس معتقداتهم ، وتفكيرهم وغاياتهم بما فيها من أساطير وخليط بين فكر الإنسان البدائى وبين نفس الأفكار التى تطورت عبر الزمن لتصل للصورة التى رسمها الفاطميون للإسلام.

زعم الدعاة الفاطميون «ألوهية» الحاكم بأمر الله ، وقالوا أنه هو الذى بعث على ابن أبى طالب ، وهو ـ أيضاً ـ الذى أرسل محمد ﷺ. فكانوا أول من أسس مذهب الدروز المستمد فى الواقع من معتقدات الإمام الفاطمى «حمزة بن على الزوزنى» وتعاليمه.

فقد ادعى حمزة بن على أن مذهبه يلغى جميع الأديان والشرائع قبله[٢] ، وإن الحاكم بأمر الله هو آخر الأنبياء وليس محمد ﷺ ، أو أنه آخر الأنبياء بعد محمد ﷺ. وكان الفاطميون يؤمنون بتناسخ الأرواح أو ما سُمى عندهم «بالحلول». يعنى إمكانية أن تحل

روح آدم «أبوالبشر» بعد انتقالها من جسده ، فى جسد على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ وهى نفس الروح التى انتقلت لروح الحاكم بأمر الله.

لذلك فالحاكم بأمر الله ليس إنساناً كباقى البشر ، لأن روح آدم عندما جاءت لتدخل جسده ، اصطحبت معها الروح الإلهية ، فأصبح الحاكم بأمر الله إلها. واتخذت صورته ـ وهو إله ـ صورة إنسان لا يحمل من صفات الإنسان إلا شكله.

والشيعة «إيرانيون» فى المنشأ والعقيدة ، وربما أكثر ما يدل على منشئهم فكرة «الحلول» التى لم يكن يؤمن بها العرب ولم يعرفوها على نطاق واسع ، فى الوقت الذى اعتبرت فيه هذه الفكرة إحدى مقومات معتقدات الشعوب الفارسية والصينية والهندية . ولما دخلت هذه الشعوب الإسلام ، استطاعت حشر الفكرة فى كثير من معتقدات العامة من المسلمين ، وربما كانت ـ فكرة الحلول ـ الباب لدخول أساطير ومعتقدات مختلفة فى الفكر الإسلامى ، حتى أننا يمكن أن نرجع هذه المعتقدات الغريبة لرغبة شعوب الفرس أو الهنود فى إحداث توازن بين عقائدهم القديمة وعقيدة الإسلام التى وجدوا أنفسهم فى وقت ما مضطرين لاعتناقها.

والتوازن هو ابتكار ديانة وسط بين التراث ... وبين الجديد ... أو ـ عند الفرس ـ بين المجوسية والإسلام.

وتعتبر معتقدات الفاطميين استمداداً لفكر «الموالى» الذين دخلوا الإسلام ، وهو الفكر الذى لجأ إما للأسطورة ، أو إلى لى المنطق ، لتفسير الكثير من الأمور الغامضة فيما يتعلق بالعلاقة بين الخالق والمخلوق ونشأة الكون وتصرفات الإله ، وظروف إرسال الرسل ، وطبيعة النبى أو «الملك» الذى يرسله الإله كى يقود شعوب الأرض، وينقذها من الضلال.

وهو نفس الاعتقاد (أن النبوة مُلك) الذى نقله اليهود للعرب فى الجزيرة العربية ، وهو الفكر الذى اكتسبه اليهود من البابليين (العراقيين القدماء) أيام السبى البابلى الأول والثانى أو ربما هو ذلك الاعتقاد الذى انتقل للفكر اليهودى من الفرس والسومريين وأصحاب الحضارات القديمة من الهنود والصينيين ، الذين ارتبطوا مع اليهود بتجارة وقوافل وزيارات ، فكان أن دخلت أفكار «الملكية النبوية» للفكر اليهودى إلى جانب أفكار «الحلول» و«التناسخ» وكثير من المعتقدات الأسطورية الأخرى.

وربما تكون الخلافة الفاطمية هى خلاصة ربط الفكر الأسطورى بالفكر الإسلامى ، لذلك اعتقد الفاطميون أن الحاكم بأمر الله إله. وهو فكر قريب مما ادعاه الشيعى عبد الله بن

سبأ الذى كان يهودياً قبل دخوله الإسلام[٤]. فقد قال إن على بن أبى طالب هو الإمام المعصوم من الخطأ وهو الذى يعلم الغيب لأن روح الخالق قد دخلت جسمه وحلّت فيه ، لذلك فإن على بن أبى طالب سوف يعود للحياة بعد موته ؛ وإنه لن يموت ولن يتحول جسده إلى تراب .

ولما علم على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ بما يقوله ابن سبأ ... نفاه ، وأحرق كتبه ، وأحرق عدداً من أتباعه الذين أكدوا أن على هو الإله لأنه لا يوجد من يقوى على حرق البشر إلا الخالق. ولما قُتل على بن أبى طالب. قال ابن سبأ إنه لم يمت ، وأنه حى ، لأن الروح الإلهية حلّت فيه ، والإله لا يموت ، لذلك انتظر اتباع ابن سبأ أن يظهر على بن أبى طالب مرة أخرى فى السحاب واحتجوا بالآية القرآنية الكريمة التى تقول: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ﴾. وقالوا إن الرعد هو صوت على ، وأن البرق هو الكرباج الذى ينزل به ليؤدب الكافرين.

ومثل ابن سبأ طائفة الشيعة «الإمامية» التى اعتقدت أن الجزء الإلهى يحل فى الأئمة الشيعة بعد على ، لكن الخلفاء الفاطميين رفضوا هذا وقالوا أن الجزء الإلهى حل فى أول خلفائهم «عبيد الله المهدى».

أما أكبر دعاة المذهب «الحلولى» الأسطورى كان إمام الفاطميين وفقيههم «حمزة بن على» الذى جمع معظم الفكر الفاطمى في كتابه «الرسائل» ، الذى قسمه الفاطميون لمجموعات فيما بعد واعتبروها الكتاب الأساسى للدعوة الفاطمية.

فى المجموعة الأولى من الرسائل كتب «حمزة بن على » ما أسماه «ميثاق ولى الزمان» ، الذى يحتوى على المنهج الذى يجب أن يسير عليه جميع الفاطميين.

أولا ـ التبرؤ من جميع الأديان السابقة ... بما فيها الإسلام.

فالمعبود الوحيد هو الحاكم بأمر الله وحده لا شريك له.

وفى كتابه الآخر المعروف «بالنقض الخفى» ، تحدث «حمزة بن على» عن أصل العالم وطريقة خلقه. فقال إن الأصل البرودة والحرارة ، ويصل لخلق الناس والنباتات والحيوانات فينسبه للحاكم بأمر الله مع وصفه بألفاظ إلهية مثل «جل ذكره» و«المنفرد» و«مولانا البار العلام» و«العلى الأعلى» و«من لا يدخل الخواطر والأحلام». إضافة لكلام وفكر ومعتقدات كثيرة أبسطها. أنه لا دين إسلامى ولا نبى إلا الحاكم بأمر الله الفاطمى[٥].

عُرف مذهب «حمـزة بن على» بالمذهب الفـاطمى ، والمذهب الفاطمـى يرى أن الزكاة ليست إنفـاق الأموال فى سبيل الله ، وإنما هى شـىء له ظاهر وله باطن ، باطـنها الاعتراف بولاية على بن أبى طالب إماماً يعلم الغيـب ويوحى إليه هو وأبناءه، ثم التبرؤ من أبى بكر وعمر وعثمان الذين أخذوا ولاية وخلافة على فى حياته إثماً وعدواناً.

والصوم هو توحيد القلوب وعبادة الحاكم بأمر الله ، واعتقد معظم الدعاة الفاطميين أن الحج ليس فريضة ، لأن الحاكم بأمره لـم يحج ولو مرة واحدة ، ولأنه أوقف خروج كسوة الكعبة من مصر أعواماً طويلة.

واعتـقدوا أن ترك الحـاكم بـأمره صلاة الـعيد وعـدم ذبح «الخرفـان» تصـريح للـناس بإبطالها واستمروا عـلى اعتقادهم حتى أبطل الحاكم بأمره صلاة العـيد ومنع صلاة الجمعة فى الجامع الأزهر رسمياً [٦].

وادعى «حمزة بن على» النبوة لنفسه. وقال إنه رسول الحاكم بأمر الله ، وبدأ فى الدعوة لدعوته سـنة (٤٠٨هـ) وهو نفس العام الـذى يعتبره الفاطمـيون بداية للتاريخ الـفاطمى ، وهو أحد أهم التواريخ المقدسة عند طائفة الدروز.

حتى فـترات طويلة ظل الفاطمـيون على إيمانهم بأنـه كما ألغى محمد ، كـل الشرائع والأديان السابقة لدعوته ، فإن الحاكم بأمـر الله قد فعل هذا أيضاً وأنه ـ الحاكم بأمر الله ـ قد أنشأ شريعة خاصة به ، لذلك فعلى الفاطميـين جميعاً ـ المؤمنين بألوهية الحاكم ـ أن يتركوا كل ما كانوا عليه من قبل فى أديان وعقائد. واشترك الحاكم بأمر الله نفسه فى وضع أسس الدعوة لألوهيته ... وقال إن أول المبادئ مبدأ «الحلول» ، حلول روح الله فى الإنسان. وقال الفاطـميون أنه مـن الخطأ القول بـأن الحاكم بأمـر الله ابن الخليفـة «العزيز بـالله». ولا يصح وصفه «بأبـوعلى» فلا هو أبو أحد ، ولا هو ابـن لأحد ، لأنه هو الله ، يظهر بصـورة بشرية متى شاء وكيف شاء. وقـام «حمزة بن على» بتبرير تصرفـات الحاكم بأمره ، وقال إن الإله يأكل ويشرب ، وليس صحيحاً إنه لا يفعل هذا مثلما يقول باقى المسلمين.

ونُسـب إلى «حمـزة بن علـى» إباحة الخمـر والزنا والـزواج من الأمهـات والأخوات والبنات. ويقول سليمان بن الحسن الجنابى «ما العجب فى شيء كالعجب فى رجل يدّعى العقل ثم يـكون له أخت أو بنت حسنـاء وليس له زوجة فى حسنـها فيحرمها علـى نفسه ويجعل شخصاً آخر يتزوجها؟!» . ويقول: «لو عقـل الجاهل لعلم أنه أحق بأخته وبنته من أى شخص آخر»[٧].

وقد استمر الدعاة الفاطميون ـ حتى بعد موت الحاكم بأمره ـ فى تفسير تصرفاته المتناقضة بما يلائم «جلاله» و«عصمته» كإله ، وفسروها على أنها شكل من أشكال الحكمة التى لا يمكن أن يقف على معناها بشر ، ولا يستطيع أن يفهمها العامة.

فإذا كان الحاكم بأمره قد اضطهد اليهود والمسيحيين ، فأنه أراد أن يميت كل المرتدين ، وكان الحاكم بأمره قد فرض على النصارى واليهود أزياء خاصة ، وأمرهم أن يعلقوا فى صدورهم صلباناً من الرصاص الثقيل ، حتى ازرقت عظام رقابهم من ثقلها ، ووصفوا ـ ربما حتى اليوم ـ بأنهم أصحاب العظام الزرقاء(٨).

واعتقد الفاطميون أيضاً أن الحاكم لما كان يفضّل التقشف فيما يأكل ، ويركب الحمير دون ذهب أو حُلى ، ففى ذلك حكمة باطنة. وإذا كان الحاكم يخرج من سرداب القصر إلى البستان ، ويطوف بالمدينة وحده ، ويترك الناس تزنى بجوار حدائق قصره فإن هذا له ـ أيضاً ـ تفسيرات لا يستطيع أن يصل إليها العامة. أما ما ارتكبه من بطش وسفك دماء ، وفتك بأكابر الدولة دون خوف ولا تردد ولا قلق ، فهو الدليل الأكيد على ألوهيته وارتفاعه عن مصاف البشر ، فالخالق لا يخاف أحدا مهما كبُرت درجته ومكانته وحسبه ونسبه.

ولازالت طوائف من الشيعة حتى الآن تعتقد ـ وبإيمان كبير ـ فى كل هذا ، وهم متأكدون من أن هناك نبيا اسمه «حمزة بن على» ، زاعمين أن نبوته أيدتها معجزات الحاكم بأمره طوال مدة حكمه للفاطميين فى مصر، ومنهم من قال أن الحاكم بأمره سوف يعود ليخلص المسلمين الفاطميين مما لحق بهم من ظلم ، وهى فكرة قريبة إلى حد كبير بالاعتقاد فى أن على بن أبى طالب سوف ينزل من السماء للأرض من جديد ... ليخلص الشيعة من اضطهاد العالم.

❑

أساطير قديمة أعيد صياغتها ... بأسماء وربما بتفاصيل جديدة ، وبمرور الوقت ، استطاع بعض العامة أن يخلطوا بين الفكر الأسطورى ... والفكر الإسلامى ، وربما استُخدم أسلوب «الخلط» كمحاولة لضرب العقيدة الإسلامية وتحويلها لدين سهل الاختراق ، وربما كانت فى الوقت نفسه محاولات لتطويع الإسلام ناحية فكر تراثى معين ، أو اعتقاد قديم آخر . والنتيجة أن اقتنع الكثيرون بأفكار يمكن أن نصفها بأنها لا أساس لها من الصحة. ورغم أن الفكر الإسلامى العام يؤكد تحريف الكتب السماوية

الأخرى كالتوراة والإنجيل ، إلا أن بعض كتاب السيرة اعتمدوا فى تفسير بعض الآيات القرآنية على ما جاء فى تلك الكتب.

قصة آدم (عليه السلام) فى كتب التراث الإسلامى ـ على سبيل المثال ـ مرتكنة فى الأساس على بعض حوادث ووقائع جاءت فى التوراة (العهد القديم). ورغم أن القرآن الكريم لم يحك قصة خلق آدم (عليه السلام) بكل تفاصيلها ، إلا أن القصة ـ وهذا هو الغريب ـ وصلت إلينا بكل التفاصيل حتى البسيط منها.

والحديث النبوى الشريف لم يذكر كل التفاصيل ، وعندما وصلت قصة آدم (عليه السلام) لعصرنا ، اشتملت على تراث يهودى كبير، ولأن التراث اليهودى (التراث السامى) مستمد من تراث الحضارات القديمة كان لابد أن يشتمل أيضاً على ملامح كثيرة منها ، ولا شك أن تراث الشعوب القديمة مجموعة مترابطة من الأساطير ، ففى الأزمنة القديمة كانت الأسطورة دين ، أو أن الدين كان مجموعة من أساطير ، تعتبر ـ من وجهة نظر الإنسان البدائى ـ الحل الوحيد لأمور كثيرة مجهولة ، فعندما تطور الفكر البشرى قليلاً بدأ الإنسان يلاحظ أن هناك علاقة بين الصاعقة التى تنزل من السماء ، وبين موت المصعوق على الأرض ، فعرف أن هناك قوة كبرى أقوى من الإنسان ، تستطيع أن تميته ، وأرجع عدوانية هذه القوة لأخطاء فى السلوك الإنسانى.

أو هو غضب الأقوى من الأضعف.

شيئاً فشيئاً تدرج الفكر ، وبدأ فى ترقب حدوث الصاعقة ، بناء على المؤشرات المنطقية من تراكم السحب وشكل السماء ، وتأكد بعد فترة للإنسان ، وقد بدأ فى تجميع خيوط مختلفة لعلاقته بالطبيعة وظواهرها إنه فى حاجة لقانون عام ، أو نظام شامل ـ حسب قدرته العقلية ذلك الوقت ـ يستطيع أن يفسر به الميلاد وطريقته وسببه ، ثم يفسر بها سبب معاناته من الصيد والجرى وراء الحيوان تارة ، والجرى خوفاً منه تارة أخرى ، وأخيراً الموت وما بعد هذا الموت.

وقتها تأكد البدائى أنه فى حاجة إلى رب يضر وينفع ، يمنع ويُعطى ... والأهم هو احتضان هذا الرب للجماعات البدائية وقت الخطر ، فمع أن الجماعات البدائية حسب كل النظريات العلمية والتاريخية نشأت همجية ، لكن الصراع مع الطبيعة استدعى من الانسان الاعتماد على قوة أكبر وأكثر تفوقاً من الطبيعة . ومع أن الإنسان عموما يرفض قيد الدين لصعوبته ، إلا أنه لم يكن للدين بدُ فى اللاوعى الإنسانى ، وكان أن نشأ الدين فى البداية

على معتقدات تفسر الظواهر الطبيعية وتربط الفعل الإنسانى برد الفعل الإلهى ، وهى أول صور العلاقة بين السماء والأرض ، لذلك نشـأت فكرة القوة الشريرة على الأرض ، وهى التى تـدفع الإنسان إلى الخطـأ ، بما يستفـز القوة الشريـرة فى السماء ، التـى تدفع الطبـيعة للانتقـام . وأرجع الإنسان حالات الصـفاء والتناغم بيـنه وبين الطبيعـة للقوة الطيـبة على الأرض ، التى ترد عليها القـوى الطيبة فى السماء فتأمر الطبيعـة بالهدوء. ونشأ «الإله» فى فكر الإنـسان البدائـى على شكل غـريب ... طفولـى ، فقد اختاره الإنـسان على شـكله ، وصفاتـه ... ونفس طريـقته فى الـغضب والحلـم ... وهو يتزوج ويـنجب ، ويغـضب من زوجته ومن أولاده.

وظل الإله نـفسه مختـلفاً فى بدايـاته وقيمـته وماهيتـه من شخص لآخر ، ومـن شعب لشعب ، وابتكر الإنسان بأسلوب رشيق قصصـاً مثيرة لتفسير المجهول ، وشكلت أسطورة بداية الخلق أكبر المشاكل. بداية الرب ، صعوده للسماء ، هل ينزل للأرض؟! وهل يستمر فى السماء؟! وإلى متى؟! وحتى أى وقت؟!

ابتدع الإنسان القديم ـ حسب تصوراته البدائية ـ مجموعة من القصص على مر عصور مختلفة وسنوات وقـرون طويلة ، موضوعها الخلق وبداياته الإلهـية وميلاده وميلاد أبناءه. ولم تجد هـذه القصص سوى سيـرة الأبطال القدماء ، لـتناولها وتـرفع أصحابها إلـى مقام القداسة ، إلى أن وصلت تلك القصص لمراتب الثقافة الروحية المتوارثة ـ والقابلة للحذف والإضافة ـ لكل شعـب من الشعوب، وقد ظلت تلك القصـص (الأساطير) دون صانع أو دون مخترع محدد.

والخرافة تتـصف بالمرونة ، وهى صاحـبة قدرة غريبة علـى التنقل عبر الـزمان والمكان ، بإمكانـيات رهيبة وعاليـة على التكيف وإعـادة ترتيب نفسهـا بنفسها خارج وطـنها . وقد تستمر حية ـ أحياناً كثيرة ـ بين شعوب تختلف فى الفكر والثقافة ، وقد تتغير فى التفاصيل بينما يبقى الأصل واحدا.

فكـرة عبادة كـوكب الـزهرة (٩) ـ على سبيل المثال ـ رحلـت من كنعان باسـم (عبادة الإلهة عـنات) ، فوصلـت إلى شمال سوريـا باسم جديد ... «أسـتار». ومن هنـاك عبرت لليونان باسم «أثينا» أو «أفروديت» ، ثم وصلـت روما باسم فينوس ، ورغم اختلاف ثقافة وحضارة كل من الـكنعانيين والسوريين والـيونان والرومان اختلافاً جـذرياً فى كل شىء ،

ابتداء من نشأة الإله ، وانتهاء بشكل تماثيله ، إلا أن «أفروديت» بقيت ما يزيد عن ألفى عام... هى هى.

وعبادة كوكب الزهرة أساس لذكر المسلمين الرقم (٧) بالخير ، ولتفاؤل المسيحيين به إضافة لتقديس اليهود . فعندما تطور العقل البشرى ، أراد مزيداً من التجريد لآلهته ، صنع أرباباً مضيفاً عليها لونا من القداسة والتفرد والتميّز فى الوقت نفسه، وجعل لكل منها رمزاً معيناً يتمثل فى كوكب أو مجموعة كواكب بذاتها.

ولما اهتم البابليون بعلم الفلك واتقنوه ، وصلوا لمعرفة أحوال وأجرام خمسة من كواكب المجموعة الشمسية معرفة جيدة ، وهم الزهرة ، المريخ ، المشترى ، عطارد وزحل ، وأضافوا إليهم الشمس والقمر فأصبحوا سبعة.

ولما كانت الزهرة نفسها إلها ، انسحبت القداسة على باقى الكواكب ، فأصبح الرقم (٧) مقدساً ، وبدأ الإنسان يعتقد فى أن الإله يدور فى دائرة ما ، حتى إن «كارل يونج» عالم النفس الشهير وصل إلى أن الدائرة تمثل الإله لدى الشعوب القديمة ، وأصبح السير فى دوائر طقس هام فى معظم العبادات القديمة ، وانسحب تقديس الرقم سبعة على مضاعفاته... وإن لم يكن فالأرقام الفردية عموماً.

فالله وتر يحب الوتر عند المسلمين ، وفى اليوم الثالث قام السيد المسيح من قبره عند المسيحيين ، كذلك فعل «كريشنا» و«مايا» أنبياء الهنود والبراهمة من قبله ، وعند اليهود استراح الرب من مجهود الخلق فى اليوم السابع.

بالتدريج... رمز الإنسان لأعظم آلهته شأناً بالرقم (٧) ، وبالتدريج ـ أيضاً ـ تميزت «الزهرة» عن باقى الكواكب الآلهة. فعند «سبينو موسكاتى» الباحث فى أصول الأساطير أن العقل البدائى الإنسانى انتقل من عبادة تربة الأرض ، إلى عبادة كوكب أنثى أو كوكب يعتقد أنه أنثى ، واعتبرها آلهة الإخصاب ، على أساس أن الإخصاب والعطاء والولادة من خصائص الأنثى ، فقد استبدل عبادة (الأرض) الأنثى ، بعبادة كوكب الزهرة على أساس أنها أنثى مسئولة عن إنبات الزرع وخصوبة النساء ، وبعد فترة أصبحت «الزهرة» قوة أساسية ومحركاً لأحداث الظواهر الطبيعية ، وأصبحت «الزهرة» رمزاً للحسن والجمال ، وازدهرت عبادتها فى المدن السومرية (جنوب العراق) القديمة ، فأطلق عليها اللسان السومرى اسم «اينانا» أو سيدة السماء ، عبدوها كإله ذكر فى الصباح يشرف على

الحروب والمذابح والقتل وسفك دماء الأعداء ، ثم سيدة فى المساء ترعى الحب والشهوة ... أو ربة للمتعة والإغواء على عكس طبيعتها الصباحية.

ولأنها إلهة للخصوبة لم يكن هناك مفر من الأساطير الجنسية فى سيرتها ، خصوصاً وأن الزهرة ذكر وأنثى فى الوقت نفسه ... أى أنها ـ فى الفكر القديم ـ تملك قرار الإنجاب وحدها (١٠).

وهو ما يفسر كثيرا من الطقوس الجنسية فى معظم ديانات العالم القديم ، حيث ارتبط الجنس بالتقرب للإله ، بما يعنى أن التجمّل لممارسة الجنس هو فى حد ذاته نوع من أنواع الطقوس التعبدية ، إذ أن هناك من العلماء من يرجع غطاء شعر الرجل والمرأة فى العصور القديمة يعود للفكرة نفسها.

إذ أن الزهرة ، لأنها أنثى جميلة ، فهى ملساء ، ولا تحب أن ترى الشعر كثيفاً أو مجعداً ، لذلك حلق الكهنة السومريون رءوسهم تماماً ، وكذلك فعل الأكاديون وغطاها الكهنة المجوس ، وكذلك فعل الكهنة الفراعنة ، والذى رفض أن يغطيها ، حلقها إذ لا يمكن أن يدخل قدس الأقداس أو المعبد وشعره غير مُغطى.

وحتى الآن يفعل البوذيون نفس الشىء ... فهم يتقربون للإله بالرأس الخالية من الشعر، وتشير التوراة فى قصصها إلى «شمشون» الذى تكمن قوته فى شعر رأسه ، وقد أخبرت الآلهة أعداءه بأنهم لو أرادوا أن يسحقوه عليهم بحلاقة رأسه.

فالرأس المغطاة علامة من علامات الاتحاد مع الإله ، وأكثر من ١٦ ديانة قديمة اعتمدت فى عبادتها على غطاء شعر الرأس ، إضافة إلى ما يمكن أن نسميه «طقوس سيئة السمعة» فمع عبادة كوكب الزهرة كان الجنس مقدساً وشُهر أنها هى نفسها التى نادت به على ألسنة كهنتها ، وفرضته على عابديها ... وطلب الكهنة طبقة معينة من النساء حول هيكلها ، ينذرن أنفسهن للجنس الإلهى ، وأطلقوا عليهن اسم «العشتاريات» (نسبة لعشتار أحد أسماء كوكب الزهرة) ... أو المنذورات.

وفى اليونان حلت روح كوكب الزهرة فى إلهة الأرض (چيا) ، التى أنجبت (دون رجل) الإله « أورانوس» ـ السماء ـ الذى غطاها من جميع جهاتها فى صورة مضاجعة جنسية دائمة.

وفى العقيدة الفرعونية القديمة أن الإلهة «جب» ـ الأرض ـ فى حالة التحام جنسى دائم

مع الإله (نوت) السمـاء ، وهو الالتحام المسئـول عن خروج النبات باستـمرار كل نوع فى موسمـه. وفـيمـا وصل اللفظ (جب) للغـة العـربية بمعنـى «حفـرة» أو باطـن الأرض أو الأرض ، وصل اللفظ «جبنوت» (جب + نوت) للفكر المسيحى على أنه نصف الإكليل ، أو بداية الارتباط والإذن بالتزاوج بين الرجل والمرأة ، فيما يعرف الآن «بالجبنيوت».

ولم يكن غريباً في العصور القديمة أن تكون التضحية بالبكارة فى الهيكل عمل يتقرب به الرجـال والنساء «لعـشتار» أو «عـشتـروت» أو «إينانا» أو أية آلهة أخـرى ، بل إن فض غـشاء البكارة كـان وكأنه مـشاركـة للآلهة فـى تهتك غـشائهـا هى الأخرى ، على رجـاء الايحاء للأرض والحيوان والنبات والإنسان بالتكاثر ، وشهر عن بعض البابليات القديمات بيعـهن أجسادهن للرجـال فى مقابل قـروش قليلة تشترى بهـا ذبائح «لعشتـار» ـ كوكب الزهرة ـ أيام الأعياد كل عام(١١).

وارتفـاعاً فى المنزلة والمكانة ، أصـبحت «المنذورات للهـيكل» كاهنـات ، واقتصـر بيع النسـاء لأجسـادهن على النبيـلات وبنات العـائلات المالكة ، ولا يجوز لامـرأة من عامـة الشـعب فض بكارتها فـى هيكل المعبـد ، لأن الآلهـة لن تقبل منهـا تلك التـضحـية ، أمـا النبيـلات ، فيختار الإله واحـدة منهن تمثل كوكب الزهرة للنوم فى فراشـه ، إذ يدعوها من يختاره الإله لرعـاية شئون الأرض (الكاهن الأعظم للمـعبد) لتقضى أيامـاً فى سريره لينام معها وقتما يشاء ، وتلقب فيما بعد بـ «قاديشتو»(١٢)؛ اللفظ الذى تحول فيما بعد فى اللغة العبرية اليهودية لـ «قديشا» أو «قديشة» ، ونطقها العرب «قديسة» أو «زانية الهيكل».

وعلى أساس فـكرة «الحلول» ، فإن روح الإله تدخل جسد «القـديسة» ويصبح حملها ـ لو حملت ـ حملاً إلهياً.

وظلت «الزهرة» أو «المنذورة للهـيكل» معـذورة عن ممارسة الجنس مع الـرجال. إذ أن المنذورة لا يجوز لها ذلك بعـد أن نامت مع الإله ، ولا يجوز للبشر التمتع بـها ، لأن البشر ليسوا كالآلهة ، لذلك حملت «القـديسة» «المنذورة للهيكل» لقب «عـذراء» ، رغم الكثير من الأطفال الذين جاءوا عن طريق الهيكل.

وحملت القـديسة مثلما حـمل كوكب الزهرة لقب «مارى» عند الرومـان ، ثم أطلقوا على كوكب الزهرة فيما بعد «ستيـلا مارى» أو «كوكـب البحر» وربما كوكب الماء عموماً ، إذ أن الماء هو الذى يجـعل الأرض تنبت النبـات ، لذلك حـمل البـحر فى اللغـة اللاتينيـة واللغات المشتقة منه نفس الاسم فهـو "Mare"، "Mary" أو "Maria" ، ولا زال كذلك فى معظم اللغات الانجلوساكسونية (١٣).

وتحـول الاسم «مارى» للقب عـام يُطلق على كل إلهـات الخـصب والزرع ، فهـو عند السومريين «ميرها» ، وعند اليونان الأوائل «مايا» وفى الهند «ماريا» ، ونادى «عبدة كوكب الزهرة» معبودتهم فى بلاد الرافدين بـ «ماما» أو «ما» أو «أما»(١٤).

ونقل اليـهـود للجـزيرة العـربيـة فكرة الحلـول ، حلول روح الرب فى الإنسـان ، وهى الفكرة التى اقـتبسـوها من شعوب إيران والـهند والبابلين وشعـوب سومـر القديمة (أرض العراق حالـياً) ، لذلك اعتبـرت «كوكب الزهرة» أبرز الكواكب المحتفى بهـا عند العرب ، وهى فى الوقت نفسه إلهة الجـمال والحب واللذة والمتـعة ، واعتـبر الكنعـانيون أنهـا تهيج الغريزة الجنسية ، وظلت لها قصص وخرافات لم تـنته ، فيحكى التراث العربى القديم أنها ـ الزهرة ـ كانت امرأة حـسناء ، ذات جمال مُبـهر فازت به على كل نساء الأرض ، أحـبها كل من شاهدها ، ورغب فيـها ، لكنها أبت أن تعاشر إلا من له مكانة خـاصة جداً ، وبهذا أوقعت ملكين للرب فى حبهـا ، وبعدما قررا أن يقولا لها أى سر ترغبـه ، علمت منهما ما يقولانه ليصـعدا للسماء ، وصعدت تاركة المـلكين على الأرض نادمين على الخطيئة ، ولم تستطع بعد صعودها النزول ... فبقيت مكانها ... كما هى ، كوكب أو نجم منير ، لا يصعد إليه أحد ، ولا ينزل هو.

ويقول بعض من كبار مفسرى القرآن الكريم أن آياته الكريمة أشارت لهذه القصة فى آية الملكين «هاروت وماروت» ملكى بابل فى سورة البقرة ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ﴾(١٥).

معظم مفـسرى القرآن الكريم يشيرون إلى أنه عندما زاد الفـساد والضلال فى الأرض ، سأل الله الملائكة عن بنى آدم وجزائه ، فقالوا إن جزاءه الوحـيد العقاب الشديد ، فأمرهم الله أن يختاروا أعظم ملكين من الملائكة علماً وزهداً ليبعثهما لإنذار الإنسان إنذاراً أخيراً ، ولما اخـتـار الملائكة «هاروت ومـاروت» ، طلب الله مـنهـمـا أن ينزلا للأرض ولا يشـركـا به ـ سبحانه وتعالى ـ أحداً ، ونهاهما عن قتل النفس وعن شرب الخمر والزنا (١٦).

ولما أنزلهمـا الأرض ، أعتـرضتهـما «الزهرة» ـ المرأة الجـميلة ـ فراوداها ، فـصدتهـما بخبث ، ثم ساومتـهما على أن يفوزا بها بشرط أن يشـربا الخمر ، ففعلا ، ونامـا معها ، وإذ برجل يمر بهم ... فيخشى الملكان الفضيحة فيقتلانه . ثم يندمان أشد الندم ، ولا يستطيعان الصعـود للسمـاء بينما صـعدت الزهرة للسـماء بعدمـا علمت من الملكين ما يـقولانه من طلاسم لو أرادا الصعود.

تقـول نفـس القصـة أن الله قد خيّـر «هاروت» و«مـاروت» بين عذاب الـدنيـا وعذاب الآخرة ، فاختارا عذاب الدنيا لأنه ينتهى يوماً ما ، فدفنوا فى بئر ببابل إلى يوم القيامة.

ويروى عن عبدالله بن عمـر بن الخطاب أنه كان يقول كلما رأى كوكـب الزهرة «لعنها الله هذه التى فـتنت هاروت وماروت». وفى الحديـث عنه أن النبى ﷺ إذا رآهـا كان يقول: «طلعت الحمراء فلا مرحباً ولا أهلاً»(١٧).

وحتى اليـوم ، فإن كثيراً من مـآذن الجوامع القديمة والأثـرية تحمل أعلاها ـ إلـى جانب الهلال ـ دائرة داخلها نجمة ذات إشعاعات عديـدة ، الأمر الذى فسره البعض على أن تلك الدائرة ذات الإشعاعات لـيست سوى «كوكب الزهرة» ، أو رمزها فى الأسـاطير القديمة ، فيما فـسره البعض الآخر علـى أنه رمز للشمس ، أو نار الـشمس الذى أدخله الفـاطميون للدين الإسلامى فترة حكمهم.

و«هُبل» الإله الذى عبده العرب ، وكرموه ووضعوا تمـثالاً له فى فناء الكعبة هو الاسم العـربى للإلـه «بعل» البـابلى ... أو «هُـبعل» زوج «عـشتار» أو «عشـتروت» أحد أسـماء «كوكب الزهـرة» ، التى تستمر أسطـورتها ، فتدخل الفـكر اليهودى فتتحـول من «عنات» (أحد أسمـائها) إلى «إيلات» الإلـه الأنثى وزوج الإله الـعبرى الذكر «إيـل» ... الذى هو نفسه الإلهة الـعربية «اللات» التى وضعت جنـب «العُزى» فى فناء الكعبة المـكية أيضاً إلى جوار هُبل(١٨).

ويبدو أن الإله «مناة» كان تعريباً لاسم أحد آلهة الخصوبة فى العالم وربما يدل على قوة الذكر ، أو هو رمز لكثرة السائل الذكرى المسئول عن الإنجاب «المنى» حيث إن لفظ «المنى» بالـقلب اللـغوى يصبـح «يمن» ... أو اليـمن ... مكان الخـصوبة ... أو أخصـب الأراضى العربية ، ومنشأ الحضارة القديمة فى الجزيرة.

ويُعتقد أن اللفظ العربى «يّمن» ـ يعطـى أو يهب أو يتفضل على شخص ما ـ من أصل لغـوى يؤكد عـظمة الـهبة الإلـهية فى الـسائل الـذكرى الذى يـخرج من «بـعل» فيـدخل عنات ... أو إيلات ... أو اللات.

والنتيجـة أن تحل روح «بعل» فى أجساد أبنـائه أو أن تلد ـ فى ثقافات أخـرى ـ عشتار دون رجل ، بحلول الروح الإلهى فيها ، فتصبح من «المنذورات» للهيكل أو «قديسة».

الهوامش

(١) محمد عبدالله عنـان. الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطميـة. ط٢. مؤسسة الخانجى ، ١٩٥٩ ، ص ٢٦٩.

(٢) القرمطى. نسخة ما كتبه للحاكم بأمـر الله عند وصوله إلى مصر (ص٩) ، بينما لا توجد فى حوادث عصر الحاكم بأمر الله أية إشارة تفيد وصول القـرامطة إلى مصر ولا إلى الشام ، والأكيد أن الكتاب وجهه القرمطى للحاكم بأمر الله من الإحساء بالجزيرة العربية.

(٣) الحلـولية أصـحاب مذهـب الحلول. أو الـقول بحلـول روح الإله فى عـلى بن أبـى طالب والأئـمة المختارين من أبنائه ، وهو يوافق رأى المسيحيين فى حلول الروح القدس بيسوع.

(٤) راجع الرافضة والشيعة. والفرق بين الفرق للبغـدادى ، السبأئية. عبد الله بن سبأ. الملل والنحل. ص ١٨٥ . راجع ولـيد الأعظمـى. الحركات الحـاقدة والأفكـار الفاسدة. دار عـمار. الأردن ، ١٩٨٨ ـ الطبرى ، ج٢. ص ١٣٦ ، وما بعدها.

(٥) الحاكم بأمر الله والدعوة الفاطمية. مرجع سابق.

(٦) تاريـخ الأنطاكـى. ص ٢٢٣ ، ومخـطوط الذهـبى . مجـلد ٢٢. فى وفـيات سـنة ٤١١ ، والنـجوم الزاهرة لملوك القاهرة ، ج٤ ، ص ١٨٤ ، (ابن تغربردى). والعميد بن المكين ص ٢٦٥ .

(٧) المرجع السابق. والفرق بين الفرق ص ٢٨١ .

(٨) الحاكم والدعوة... مرجع سابق ص ٣٠٥.

(٩) د. نجيب مـيخائـيل: مصر والشـرق الأدنى القديم ، دار المـعارف ، القاهـرة ، ١٩٦١ ، جـ٦ ، ص ١٣٠ . راجع د. أنيس فريحة: دراسات فى التاريخ ، دار النهار. بيروت ١٩٨٠ . ص ٤٨ـ٤٩.

(١٠) د. نجيب ميخائيل. المرجع السابق. نفس الصفحة.

(١١) د. فاضـل عبـدالواحد: عـشتـار ومأساة تمـوز. دائرة الإعـلام العراقـية بـغداد ١٩٧٣ ، ص ١٥٨ . الموضوع نفسه عن جميـس فريزر: أمونيس ترجمة جبرا إبراهيم جبرا. المؤسـسة العربية للدراسات والنشر ط٣ ، ج المجلد الرابع. ١٩٨٢ ، ص ٤٣ ، ٤٤ .

(١٢) مصر والشرق الأدنى. مرجع سابق. السومريون تاريخـهم وحضاراتهم: صموئيل كريمر ترجمة د. فضيل الوائلى. وكالة المطبوعات ، الـكويت ، ص ١٧٨ . مغامرة العقل الأولى فراس السواح ، دار الكلمة ، بيروت ، ١٩٨٠ ، ص ٢٢١.

(١٢) د. فاضل عبدالواحد: عشتار ... مرجع سابق ، ص١٥٨ .

(١٣) عباس محمود العقاد. الله ، دار الهلال ، القاهرة ، سبتمبر ١٩٥٤ .

(١٤) چان بوتيرو: الـديانات عند البابلـيـين ، ترجمة وليد الجادر ، جامـعة بغداد ، ١٩٧٠ ، ص ٨٨ وما بعدها.

(١٥) قرآن كـريم. سورة البـقرة. الآية ١٠٢ . راجـع تفسـير مـحمد فـريد وجدى. الـقرآن المفسر ، دار الشعـب ، القاهرة ، ص ٧٩٤.

(١٦) الطبرى. تفسير الآية ص ٣٤٣ ـ ٣٤٦.

(١٧) المرجع السابق. ص ٣٤٥.

(١٨) ملاحم وأساطير الأدب السامى. دار النهار ، بيروت ، ص٢ ، ملحمة البعل. د. أنيس فريحة ، ص ١١٩.

كلهم جاءوا من فارس

أحدث مقتل أبى مسلم الخراسانى رجة عنيفة ليس لدى الايرانيين فقط ، إنما لدى كل أبناء البلاد التى فتحها المسلمون . فقد تأكد «الموالى» أن العرب مصرون أن يكونوا وحدهم فى الصورة لأنهم أقارب نبى الإسلام وعشيرته . وفى فارس وحدها ـ على سبيل المثال ـ ظهرت «ديانات» كانت خليطاً بين الديانات السماوية الثلاث وبين التراث الفارسى. بعدها اضطر الفرس للخلط بين القديم والجديد ، فألهوا أبا مسلم الخراسانى ، واعتقد بعضهم أنه لم يقتل «إنما شبه لهم»... وقد رفعه ربه للسماء (!!)

وسارع «الخراسانيون» بالادعاء بتنزه «أبو مسلم» عن القتل، لأنه لم يكن بشرا ، إنما كان ملاكاً من السماء ، وظهر لأهل الأرض فى شكل إنسان لكى يغيرمفاهيم كثيرة ، ثم نزل للأرض لرسالة معينة كان عليه أن يوصلها لأهل الأرض ، لذلك لا يمكن لبشر أن يقتله ، فلا استطاعة للأرضى أن يؤذى من هو ليس أرضياً أو ملاك قادم من السماء ، ومنهم من اعتبر الخليفة المنصور نفسه (قاتل أبومسلم) إلها ، فالخالق هو الوحيد القادر على قتل «المنزه» عن القتل ، و«الله» وحده هو القادر على سلب أى مخلوق «حتى الهابط» من السماء حياته وطالما أن المنصور هو قاتل الخراسانى ، فإن المنصور هو الله ، وإن قصره هو بيت الله.

وظهر إيرانى اسمه «سندباد»[١] زاعماً أنه «أبومسلم» من جديد ، وأن روح أبومسلم قد حلت به ، ودخلت جسمه وحولته لشخص صالح عظيم الموهبة فى دعوة بقية الخلق لمعرفة الخلق... ومن خلق الخلق ، وآمن الذين اتبعوا ديانة سندباد أنه النبى المختار ، وهو أبو مسلم الخراسانى فى صورة مقاتل ، وأنه سيظهر بعد مماته بشكل جديد وروح جديدة فى جسد آخر ، كذلك آمن «سندباد» وأتباعه أن قاتل أبى مسلم «الأول» لابد أن يلقى جزاءه على يد «أبو مسلم» الأخير ، أى الشخص الذى تنتقل له روح «أبومسلم» أخيراً قبل «قيام القيامة» وحساب الناس على ما اقترفوه من أفعال . فدم أبى مسلم لن يراق هدراً ومهما تتابعت السنون لابد لقاتله من جزاء، وحتى يتأتى هذا الجزاء على يد «مخلص» فى روح أبى مسلم الأخير ، سيخطئ البشر ويظلون فى طغيانهم يعمهون... يضيع فيهم الحق ، ويفنى فيهم الضعيف ، وآمن أتباع «سندباد» أن حسابهم يوم القيامة لن يكون شديدا ، لأن «أبا مسلم» الذى هو «سندباد» قتل ليمحو خطايا بنى خراسان ، وتقديم نفسه

قربان «لله» الخالق الوحيد لهذا الكون ، صاحب الصفات العديدة المميزة ، أهمها أنه متناسخ الروح ، يحل كل مرة فى جسد واحد من أتباعه ، على أن يموت كل من تحل فيه روح الله «لتخليص» البشر من أخطائهم ، وعند بعض «الخراسانيين» ... أبومسلم لم يمت ولم يقتل ، فقد رفعه ربه للسماوات ونجاه من قومه ، وكذلك «سندباد» روحه لم تمت ، لأنه كخالقه حى دائم(!!)

❑

بحث «الفارسيون» عن مساحة لنشر تراثهم الفكرى القديم على العالم ، بعدما قيدهم «بنوا أمية». لم يكن غرض الفارسيين محاربة الإسلام من داخله ، إنما حاولوا فرض ثقافتهم ولو مرة واحدة ، لذلك انتصروا لبنى العباس على بنى أمية فى محاولة للبحث عن دور ثقافى خصوصاً أن الأمويين ألغوا احتمال أى مساهمة فارسية.

لقد أراد الفرس أن يلعبوا دوراً ما فى ظل الحكم العباسى ، والصدمة كانت شديدة فى مقتل «أبى مسلم» ، فقد كان الطريق الوحيد لآمال ظهور الفرس فى ظل حكم ناشئ طمعوا فى مساعدته ، لذلك خرج «الخراسانيون» و«السندباديون» و«الرواندیون» منادين بدم أبى مسلم الخراسانى ... وديانات جديدة.

ابن «الراوندى» كان من المفكرين ... لم يكن فى عصره من هو أقدر منه على الكلام والسفسطة ، وقلب الحقائق(٢). ويقال أنه كان حسن السير والسلوك أول حياته ، خجولاً ، لكنه تحول فجأة دون سبب. قيل ـ أيضاً ـ أنه ألف أول كتبه من أجل يهودى فى «الأهواز» كان معلماً له ، وفى بيت ذلك اليهودى مات «ابن الراوندى» بعد زرع كل ما يزعزع الإيمان فى قلوب عباد الله ، من المسلمين. تضاربت الأقوال فى تاريخ ميلاد وتاريخ موت ابن الراوندى ، لدرجة أن بعض الرواة اختلف عن الآخرين فى خمسين سنة كاملة ، فمنهم من جعل «ابن الراوندى» فى أربعينيات عمره عندما مات ، ووضعه الآخرون فى الثمانين. إلا أن هذا لا يمنع أن «ابن الراوندى» شخصية قلقة ، لم يستقر على رأى ولم يؤمن بقرار واحد ، وكان يبيع الكلام نظير أجر.. يقول لمن يدفع أكثر.

وقال الطبرى المؤرخ أن «ابن الراوندى» لا يستقر على مذهب ، ولا يثبت على حال. حتى أنه ألف كتاباً صغيراً لليهود يرد به على الديانة الإسلامية لأجل أربعمائة درهم ، ولما أخذ المبلغ أشاع أن لديه ما ينقض به الكتاب الذى طلبه اليهود وعرض بيعه على المسلمين ، لكن لحقه اليهود ودفعوا له مائة دينارا أخرى.

أشهر كتب «ابـن الراوندى» «التاج» الذى يؤكد فـيه أن العالم أزلى لـم يخـلقه خالق ، ولا ينظم أفـلاكه أحد. وكتاب «الزمردة» وكتـاب «الفرند» ثم كتاب «اللـؤلؤة» و«الدافع» و«القضيب».

فى «الزمـردة» قال «ابن الراوندى» «إن البـراهمة (وبعض الهـنود) يقولون إنه قـد ثبت عندنا وعند خـصومنا أن العقل أعظم نعـم الله سبحانه وتعالى على خـلقه ، وأنه هو الذى يُعرف به الـرب ونعمه ، ومن أجله صـح الأمر والنهـى والـترغيب والترهيـب ، فإن كان الرسول (يـقصد محمـد ﷺ) يأتى مؤكـداً لما فيه التـحسين والتقـبيح والإيجـاب والحظر ، فساقط عنا النظـر فى حجته وإجابة دعوته ، إذ قد غنينا بما فى الـعقل عنه ، والإرسال على هذا الوجه خطأ ، وإن كان بخلاف ما فى العقل مـن التحسين والتقبيح والإطلاق والحظر. فحينئذ يسقط عنا الإقرار بنبوته».

يقصد إما أن تـكون رسالة محمد ﷺ متفقـة مع العقل وأحكامه وإما مخـالفة له ، فإذا كانت متفـقة كنا فى غنى عنـها لأن عقولنا أفضل ، وإذا كـانت دعوته ضد العقل ، فـلسنا بحاجة إليها لأننا نـريد أن يكون العقل زمامنا ، وحليفنا ومقياسـنا فى الرجوع نهاية الأمر. رسالة النبى ﷺ فى الحالتين رسالة لا حاجة لها ، ولا حاجة لنا بها.

قال أيضـاً : إن محمد (عـليه الصـلاة والسلام) قد أتى بمـا كان منافـراً للعقـول مثل الصلاة ، وغـسل الجنابـة ورمى الحجارة والطـواف حول بيت (لا يـسمع ولا يـبصر) ، ثم العدو بـين جبلين لا ينـفعان ولا يضـران ، وهذا كله مما لا يـقتضيه عـقل ، فما الـفرق بين الصفا والمروة إلا كالفرق بين أبى قبيس وحرى (جبلين فى مكة) ، وما الطواف على البيت إلا كالطواف على غيره مـن البيوت ، إن محمد قد شهد للعقل برفعـته وجلالته ، فلم أتى بما ينافره إن كان صادقاً؟».

أما عن القرآن فقـال: «إنه يحتمل أن تكون قبيـلة من العرب أفصح من القبـائل كلها ، وأن عددا من مواطنـى تلك القبيلة أفصح مـن باقى القبائل ، ويحتمـل أن يكون واحد من مواطنى القـبيلة الفصحاء أفـصح من الباقين... فلابد أن فـصاحته قد تستعـصى على كل الآخرين ، فما بالك بغير العرب... هل يفهمونه؟!

والمعنـى... إن المسلمـين يرون أن القرآن معـجزة نزلت علـى العالم رغـم أن فى هذا العالم من لا يفهم اللغة العربية ، لذلك فالمسلمون غير منصفين ، لأنه إذا كان هذا الكتاب نزل للعالم كله فلابد أنه كان ينزل بلغة يفهمها العالم كله.

أما الملائكة الذين أنزلهم الله تعالى يوم غزوة بـدر لنصرة النبى (بزعم) المسلمين ، كانوا ـ فى رأيه ـ مغلولى الأيدى والأرجل قليلى البطش ، لأنهم ـ على كثرة عددهم ـ واجتماع أيديهم على أيدى المسلمين ، لم يقتلوا زيادة عن سبعين رجلاً فقط.

وغير «ابن الراوندى» ظهر «ابن السـوداء» ، من أهل الحيرة ، أعلن إسلامه ، ثم أراد أن يكون له مركز ما بين البشر ، فخرج بتفسير للتوراة ، يقول إن لكل نبى قديم وصى ... وإن على بن أبى طالب وصى محمد ... وإنه خير الأوصـياء ، كما كان محمد خير الأنبياء ... أما هو (ابن السوداء نفسه) فوصى على بن أبى طالب لذلك سمى نفسه وصى الأوصياء ، ووصى على وصـى الوصى ... حركة ابن السـوداء مثلها مثل حركـات مشابهة كثيـرة منها «البيانية» و«المـغيرية» و«الخطابية» و«المنصوريـة» و«الكاملية» و«السسيانيـة» ... ثم «البابية» و«البهائية».

والبيانيين[٣] ، أتباع «بيان بن سمعان» الذى ادعى النـبوة ـ أيضاً ـ ثم دعا لألوهية علىّ والحسن والحسين ، أمـا هو فوكيلهم علـى الأرض ، لأنهم يوحون إليه من قـبورهم ، التى ليست إلا رمزاً لهم على الأرض ، وهم لم يموتوا ، فقط صعدوا للسماء فى آخر المعجزات الإلهية ، وأكـد «بيان بن سمعان» أنـه لا قيامة كما يزعـم القرآن وأن قيامة الشـخص تقوم بانتقال روحه من جسد إلى جسد ، من مكان لمكان ... ودعا قبل موته لألوهية على بن أبى طالب وحده ، وعبادته ، ثم كـفّر أبا بكر الصديق وعمر وسائر الصحـابة ، وانتهى المطاف لقتله بالعراق على يدخالد ابن عبدالله القسرى.

ثم ظهر أبو الخطـاب «محمد بـن أبى زينب» المـنتسب لبنى أسد ، والـذى نسب نفسه ـ فيما بعـد ـ إلى الإمام جعفر الصادق ابن الإمـام محمد الباقر. ادعى أبـو الخطاب الإمامة لنفسه بعدما طرده جعفر الصادق من بلده ، وزعم أبو الخطاب أن الأئمة أنبياء ، وأنه إمام ، وأن الإمام جعفر الصادق إله. ولأن أبو الخطاب نبـى خيّر ، أحل الخمر والزنا ، وأمر أتباعه بترك الصـلاة والنهى عن الزكـاة ، ثم نهى ـ أيضاً ـ عـن الحج لبيت الله دون الدعـاء لجعفر الصادق الذى هو الله ... أو هـو الإله الجديد ، وأخرج أبو الخطاب أحاديـث قدسية أكدت الربوبية لجعفر الصادق ومن بعده من الأئمة ، فقال ... إنه دخل على جعفر الصادق ، فنظر له الصادق وقـال: «أبـا الخطـاب ، إننى أنـا الله ، وأنت رسولى إلى خلقى ... مـن كفر بك كفر بى ، ومن آمن بك آمن بى ... فأنت لسانى ورسولى فى عبادى».

ومثل «أبـو الخطاب» ... ادعى «المنصـور العجلى» هو الآخـر النبوة ، وزعم أتبـاعه أنه

صعد للسماوات فى طفولته ... وأن الله قد مسح على رأسه قائلاً له: «اذهب فبلغ عنى» وأكد ما قال «المنصور» من طائفة «الخرمية» (وهم جماعة ممن قدسوا فرج المرأة وأية ثقوب فى جسدها) فقد نادوا بشيوع النساء ، وحرموا الزواج ... فالمرأة عليها أن تبقى دون زواج لإمتاع أكبر قدر من الرجال.

وظهر البرامكة الذين ينتسبون لفارسى اسمه «بابك الخرمى»[٤] ، وهو أحد الذين خرجوا ثائرين لدم أبومسلم الخراسانى بعد مقتله ، ودعا «بابك» إلى إحياء العقائد الفارسية القديمة ، التى تبيح كل الملذات ، وتنادى بمشاع المال والنساء ، وتقول بأن الأصل فى الكون ليس إلا صراعاً بين النور والظلام.

و«الخرمية» سموا أيضاً «بالقرامطة» نسبة إلى «حمدان قرمط» أحد دعاتهم ، و«الخُرم» المنسوب له الخرمية لفظ فارسى يعنى الشىء اللذيذ الطيب ، الذى يرتاح الإنسان لمشاهدته.

وعرف الخرمية والبرامكة فيما بعد بـ«المزدكية» وهم أهل إباحة كل المحرمات السماوية من المجوس ، وقد صبغوا ثيابهم باللون الأحمر أثناء قيادة «بابك الخرمى» لهم ، وقالوا أن «بابك» تحالف مع الشيطان ، بعدما رأى أنه الوحيد الذى استطاع أن يعصى خالقه ، لذلك فهو قوى وجبار ومثير. ورأى «بابك» أن التمتع بكل الملذات واجب ... ورأى - أيضاً - أنه لا حرام فى الحياة ، والرادع الوحيد للإنسان هو النفس ، فإن طلبت نفسك شيئا تستطيعه ، أعطها اياه ، وإن منعتها غضب شيطانك ، لأن لكل إنسان شيطانا ... وعلى كل إنسان أن يطيع شيطانه. ومن القرامطة ظهر أبو طاهر الجنابى الذى انتزع الحجر الأسود من الكعبة وهرب به للشام.

وظهر «نباد» الذى عاش بضع سنوات بالصين ، وادعى النبوة ، وكان أن صعد ذات ليلة لمعبد بأعلى أحد الجبال بفارس دون أن يراه أحد ... وفى الصباح نزل من مخبئه مرتديا قميصاً أخضر فاقعا ، فالتقى بزارع يحرث أرضه ، ولما اندهش الفلاح من «لبسه» ... قال «نباد» أنه هبط لتوه من السماء ، وهناك شاهد الجنة والنار وتلقى تعليمات معينة ... رسالة رأى ربه أن ينزل بها للناس ، وألبسه ربه هذا القميص ، وأرسله هاديا ، وداعيا باسمه ، وسراجاً منيرا.

وانتشر الخبر بسرعة ، وجاء الفلاحون كلهم ملتفين حول رسولهم الجديد يستمعون اليه ويسمعون منه ، فما كان منه إلا أن كتب كتاباً مقدسا بالعربية والفارسية ودعاهم

للصلاة للشمس سبع مرات يومياً على أساس أن حولها سبع كواكب ثم حرم ذبح الحيوان ؛ وأكل أى روح ، كذلك حرم الزواج وأباح اللواط وفيما بعد قيل أن «نيباد» مات متحالفاً مع «الظلام» ضد «النور» ، وحصل من حليفه على وعد أن يظل «الظلام» مناصراً لأتباع «نيباد» مهما كان ، لذلك لبس «النيباديون» الملابس السوداء ، ودهنوا وجههم بالزفت والقار.

وكما فعل «نيباد» فعل أيضاً «المقنع» والمقنع كان شاباً دميماً ، أعور العين ، صنع لنفسه قناعاً من ذهب يشبه قناع توت عنخ آمون ، وزعم أن هذا الذهب وجهه الحقيقى ، أى أن وجهه ذهب وكل ما يقوله ذهب فى ذهب ، ولأن وجهه الخفى يشع نوراً وضياء ، فهو ليس بشرا ، وهو إله يستوجب عبادة عباده من البشر.

لقد زعم المقنع أنه خالق الخلق فحرم قتل الحيوان ، ثم أصدر أوامره بالصفح عن الشيطان الذى ظل طريداً لكل الديانات منذ الأزل ، وقد أطلق «المقنع» سراح الشيطان من مكان ما كان قد حبسه فيه تحت الأرض ، وأنكر أن الخليفة المنصور قتل «أبا مسلم الخراسانى» ، إنما قتل شيطاناً تشبه له فى صورته.

و«المقنع» أقنع أصحابه أنه كان أثيرياً. أو كان هواء ، لم يكن جسمه مادياً ، خلايا ولحم ودم وشحم وعظام ... وأنه يظهر قمراً فى الأفق مرة ، ومرة أخرى نجماً فى السماء ، وقيل أنه جمع لنفسه مقادير ضخمة من الطعام وأحاط نفسه بعدد لا بأس به من النساء ، وحصن نفسه داخل قلعة على حدود العراق ، وكان لأتباعه «كلمة سر» لا يدخل من لا يعرفها ، ورغم ما اتخذه من احتياطات ، هاجمته قوة من العباسيين حاولوا قتله إلا أنه قاوم ... وقاوم ، ولما أيقن أن نهايته قد اقتربت ، أشعل النار فى القلعة وأحرق كل من فيها وما فيها من بشر ومتاع وثياب ودواب ... ثم ألقى بنفسه فى النار آخر الأمر.

ـــ

المؤرخ عبدالعزيز الدروى أكد فى كتابه «العصر العباسى الأول» أن زنديق بالعربية تعنى متبع كتاب «الزند» ... و«الزند» هو شرح كتاب «الأفستا» لزرادشت ، وقد اهتم الخليفة المهدى بأمر الزنادقة والحركات الإلحادية إلى حد أنه أنشأ ديواناً خاصا أو وزارة جديدة أسماها «ديوان الزنادقة» ... وخول له سلطات واسعة جداً ، واهتم «ديوان الزنادقة» بتتبع كل الحركات الغريبة ، وأسر وقتل أصحابها وتلاميذها وتابعيها وكل من له علاقة بها ، واختص موظفين فى هذا «الديوان» بتحليل أصول كل الديانات الغريبة وتجميع أكبر

قدر من المعلومات عنها ، ثم ترتيبها وقياسها بكل الحركات وإعدام كل من تلتصق به التهمة ، كذلك أنشأ المهدى سجناً خاصاً بأعضاء هذه الجماعات ومدعى النبوة وأصحاب الديانات الجديدة سماه سجن الزنادقة.

وامتلأ سجن المهدى بأتباع الديانة «المانوية» الخليط من ديانات عديدة أو هى عقائد كثيرة قديمة فى ثوب جديد ؛ خليط من البوذية والزرادشتية أعلن مانى مؤسسها أنه تلقاها من جديد بمعان أخرى لم يعرفها أحد قبله ، لذلك نقلت «المانوية» عن المسيحية وديانات الفراعنة المصريين القدماء. وتأثرت أكثر «بزرادشت» الفارسى ، واستعار مانى أفكار المجوس أصحاب «الأفكار الغريبة» ، فأصبح هو الآخر غريباً ، وقال إنه لا يوجد إله واحد للكون ، إنما خالقان كبيران ، يتصارعان على الملك ، ويمثل أحدهما قوة الشر والظلام والبؤس والفساد ، فهو إله القسوة ، ورب الكره والخديعة ، أما الآخر فيمثل كل الحب والخير والعطاء ... كل السعادة الموجودة على الأرض وفى السماء ؛ كل الهناء الموجود فى كل فج عميق ، فهو إله الضوء ، ورب النور.

ورأى «مانى» أن الشر لا يقل خطورته أبداً فى وجود الخير ، بل يزداد ويتكاثر وتتغير أساليبه وتتلون ، ومن ثم فالصفتان ؛ الخير والشر لهما نفس القوة ، لأن لكل منهما إلها قادرا ، واعيا لقوة الإله الآخر ، فكلاهما قوة لا يستهان بها ، والصراع بينهما دائر ، فإن ضعف واحد تغلب عليه الآخر ، ومن ثم انتهى هو ومخلوقاته ولن يحدث أن ينتهى أحدهما ، فالعالم ، يفنى بهذه السهولة ، والصراع بدوره سيستمر طالما أن الاثنين لن يكفا عن تدبير المؤامرات والدسائس لبعضهما البعض.

«مانى» قال إنه مادام الخير والشر هما عنصرا الحياة أو مادة الحياة الأولى ، فهما ـ بالتأكيد ـ يسكنان الجسد الإنسانى ، لأنه يتكون من مادة الحياة الأولى ، لذلك لا يصح لأتباع «مانى » أن يتكاثروا ... فإنهم لو فعلوا يزداد الشر كما يزداد الخير ، وبالمواليد الجديدة. شر جديد ، تماماً كالخير الجديد ، ومع أننا فى حاجة للخير إلا أننا نرفض الشر ، ولا داعى لأن يأتوا بخير جديد مادام الشر سيتكاثر هو الآخر.

لذلك حرم «مانى» العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة ، وحرم الزواج ، والتكاثر والتناسل ، والنساء عند «مانى» حرام. ممنوعات وممنوعة جلساتهن ولياليهن. وحينما اكتشف «مانى» ما كان فى نفس أتباعه من شك ، أعلن أنه لا إيمان لغير الصفوة ، أما من آمن دون ترك الجنس والشراب ، فقد سماهم «المستمعون» ... أو «أنصاف المؤمنين».

والجنة من نصيب الصفوة ، أما المستمعون فيدخلونها أيضاً لكن بعد مشقة وعناء شديدين تكفيراً عن ذنوبهم.

ولد مانى فى العراق ، الذى كان في ذلك الوقت جزءاً من الإمبراطورية الفارسية ، وكأكثر الفارسيين فى زمانه ، آمن مانى إلى حد التشبع «بزرادشت» وقصصه وتصوراته ، وكتبه وعقائده ، ولما وصل الثامنة عشرة من عمره ، سرعان ما طرأت تغيرات كثيرة على فكره ، وكان أن بشر بديانته الجديدة فى العشرينيات من عمره وبدأ دعوته فى الهند ، وهناك استطاع استقطاب أحد حكامها ، ثم عاد إلى فارس ، فالحال لم يعجبه فى الهند... العقائد كثيرة والديانات أكثر. الديانة الجديدة هناك لا تعد سبقاً ، لا تبهر ، ولا تدهش ، والأمر فى فارس مختلف.

وفى عهد «شابور الأول» كون «مانى» أتباعاً كثيرين ، وظل معهم حتى عهد «هرمز الأول»... أى ظل بإيران أكثر من ٣٠ سنة ، أوفد خلالها مبعوثين وسفراء إلى كل بلاد الأرض ، ونجح ـ عن طريق هؤلاء ـ فى نشر ديانته وتعاليمه فى أجزاء كثيرة من العالم ، فانتشرت ديانته غربا حتى أسبانيا ، وشرقاً حتى الصين ، ونافست المسيحية فى القرن الرابع الميلادى ، وقيل أن أغسطين نفسه ظل على إيمانه «بمانى» وعقيدته تسعة أعوام. والقديس أغسطين ألصقت به كل الموبقات... قالوا أنه آمن «بمانى» ودعا «للمانوية» أكثر من تسعة أعوام. وقالوا أنه توقف عن التبشير بالمسيحية فترة طويلة من حياته التى ألحد فيها تماماً ونفى وجود الله.

وبقدوم عام ٦٠٠ ، انحسرت المانوية كجزر البحر ، وتلقت ضربات قاصمة وموجعة بعد أن أصبحت المسيحية الديانة الرسمية للإمبراطورية الرومانية ، وطرد المؤمنين «بمانى» خارج الحدود الرومانية بعد أن عذبوهم عذاباً شديداً ، إلا أن أتباع «مانى» ظلوا أقوياء فى العراق وإيران ، وانتقلت ديانتهم لآسيا الوسطى وتركيا وغرب الصين ، ثم أصبحت الديانة الرسمية لمنغوليا وجزيرة تايوان بعد سنوات قصيرة.

❑

ومثلما أفرزت الظروف المحيطة رجالا مؤمنين بالمانوية ، افرزت الشيعة أكثر من ثلاث وعشرين فرقة بعضهم يؤمن بخرافات بينما يحاول البعض إثبات نبوة آخرين ، وما بين تأويل هذه النصوص وإثبات «ألوهية» على بن أبى طالب ضاعوا.

فيحكى أن أحدهم اسمه أحمد بن حابط قال أن المسيح به جزء إلهى ... وجزء إنسانى والمسيح سيحاسب الناس على أعمالهم يوم القيامة ، لأن الله الذى هو الإله الأكبر الذى يحمل كل الجزء الإلهى ، قد أوكله بهذه المهمة ، ويقولون أن تفسير الآية التى تقول ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ مقصود بها السيد المسيح. أحمد بن حابط كان مسلماً ، وأتباعه كانوا مسلمين ، إلا أن فكرة ألوهية المسيح طرأت عليهم فجأة دون سبب. وقال أن الآية التى تقول بأن الله سوف يأتى يوم القيامة فى الغمام تقصد المسيح بن مريم أيضاً ، وقال إن الحديث النبوى «إن الله تعالى خلق آدم على صورة الرحمن» كان يقصد به المسيح ، وأن السيد المسيح ، طبقاً لهذا الحديث قد خُلق على صورة الله (سبحانه وتعالى). وقال أحمد بن حابط أن المسيح لبس الجسد الإنسانى كدرع له وحماية ... حماية لنفسه ، وحماية للذين يرونه ... لأنه لو لم يكن قد فعل ، لما استطاع أن ينظر إليه أحد لأن نوره شديد ، ونور الألوهية فيه أشد.

وظل أتباع بن حابط مؤمنين بتناسخ الأرواح ... فقالوا أن الأرواح لا تموت ، إنما تنتقل من مكان لمكان حيث الحساب والعتاب أو الجزاء بالدخول فى أجساد آخرى فى أماكن أخرى.

قالت «الحابطية» إن الإنسان خلق مرتين ، ففى الدنيا الأولى ، أمره الله أن يشكره ، وأن يصلى له دائماً بكرة وعشيا ، فأطاع الله البعض ... وعصاه آخرون ، فمن أطاع الله ، كوفئ بالاستمرار فى الدنيا الأولى ، ومن لم يطعه ، أنزله للحياة الدنيا ، وفى دنيانا ـ البس الله الإنسان العاصى ، الأجسام التى نراها ، وابتلاه بالرخاء والآلام والملذات الإنسانية بأشكال مختلفة ، كل على قدر ذنوبه فمن كانت معاصيه أقل أعطاه شكلاً جميلاً ، وآلاماً أقل ، أما صاحب الذنوب الأكثر ، فصورته أقبح ، وآلامه متعددة.

سقراط أيضاً قال بتناسخ الأرواح ، وفى الإسلام قالت به فرق كثيرة من «الشيعة» ... وهؤلاء قالوا أن أرواح الصديقين والأنبياء وصحابة النبى محمد ﷺ عندما تخرج من أبدانهم ، فإنها لا تذهب كالأرواح العادية إلى حياة التناسخ ، إنما تتصل بعمود فى السماء اسمه عمود «الصبح» ... وتظل تعلو وتعلو حتى تعلو فوق النجوم ، ولما تصل أرواحهم لهذه الدرجة ، يكون السرور والفرح الدائم ، أما أرواح المشركين بالله فإنها تتناسخ فى أجسام الحيوانات حتى تصفو هى الأخرى وتلتحق بعمود النور فى السماء.

أحمد بن حابط اعتقد أن الخلق على خمس مراحل الدنيا الأولى وهى التى فيها أكل

وشرب وزواج وأنهار مياه. والدنيا الثانية ليس فيها أكل وشرب ولا زواج ؛ إنما دنيا روحانية صرفة ، غير جسمانية. أما الدنيا الثالثة ، فهى دنيا العقاب وهى النار ... والنار مستوى واحد ، ليس فيها مستويات كثيرة فيما كانت الدنيا الرابعة هى التى خلق الله فيها الإنسان أول مرة قبل أن يهبط إلى الدنيا الأولى ، أما الدنيا الخامسة فهى التى يكلف فيها الله الإنسان بما يجب ان يفعله ... فإن عمله ـ وجب عليه أن يذهب للدنيا الثانية ، وإن لم يفعله ذهب للنار.

واعتقدت الحابطية أن العقل هو الخلق المساوى للخالق وإن ما ورد فى الأثر من أن الناس سترى الله يوم القيامة يقصد إن ما سوف يشاهده الناس هو العقل فى صورة إنسان ، وقالوا إن النبى ﷺ قال (إن أول ما خلق الله تعالى العقل فقال له أقبل فأقبل ، ثم قال له أدبر ... فأدبر فقال وعزتى وجلالى ما خلقت خلقاً أحسن منك ... بك أعز وبك أذل وبك أعطى وبك أمنع) ولأن العقل هو الذى سيظهر يوم القيامة للناس ، فإنهم ـ الحابطية ـ يرونه كما يرون القمر ليلة البدر ، لكن واهب العقل وخالقه فلا يرى أبداً.

أحمد بن حابط زعم أن كل نوع من الحيوانات أمة وحدها ، أى شعب وفى كل أمة أو شعب من هؤلاء رسول مثل النبى ﷺ اعتماداً على قول الله ﴿وإن مِّنْ أُمَّةٍ إلاَّ خلا فِيها نَذِير﴾ [سورة فاطر : ٢٤] وإن هذه الحيوانات لها طريقة أخرى فى التناسخ. غير طريقة الإنسان.

ومن الشيعة ظهرت طوائف اعتقدت فى ألوهية على بن أبى طالب ، اشهرهم «الكيسانية» اتباع كيسان خادم على بن أبى طالب ، اتبع كيسان مجموعة كبيرة من الإيرانيين تعتقد أن على بن أبى طالب قد أعطى كل العلم الإلهى والدنيوى «لكيسان». فعرف الأسرار كلها ، وعلم تأويل ظاهر القرآن وباطنه ، وعلم علوم النفس كلها وقال كيسان أن الدين طاعة رجل ... وقال إن الصلاة والصوم والزكاة كلها تنقطع ، ولا يصبح الشخص مُكلفا بها بعدما يعرف الرجل الذى يجب أن يطيعه ... وترك أصحاب «كيسان» كل فروض الإسلام لأنهم عرفوا «كيسان» وتأكدوا أنه هو الرجل صاحب الدين الذى لو عرفوه سقطت عنهم كل الفرائض ، وعند كيسان الأرواح تتناسخ ، وهناك «الحلول» و«الرجعة» هناك أيضاً شخص واحد لا يموت ، ولا يجب له أن يموت ، هو على بن أبى طالب ، وحتى إن قيل أنه مات ـ فإنه سوف يعود ـ ولابد أن يعود من جديد ـ فمعنى

الرجعة أن الشخص يعود بعد موته للحياة من جديد . أما الحلول ، أن تحل روح الخالق فى مخلوق ما وعند الكيسانية أن «على» و«كيسان» هما من حلت روح ربهما بهما.

وظهر المختار بن عبيد... وكان من الخوارج ، ثم صار من أتباع عبدالله بن الزبير بن العوام ، وقال بألوهية ابن الزبير أو نبوته ، ثم تحول مختار فأصبح شيعياً... وبعدها... صار كيسانياً... وقال إن نبى الزمان هو «محمد بن الحنفية» الأبن الثالث لعلى ابن أبى طالب... ثم تقلب وقال إن نبى هذا الزمان هو الحسن... وبعده قال الحسين ؛ وكان يدعو الناس لكل هؤلاء «الأنبياء» جميعهم... إلا أن «محمد بن الحنفية» لما علم بما يقوله مختار تبرأ منه وطرده ، وجلس يسخف مزاعمه بين الناس ، لكن مختار ظل ينادى بأن محمد بن الحنفية هو النبى غير مهتم بما يقوله محمد بن الحنفية نفسه عن نفسه.

وقال مختار أنه يجوز «البداء» على الله تعالى ، و«البداء» هو أن الله كان يعلم أن شيئا سيحدث ، ولما حدث خلافه اكتشف سبحانه أن علمه الأول ليس صحيحاً ، لأن شيئاً غير الشىء الذى توقع أن يحدث قد حدث. مختار قال هذا بعدما كان يتنبأ لأصحابه بالمستقبل ، فإن كان ما قال زاد اعتقاد أصحابه فيه وفرحوا ، وإن لم يكن ما قال ، أو لم يحدث الذى قاله ؛ قال مختار إن الله كان يعلم كذا ، لكنه اكتشف أن «كذا» ليس صحيحاً لذلك غيره. مختار كان «يوحى إليه» كما يقول ، وكما اعتقد أصحابه ، وقال إنه إذا كان الله قد أجاز النسخ (أى الإلغاء) فى أحكام القرآن ، جاز له ـ أى لله ـ أن يكون هناك «بداء» فى الأخبار والأحداث.

ومختار كان عنده كرسى قديم أخذه من شخص ما ، فغطاه بالحرير ، وزينه بأنواع كثير من الزينة ، وقال أن هذا الكرسى ليس ملكه ، إنما كان ملك على بن أبى طالب ؛ واعتقد أصحاب مختار أن هذا الكرسى فى مكانة «تابوت العهد» لدى بنى إسرائيل وكان عندما يحارب مختار أى طائفة أخرى ، كان يضع الكرسى فى الصف الأول من القتال. وقال إنه فيه «السكينة للموتى» والفرح «للباقين على قيد الحياة»... وقال أن الملائكة فى الحرب تحارب من على هذا الكرسى مع جيشه... أما لو قارب جيشه على الهزيمة ، فإن الملائكة تتنزل فى صورة «حمام أبيض» لتحارب معه. وحكى «الطفيل ابن جعدة» أنه نفذ ماله يوم من الأيام... فرأى جار له يبيع الزيت ووجد عنده كرسى منظره غريب ومتسخ اتساخاً شديداً... فقال الطفيل للزيات دعنا نربح صفقة من هذا الكرسى... فأخذه من الزيات ، وغسله... وقدمه للمختار وقال له إن هذا الكرسى هو كرسى على بن أبى طالب... وإنه

أمانة يجب أن يردها إلى المختار ، وأن فى الكرسى شيئاً ما من على ابن أبى طالب ، فباعه للمختار بـ ١٢ ألف درهم ... وجمع المختار الناس ، وقال لهم إنه لم يكن فى الأمم السابقة مثلما جعله الله لهذه الأمة ، وأعطاهم الكرسى وقال إنه مثل تابوت بنى إسرائيل (اليهود كانوا يحملون تابوتاً عند الحرب جمعوا فيه متعلقات موسى النبى عليه السلام) ، فلما شاهدوا الكرسى ... كبّروا الله أكبر الله أكبر ، ولما خرجوا للقتال والحرب ... خرج الكرسى على بغل ... ولما انتصروا فى المعركة زاد اعتقادهم فى الكرسى

اما فرقة الهاشمية ، فتنسب لـ «عبدالله بن عمرو بن حرب الكندى» ، الذى قال إن الإمامة خرجت من بنى هاشم إليه ، وإن روح الهاشميين تحولت ونزلت فيه شخصياً ، ومن مذهبه أن الأشخاص والأرواح تتناسخ من شخص إلى آخر ، وأن روح الله أيضاً تتناسخ لذلك وصلت إليه ، وأصبح يعرف الغيب ، فقد حلت فيه النبوة والألوهية فى نفس الوقت ... ولما قال أن الألوهية حلت به ، عبده أتباعه ... وكانوا يقولون «سبحان عبدالله» ... وكفروا بالقيامة لاعتقادهم أن التناسخ يكون فى الدنيا ، والثواب والعقاب فى الانتقال من روح إلى روح ، وقالوا إن تأويل آية ﴿ليس على الَّذين آمنُوا وعملُوا الصَّالحات جناحٌ فيما طعموا﴾ إن من وصل إلى عبد الله وعرف أنه الإمام والنبى والرب ارتفع عنه الحرج فى جميع ما يطعم ، لأن الشخص وقت أن عرف أن عبد الله هو الله ، وصل للكمال والبلاغة فى العلم والقول ، ولما مات عبدالله ، قال أتباعه إنه حى لا يموت ، وإنه سوف يرجع بعد فترة إلا أنهم لا يعرفون قدر هذه الفترة.

ومن أتباعه من قال أن «عبدالله» مات فعلاً ، وأن روحه تحولت إلى «إسحاق بن زيد الحارث الأنصارى» وسموا «الإسحاقية» ... وأباحوا كل المحرمات وعاشوا عيشة من لا يكلفه الله بشئ.

وظهر «أبوجارود زياد بن المنذر الهمزانى» الذى زعم أن النبى ﷺ وصى بالإمامة لعلى بن أبى طالب من بعده ، فعلى هو الوحيد ـ فى رأيهم ـ المؤهل لأن يكون إمام المسلمين بعد النبى ﷺ. وقالوا إن الناس اختلط عليهم الأمر ولم يصدقوا ولم يعوا كلام النبى ﷺ.

وبعد موت على بن أبى طالب اختلفت طائفة الجارودية ، فمنهم من قال أن الإمامة ورثها بعد على ـ رضى الله عنه ـ ابنه الحسين ، ومنهم من قال إن الحسن هو المفروض أن يكون الإمام ... يعنى هو الذى ورث النبوة بعد على .

والإمامة تكاد تكون نبوة فى رأيهم ، فالإمام معصوم ـ ويعلم الغيب ـ ولا يخطئ ـ

وفيه لمحة ما من النبوة وهو بالتأكيد مبشر بالجنة ولا يدخل النار أبداً ، والخليفة المنصور اعتقد أن الإمام أبوحنيفة من أتباع مذهب «الجارودية» ، فحبسه .

والجارودية قالوا أن محمد بن الحسن بن الحسين لم يمت ، وإنه حى ، ولم يصدقوا أنه مات ـ للأبد ـ إنما سيخرج وبعد مدة سيملأ الأرض عدلا ووفاء ومنهم من اقتنع ـ بعد فترة ـ أن محمد بن الحسن بن الحسين مات ، وقالوا أن نور الإمامة انتقل بعده إلى محمد بن القاسم بن عمر بن على بن الحسين ابن على.

سُمى أبو الجارود «بالسرجوب» ، سماه الإمام أبو جعفر محمد بن على الباقر ـ رضى الله عنه ـ وسرجوب شيطان أعمى يسكن البحر ـ كما كانوا يعتقدون ـ مما يدل على معتقدات أبو الجارود التى وجدوها قصصاً وهميّة دخلت الفكر الإسلامى وطوائفه.

ثم ظهر «سليمان بن جرير» ، ويقول أن الصحابة أخطأوا بتركهم مبايعة على بن أبى طالب قبل أبى بكر ، وسليمان كفّر عثمان بن عفان للحوادث التى ارتكبها خلال خلافته. وكفّر «السيدة عائشة» أيضاً ... وكفّر الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله (مع أنهم كلهم مبشرون بالجنة) ، فقد وجدهم لا يصلحون لدخول الجنة ، واعتقد سليمان فى شيئين ... «البداء على الله تعالى» و«التقية». أما التقية ... فهى عدم إبداء الرأى إن كان المخالفون أقوى أو أشد بأساً ... فلو خاف «السليمانى» على نفسه فلا يقول أبداً رأيه الصحيح الذى يتعارض مع غضب الأقوى ، وكان سليمان يتنبأ ، فإذا صح ما يقول كان خيراً ، وإن حدث وكان خطأ فإنه يقول إنما قاله «تقية» ولم يقل الحقيقة لخوفه.

ظهر سليمان أيام الخليفة المنصور فى العصر العباسى ونظراً للصراع بين العباسيين وبين الشيعة ، فقد اشتد عود السليمانية وكثروا ... إلا أنهم كانوا ينادون «بالتقية» ... فلا يقولون آراءهم أبداً خوفاً من العباسيين.

أما «الإمامية» ... فقالوا إن على وريث «النبوة» الوحيد ، والنبى ﷺ أخطأ خطأ «رهيبا» لأنه لم يعين خليفة له ، وكان من الضرورى أن ينص على خلافة على بن أبى طالب حتى لا يتقاتل المسلمون هذا القتال الطويل الذى خاضوه ، ولا كان يجب أن يترك كل شخص فيهم يرى رأياً مختلفاً ، وقالوا أن النبى ﷺ عندما قال (أتقاكم على) كان يلمّح أن على الأولى بالخلافة ، وأنه الأفضل لها بعد موته ﷺ. وكفرت الإمامية كل الصحابة ماعدا على.

وظهرت «الباقرية»... و«الجعفرية»... وهما فرقتان شيعيتان، تنتسبان لمحمد الباقر وابنه جعفر الصادق (أحفاد على بن أبى طالب). وهؤلاء قالوا أنه لا محمد الباقر مات، ولا جعفر الصادق مات هو الآخر، وأنهما سوف يعودان للأرض بعد أن أخفوا أنفسهم لفترات. والباقرية قريبة الشبه «بالناوسية»، أتباع مدعى النبوة «عجلان بن ناوس»، عراقى من البصرة، وقيل إنهم نسبوا لقرية اسمها «ناوسة» فى العراق. «والناوسية» متأكدون حتى اليوم أن جعفر الصادق لم يمت، ومشهور لديهم أن جعفر الصادق قال «لو رأيتم رأسى يهبط منحدراً من فوق الجبل... فلا تصدقوا أننى مت» وقالوا أنه قال «أنا لا أموت أبداً». واعتقدوا أن على مع أنه مات، إلا أن الأرض سوف تنشق عنه فيما بعد؛ يوم القيامة أو قبله بقليل.

وظهرت فرق «الغالية»... والغالية فى اللغة من «الغلو»... والغلو هو إعطاء الشىء ما ليس فيه أو المبالغة، وهم من بالغوا فى حق أئمتهم فرفعوهم لمصاف الآلهة والأنبياء، فقد شبهوا كثيراً من أئمتهم بالله، وشبهوا الله (سبحانه) بالخلق والإنسان. فاشتهروا «بالتشبيه» أى أنهم يشبهون الله بالبشر، ومن «الغالية» انشقت «السبئية» المنسوبون لـ«عبدالله بن سبأ» الذى قال لعلى بن أبى طالب «أنت... انت» يعنى أنت الإله... أنت الله، وانزعج على انزعاجاً شديداً، فنفاه إلى «المدائن» بالعراق.

عبدالله بن سبأ قال أن موسى النبى هو الله وأن تابعه (يوشع بن نون) هو نبى موسى، ولما دخل الإسلام، دخل بنفس الأفكار، قال أن على هو الرب وهو الخالق، وأنه ـ عبدالله ابن سبأ ـ هو رسوله وتابعه الأمين، ولما مات على بن أبى طالب، قالت السبئية أن على لأنه الإله لا يمكن أن يموت، وقال عبدالله لاتباعه بعد ما مات على: أن الجزء الإلهى الذى كان بعلى... يتناسخ فى أبنائه من بعده وكل إمام من أئمة السبئية يحمل جزءا إلهيا من على.

ثم ظهر «أبو كامل» الذى كفّر جميع الصحابة لأنهم لم يبايعوا على، ثم كفّر على بتركه حقه، مع أن هذا لا يمنع أن على نبى مرسل من الله، وأن هناك نورا كان يظهر لعلى، والنور نفسه يظهر لآخرين فيصبح نبوة عند شخص، وإمامة فى آخر، وقال إنه يجوز أن تتحول الإمامة لنبوة؛ فيصبح الإمام ـ بعد ظروف معينة ـ نبيا يوحى الله إليه.

«الكاملية» و«السبئية» اعتقدوا فى تناسخ الأرواح و«الحلول» الذى يعنى نزول روح الله فى السماء لتظهر فى شخص على الأرض، ويقولون أن الله ممكن أن «يظهر» للبشر، الأمر

الذى يتوقف على مـدى صلاح البشر وتقواهم ، وقالوا أيضاً أن روح الله تظـهر كما تظهر أشعة الشمس كل صباح ... والأجسام المؤمنة فقط تسمح أن تدخلها روح الله.

الكاملية ـ حتى الآن ـ يرتبون تناسخ الأرواح فى أربع مراحـل ، «النسخ» و«المسخ» ، و«الفسخ» و«الرسخ». النسخ هو انتقال النفـس من جسد لجسد ، حتى يصل الإنسان لقمة الكمال مـن علوم روحانية وأخـلاقية ، وتنتهـى الرغبة الإنسانـية فى التعلـق بالأبدان ، أما المسخ فهو انتقال النفس الإنسانية من جسد إنسان لجسـد حيـوان ، يناسب النفس ويشبهها فى الصفـات ، فلو كان الإنسان شجـاعا لكنه مخطئ انـتقلت نفسه إلـى جسد أسد ، وإذا كـان جبانـا انتقلـت نفسـه لجسد أرنـب ... وانتقـال الأجساد مـن الإنسان للـنبات. فـهو «الرسخ» ؛ و«الفسخ» أن تنـقل الروح الإنسانية من الإنسان للمـعادن والأحجار، كالحديد والفضة.

ويتفق فى نفس الآراء مـا نشره «العلباء بن ذراع الدوسى» ، الذى يفـضل على بن أبى طالب على النبى محمد ﷺ فيقول أن على هو الذى بعث محمد ﷺ ، لأن على هو (الله) ، أما خطـأ محمد ﷺ فهـو أنه اتخذ الدعوة لـنفسه ولم يدعُ لأبـناء على بن أبى طـالب من بعده ، ثم جـاء من نفس الطائفة مـن قال أن (على) إله وأن محمـد ﷺ إله هو الآخر ، إلا أن على هو الإله الأول ، ومحمدﷺ هو إله أقل من على فى المكانة ... وبعد فترة من الجدل والنقـاش استمرت سـنوات ، اقتنـع «العلبـائية» بأن أصـحاب «الكسـاء» كلهم آلـهة ، لا يفضلون فيهم أحدا عن أحد.

أصحاب الكساء ، هم الذين ذُكروا فى حديث أم سلمة قالت «جاءت فاطمة إلى النبى ... فقال لها ﷺ ادعى زوجك وابـنيك ، فجاءت بهم فطعموا ثم ألقى عـليهم كساء له ... ثم قال: «الـلهم هؤلاء أهـل بيتى وعتـرتى ... فأذهب عـنهم الرجس وطـهرهم تطـهيرا». فقالت أم سلمة : «يـا رسول الله وأنا معهم ، أنا من أهلك ، قال تنـحى ... فإنك إلى خير» فأنزل الله سبحانه وتعالى الآية ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَـطْهِـيـرًا﴾. لذلك يعتـقد «العلبائية» ـ حتـى اليوم أيضاً ـ أن فاطمة وعلـى بن أبى طالب والحسن والحـسين ومعهـم محمد ﷺ روح واحـدة ، انتقلـت من الله ونزلت فـيهم جمـيعاً وكرهوا أن يقولوا «فاطمة» بالتأنيث ... لذلك قالوا «فاطم».

أما «المغيرة بن سعيد البجلى» ... فقد ادعى أن الإمام بعد محمد بن على حفيد الحسين هو محمد بـن عبدالله ، ولما كان محمد بـن عبدالله قد مات ، زعم المغيـرة أنه لم يمت ، ولما

تأكد أنه مات ادعى النبوة لنفسه ، وقال إنه يوحى إليه من رب السماوات ، وقال إن على هو رب السماوات وقال أيضاً أن رب السماوات مثله مثل البشر ، لأن على بن أبى طالب كان مثله مثل البشر ، فالله له صورة وجسم وأعضاء ، ورسم المغيرة صورة لله ، رجل من نور وعلى رأسه تاج من نور ، وله قلب تنبع منه الحكمة ، يشبه إلى حد كبير على بن أبى طالب.

قال المغيرة إن الله (الذى هو على بن أبى طالب) لما أراد خلق العالم والكون والإنسان ، تكلم بالاسم الأعظم ، وفوراً طار فوق رأسه تاج من ذهب ونور ، ثم اطلّع على أعمال عباده ، وكتبها على كفه ، فلما رأى المعاصى الكثيرة ، عرق كفه فتكون من عرقه بحران ؛ أحدهما مالح والأخر عذب ، البحر المالح كان مظلما والبحر العذب كان منيراً ، ولما جاء نور البحر العذب على جسد الله ، استطاع أن يشاهد ظله ، فانتزع عين ظله وخلق منها الشمس والقمر ودمر باقى الظل ، لأنه لا ينبغى أن يكون معه إله غيره حتى لو كان خيال.

وخلق الله المؤمنين من البحر المنير ، وخلق الكفار من البحر المظلم... وأول ما خلقه هو ظل محمد ﷺ... ثم ظل (على) البشرى... ثم عرض على الجبال والأرض أن يحملن الأمانة ـ التى هى منع على بن أبى طالب من وراثة النبوة بعد محمد ﷺ... إلا أن الأرض والجبال رفضتا... وقبل أن يفعلها أبوبكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ وعمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ وعثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ ... وهؤلاء قد غدروا بعلى فى الأرض ومنعوا عنه ميراث النبوة.

وفسر المغيرة الآية التى تقول ﴿وَحَمَلَهَا الإنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾ أن المقصود بها أبوبكر ـ رضى الله عنه ـ ، أما عمر بن الخطاب فقد نزل فيه ـ كما يقول المغيرة ـ ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ﴾.

ولما قُتل المغيرة اختلف تابعوه منهم من قال لم يمت وإنما رُفع للسماء ومنهم من قال أنه سوف يرجع ، وكان المغيرة قد قال لأصحابه أنه سوف يعود ، بعد ما بايعه جبريل وميكائيل فى ركن الكعبة.

أما «المنصورية»... فينسبون لأبى «منصور الجعلى»... وهو الذى قال أن محمد الباقر (حفيد على بن أبى طالب) هو الإمام بعد على بن أبى طالب ، فلما تبرأ منه الباقر وطرده ، زعم منصور أنه الإمام ودعا أصحابه إلى نفسه ، يعنى أن يعبدوه ويطلبوا مغفرته ورضوانه ، وما يقوله يعملونه... وما ينادى به لا يفعلون غيره ، ولما مات «محمد الباقر»

زعم المنصور أنه أصبح النبى ، وظل المنصور يقول عن نفسه أنه نبى حتى صلبه «الحجاج ابن يوسف الثقفى» والى العراق أيام الخليفة الأموى هشام بن عبدالملك ... وقبلها زعم المنصور أن على هو الذى يرسل «الشهُب» فى السماء ليراها الناس ويعرفوا أنه سوف يعود ، وقال المنصور أنه عُرج به إلى السماء ليقابل الله ، وقال أن الرسل بعد محمد لا تنقطع ، لأن الرسائل التى يود الله أن يبعثها لعباده لا تنقطع أبداً ، والجنة رجل أمرنا الله بأن نتبعه . والنار رجل أمرنا الله بالابتعاد عنه ، وقال - أيضاً - أن المحرمات كلها أسماء رجال أمر الله تعالى ألا نتبعهم ... كذلك الفرائض من الصلاة والصوم والزكاة. فهم - أيضاً - رجال أمرنا الله أن نلجأ إليهم ونتبعهم.

ويجوز - كما قال المنصور - أن يستحل المنصورية نساء وبنات وأموال أعدائهم ممن ليسوا «منصوريين» ... أموالهم ونساؤهم حلال ... وقال أيضا أن المنصورى - الذى هو على مذهب المنصورية - لو حدث وعرف الإمام الحالى ... فعليه أن يكتم اسمه ولا يقوله لأحد ومن عرف الإمام ، يسقط عنه التكليف فى الفرائض ، فلا صوم له ولا زكاة ولا صلاة ولا حج.

وقيل أنه عدل أواخر أيامه عن رأيه بشكل ما ، وقال أن أول شخص خلقه الله هو عيسى بن مريم ، ثم خلق بعده على بن أبى طالب.

وظهر «أبو الخطاب» ، الذى قال أن جعفر الصادق (حفيد من حفدة على) هو النبى بعد على بن أبى طالب - رضى الله عنه - فلما علم «جعفر» جنون «أبى الخطاب» ... تبرأ منه أيضاً ، وسماه الملعون وأخبر الناس أنه يتبرأ من هذا «المجنون» ... ولما اشتد إيذاء «جعفر» لأبى «الخطاب» ذهب أبو الخطاب لمكان لا يطوله فيه أصحاب حفيد على - رضى الله عنه - وادعى أنه هو النبى - يعنى أبا الخطاب نفسه - وقال أن الأئمة أنبياء لفترة ، ثم يتحولون لآلهة بعد فترة أخرى.

فالآلهة نور من النبوة ، والنبوة نور من الإمامة ولا يخلو العالم أبداً من الآثار والأنوار ... يعنى الآلهة مستمرة فى النزول للأرض ، والأنبياء مستمرون أيضاً.

وقال «أبو الخطاب» أن «جعفر الصادق» هو الإله ، وأنه - الخطاب نفسه - نبى هذا الإله ، أما أن جعفر الصادق يرفض ما يقول الخطاب فهذا لأن الإله لا يريد لأحد أن يعرفه الآن ، فالوقت لم يحن بعد حتى يخبر الناس ، ولما قتل «أبوالخطاب» ... ظهر بعده رجل اسمه «معمر» ... وسار على نفس سيرة أبوالخطاب وزعم أنه لا يوم قيامة ولا حساب ،

ولا جـزاء ، وأن الدنيـا لا تفنـى وأن الجنة هـى ما يحـصل علـيه الإنسان مـن خير عـلى الأرض ، وأن النار هى ما يصاب به الإنسان من مفاسد على الأرض أيضاً.

وبعد فترة تطورت مزاعم «الخطابية» وقالوا أن جعفر الصادق حفيد على بن أبى طالب هو الإله الذى ظهر بصورة إنسان على الأرض وقالوا أن كل مؤمن بالإله جعفر يوحى إليه من جعفر ، يعنى ما دام الشخص آمن بجعفـر الصادق فإن جعفر الصادق نفسه يوحى إلى المؤمنين به فى الـدنيا ... ويقول لهم ما يفعـلون وينصحهم بما لا يجب أن يـعملوه ، وأجاز «الخطابيـة» شرب الخمر والزنا ولـعب الميسر ، وأجازوا قتـل من ليس «خطابيـاً» وقالوا أن منهـم من هو أفضل عـند الله من جبـريل وميكائـيل وزعموا أن الإنسـان عندما يـصل إلى كمال العلم اللـدنى ... فلا يمكن أن يموت حتى لو بدا هذا للـناس على الأرض ... فهو لا يموت أبداً ، بل إنـه يرفع لملكوت السـماء وأن هذا الميت يظـهر لأقربائه ومريديـه كل فترة فيلقنهم الأوامر.

وقسّم «أحمد بن الكيال» العالم ثلاث درجات ... العالم الأعلى ... والعالم الأدنى ... والعالم الإنسانى ، فى العالم الأعلى خـمسة أماكن ، الأول مكان الأماكن ؛ مكان خال لا يسكنه أحد لـكنه يحوى العرش الإلهى. أما المكان الـثانى ففيه النفس الإنسانيـة ، ثم تليها النفـس الناطقة فـى المكان الأقل درجة ... ثم الـنفس الحيوانـية فى المكان الأقـل درجتين ، وكلمـا أرادت النفس البـشريـة الـصعود لمكان الأمـاكن ، فهى تحـاول أن تنفذ مـن المكان الأول ، ولما تقـترب من الوصول إلـى عالـم النفـس الأعلى ... تتعـفن وتتحلـل أجزاؤها ، وتهبط للعالـم الأسفل (الدنيا) من جديد.

أما النفس الإلهية ، فلما وجدت أن النفس الإنـسانية معذبة ، أعطتها جزءا من نورها ـ أى نور النفـس الأعلى ـ فحدثت بموجـب هذا النور كل الأشياء المـركبة كيميائـياً فى هذا العـالم وتـكونـت الـسماوات والأرض والمعـادن والحيـوان والإنسـان ، وحدث مـن هذا التكوين سرور وفرح تـارة ، ثم حزن وكآبة تارة أخرى ، حتى يظهر «الـنبى الجديد» (الذى هو أحـمد بن الكـيال نفسـه) ويرد كل شـىء إلى حالة مـن الكمـال ، فتتحـلل التراكـيب الكـيميائـية وتبطـل الأشياء وعكـسها (أى المتـناقضات) ، فـى هذا الوقت يـنتصر الـشىء الروحانى على الشىء الجسمانى ، والدليل على أن أحمد بن الكيال هو النبى المنتظر ... أن اسمه (أحـمد) مطابـق للعوالـم الخمسة ... فالألـف من اسمه يـساوى النفـس الأعلى ... والحاء يسـاوى النفس الـناطقة ... والمـيم هى النفـس الحيوانيـة ... والدال تساوى الـنفس الإنسانية ... أما مكان الأماكن فلا وجود فيه لشىء ، ولا يستطيع تصوره أحد.

وقال أحمد بن الكيال أن هناك من عناصر الحياة ما تساوى عناصره العوالم الخمسة أيضاً ... فالعالم الأسفل الجسمانى يعادل السماء الخالية ... وهو ما يساوى مكان الأماكن. والدرجة التى تليها هى النار ... ثم الهواء ... ثم الأرض ... ثم الماء. وهذه العناصر الأربعة تساوى العوالم الأربعة ... فالإنسان يساوى النار والطائر فى السماء مثله مثل السماء ... والحيوان فى الأرض عناصر جسمه هى هى عناصر تركيب الأرض ... والحوت فى الماء عناصر جسمه نفس عناصر الماء ، لذلك يستطيع أن يعيش فيها.

قال أحمد ابن الكيال أيضا أن الله قد خلق الإنسان على شكل اسم أحمد. فالألف مثل الجسم فى انتصابه وشكله ، واليدان مثل حرف الحاء ، والبطن مثل حرف الميم ... والرجلان مثل حرف الدال. وقال إن الأنبياء كاذبون ... ولا يوجد دين حقيقى ، فقط دينه هو الدين الصحيح ... وسمى نفسه «القائم» ... أو «قدير العالم» ... وقال إن القائم أقوى من النبى.

بعد ذلك ظهر حميد بن نصير النميرى ، ثم ظهر إسحاق بن يزيد بن الحرث ، الاثنان اختلفا على كيفية إطلاق الألوهية على أهل البيت.. من فيهم الإله الأول.. من فيهم الإله الثانى ، أى من فى أهل البيت أعلى درجة فى الألوهية ومن منهم أقل ألوهية ؟! لكن الاثنين قالا أن الله ظهر بصورة أشخاص حتى يتكلم بلسانهم.. ولما لم يكن بعد النبى ﷺ شخص أفضل من على رضى الله عنه ، لذلك ظهر الله فى صورة أبناء على واحدا بعد واحد ، وهذا حدث فقط لأبناء على ، لأن على هو المؤيد (الوحيد) من الله تعالى وقالا أيضا أن قتال المشركين كان أمر من الله تعالى لمحمد ﷺ ، أما قتال المنافقين فكان أمرا (لعلى) قبل أن تحل روح الله فيه ، وقالوا أن على (قبل أن ينزل فيه الجزء الإلهى) كان شريكاً لمحمد فى الرسالة ، وأن النبى ﷺ قال للمسلمين «إن فيكم من يقاتل علىّ على تأويله ، كما قوتلت على تنزيله».. وقالوا أن تأويل القرآن هو حرب المنافقين ومكالمة الجن.. وعلى يفعل الاثنين.. فقد قاتل المنافقين وكلم الجن حتى قُتل.

أما التابعون للنميرى وإسحاق فقد قالوا أن على ظهر له الله ، ودخل جسمه وتكلم على بكلامه ، وأمر بلسانه ، وإن جسم على موجود فى السماء قبل خلق أى شىء آخر وقالوا أن على رضى الله عنه قال «أنا من أحمد كالضوء من الضوء».. يعنى أنه لا فرق بين نور على رضى الله عنه ونور محمد ﷺ ، إلا أن النور الأول كان قبل النور الثانى.

وظهرت البهائية[٦] ، أسسها «بهاء الله».. الذى اتبعه كثيرون ، ولا زالوا حتى الآن.

البهائي ينكر وجود «ثواب» و«عقاب» وينكر الجنة والنار ، وليس للبهائي مكان عبادة معين ، لا مسجد ولا جامع ولا كنيسة ، فقط يصلي يومياً بأتجاه حيفا في فلسطين.

والبهائيون يصومون شهرا واحدا في السنة .. الشهر عندهم ١٩ يوماً والحج ليس فريضة.. لا للحرم ولا للكعبة ولا لأي مكان آخر. أما من أراد ، فالزيارة لمقام «بهاء الله» في مدينة شيراز بإيران ، وهم متأكدون أن نبيهم «بهاء الله» لم يمت حتى الآن أو هو مات جسداً دون روح ، لأن روح «بهاء الله» لا يمكن أن تموت ، إنما تهيم وراء السحب فترة ، لتعود وتنزل في جسد آخر تستمر معه الحياة.

والله في العقيدة البهائية.. هو الإنسان. أو الأنا هو الله ولابد أن يؤمن البهائي بأن الله ينزل من السماء ليتفرق في ألوف البهائيين على كوكب الأرض ، فهو يتجلى فيما يصنع ، لأن الله هو خالق الكون وخالق الإنسان .. وهو أيضا القادر على إعادة خلقه ، لذلك فالله هو الإنسان ، ومخلوقه واحد .. وهو لا يتفوق على مخلوقه.. حتى مع أنه هو الصانع.

ولرب البهائية رُسل كثيرة ، كلهم أخذوا من روح الخالق كثيرا مما أخذه باقي البشر وهؤلاء الرسل يستمرون للنهاية أو إلى ما لا نهاية ، فلا رسول أخير ، ولا خاتم للمرسلين ، ويرى البهائيون أن محمداً ﷺ ليس آخر الأنبياء ، فالعلاقة بين الخالق ومخلوقاته لابد أن تنمو وتتطور مع مرور الزمان ، فما دام الخالق ومخلوقاته مستمرين ، لابد أن يتناجيا.. يتكلما ، يتبادلا الرسائل التي لابد أن يحملها رسل يتعاقبون على الأرض كي تتعاقب دورات الكون ، وعندهم أنه لا شيء ثابت في ملكوت الله ، لا على الأرض ولا فوق السماء ، ولا فيما بينهما ، حتى شريعة وأحكام الله تظل هي الأخرى متغيرة ، فلكل زمان حديثه وحكمه ونبيه ورسوله وشريعته أيضا لذلك فكل الديانات عند البهائي سواء ، أي كلها مصدق عليها ومُعترف بها ، لأن كل دين منها مطّعم بما أراد الخالق إنزاله للأرض على مر العصور على ألسنة رسُل مختلفة.. وبلغات يراها صالحة.. وتفي بالغرض أما الرسول الجديد بعد «بهاء» فسيظهر عام ٢٠٢٣ ميلادية كما نص كتاب «الأقدس»(٧).

ورسولهم الجديد سينزل لكل الدنيا.. على عكس إبراهيم وعيسى ومحمد. فإبراهيم بعث في قبيلة ، والمسيح بُعث في شعب ثم محمد في أمة ، أما الرسول الجديد فمثله مثل «بهاء الله» بعث في كل هؤلاء ، في العالمين تكميلاً لمحمد وعيسى وموسى وإبراهيم وحزقيال وداود وبراهما وبوذا وزرادشت وكونفوشيوس الذين هم أيضا رسل الرب وأنبيائه.

والكون عند البهائى له دوراته ، كل دورة مقدارها ١٠٨ أعوام ، تتغير خلالها كل معالم الدورة السابقة ، ولكل دورة من دورات الكون رسول ، ولكل رسول اتباع وحواريون وخدام ، ولكل هؤلاء روح لا تموت ، فمحمد وموسى وعيسى وإبراهيم وإسحق ويعقوب و«بهاء الله» لم يموتوا ، إنما اختفت أرواحهم لفترة لتعود وتحل من جديد بأجسام أخرى لأشخاص آخرين ، فالبهائى يؤمن بتناسخ الأرواح ، والخلود عنده أول سمات الأرواح الإنسانية ، فالإنسان مخلوق الخالق العظيم الذى تجلت فيه كل صفات ربه ، لهذا فهو امتداده وهو مركز الكون ، أو مركز كون خالقه ، وسيستمر ويبقى خالداً روحاً ، ومتغيرا فى الشكل ، أى أن روحه ستنتقل من شكل لشكل ومن حياة قبل الموت إلى حياة بعد الموت. يعنى ببساطة ليس لروح الإنسان حدود ولا نهاية ولا خط أحمر تنتهى عنده. فهى كالخالق.. ليس لوجوده فناء.

والكون عندهم مستمر فى صراع مرير وقوى بين خيره وشره ، والخالق هو منبع هذا الصراع ، فهو خالق الخير والشر ، فالخير خيره والشر شره ، ومع أن قوى الشر حقيرة ومكروهة ، فهذا لا ينفى أنها من صنعه ، تماما كالحيوانات والحشرات والنباتات السامة ، مذمومة ، لكن صانعها معروف ، والإنسان عند البهائى يفعل ما يريد ، فهذا إما شرير وإما خير ، كل حسب ما يريد ويرغب ، ومع أنه لا ثواب ولا عقاب ، ولا جنة ولا نار ، إلا أن الأرواح تتعذب نهاية الأمر فى حلولها بأجساد أخرى.. إما حقيرة أو فائقة الجمال.

و«البهائية» اسم جديد للعقيدة «البابية»(٨). أو أن «البابية» كانت البذرة ، وتلتها البهائية لصاحبها «بهاء الله». و«البابية» ولد نبيها «على محمد رضا» فى أول يوم من شهر محرم عام ١٢٣٥هـ ، بمدينة شيراز جنوب إيران ، ولما بلغ السادسة من عمره ، ألحقه أبوه بمدرسة الشيعى الكبير الشيخ «عابد الشيرازى».. إلا أن على محمد لم يستمر طويلاً بها ، فما هى إلا شهور حتى توفى والده وأصبح «على» بلا مأوى وكانت أمه قد توفيت قبل أبيه ببضع سنوات ، فانصرف عن الدراسة بعدما كفله خاله الذى ضمه لقافلة من قوافل التجار الإيرانيين المسافرين دائما من قطر لقطر . إلا أن على مل شغلته الجديدة ، فانصرف للصوفية والرياضيات والتدريب على تحسين الخط ، وبعدما بلغ السادسة عشرة ، ألتحق على «محمد رضا» بمجلس كبار مشايخ الشيعة «بشيراز».. واتصل بأئمتهم ، الذين رأوا فيه خيراً ، فوثقوا فيه ، واطمأنوا ، فأطلعوه على قرب ظهور «المهدى». وفى الثانية والعشرين من عمره ، ازداد اهتمامه بالرياضات الروحية ، ولعب «اليوجا» ونمى قدراته فى

التخاطب عن بعد ، والزم نفسه بأقسى وأشد أنـواع التمرينات الروحية ، فُعرف عنه وقوفه عارى الرأس والكتفين فى الظهيرة تحت أشعة الشمس فترات طويلة ، وكان أكثر من يدمى جسده يوم «عاشوراء» فى شيراز كل عام ، ندماً على قتل الحسين فى كربلاء ، وما هى إلا سنوات حتى مرض واعتل بدنه ، ضاعت صحته وتأزمت حالته وظروفه وضعف نظره وراح صوته ، فاضطر خاله لتزويجه إحدى بناته، إلا أن «على» لم ينصرف تماما عما شغله منذ طفولته ، فدرس كتب «الحروفيين». والحروفيون طائفة من الشيعة يزعمون أن لمعانى الكلمات بواطن أو أسرارا مخبأة توازى أرقاما ، وأن هذه الأرقام تعنى شيئاً معيناً له علاقة بأسرار الكون والله والأئمة.

واهتم بعلم الكلام ، ودرس الكواكب والأجرام وعمل على تسخيرها فى قضاء حاجته وحاجة كل من طلب من أصحاب الحاجات ، ولما توفى ابنه البكر حزن عليه حزناً كبيراً.. ودخل فى غيبوبة ثم انصرف لرياضته الروحية من جديد ، حرم على نفسه زوجته أول الأمر ، ثم حرم على نفسه أن يراها ثم أخذوه قسراً ونقلوه سراً لكربلاء للاستشفاء ، وهناك.. «رأى» «على بن أبى طالب» فى منامه. على قال له: أنت المهدى المنتظر.. قال.. لا أصدقك. أجاب على بأن عليه أن يتحلى بسلوك المنتظرين ، ومع أنه رفض الفكرة من أساسها إلا أن «على» أقنعه بأنه هو القادم.. هو آت آت ، فقط عليه أن يصمت وأن يخضع لما أمر به ابن عم محمد ﷺ.

وعاد «على محمد رضا» لشيراز.. وهناك اجتمع العلماء على أنه المهدى ، وأنه لابد من تنفيذ وصية «على بن أبى طالب». وقتها رفض من جديد .. رفض التصديق بأنه المهدى ، ورفض أن يكون نبى الزمان المنتظر ، وقيل أن «على بن أبى طالب» ظهر له من جديد ، وخرج من باب غرفته ودخل ثلاث مرات وهو يشير لباب الغرفة ، ففهم «على محمد رضا» أن عليا يريد أن يقول له شيئاً ، وعرف تابعيه أنه «الباب» الموصل للمهدى المنتظر. فاقتنع. وعقد مجلساً صغيراً دعا إليه عدداً من أئمة الشيعة الذين بايعوه على أنه «الباب إلى المهدى».. مما يعنى أنه المرحلة المبدئية التمهيدية لظهور المهدى المنتظر ، بعدها.. عقد «الباب» مجلساً آخر ضم مجموعة من علماء الشيعة وشيوخها وكبار أعيان شيراز ، واختار منهم ثمانية عشر شخصاً ليكونوا «حروف حى».

و«حروف حى» لفظ فارسى يخص تلاميذ الباب ودعاته. هم ثمانية عشر ، وهو التاسع عشر.. فالرقم (١٩) هو الرقم المقدس فى البابية ، فصيامهم ١٩ يوماً ، وأئمتهم ١٩

إماماً.. وأيامهم ١٩ يوماً ، وانطلق «حروف حى» حاملين رسائل «الباب» لأهالى وحكام كل المدن الإيرانيـة. وفوجئوا وهم خارج شيراز «بالباب» يعلن نفسه المهـدى المنتظر ، وأن السـلطات الإيـرانية قبـضت عليه وبعـض أتباعـه ، وأودع بسجن «خـورم شهر». فـرجع حروف حى ، وقاموا مـع من تبقى من الأتباع باقـتحام سجن «خورم شهر» مـطلقين سراح المهـدى «الباب» هو ومـن معه مـن الأتباع ، ثم اخـتفوا معـه فى مكـان لا يعلمـه أحد ، لا السلطات الإيرانية ولا بعض مريديه من المشكوك فيهم.

وفى قـصر حديقـة خورشيد ـ «مـن خورم شهر» ـ بـدأ الباب فى كـتابه المقـدس الذى يحتوى كل التعاليم والطرق والنصائح والشرائع «للبابيين». فى نفس الوقت الذى نظم فيه أتباعه مؤتمرا بمدينة «بدشت» بزعامة يحيى صبح الأزل قرروا فيه ثلاثة أمور:

أولا.. تبرئة البـاب ، وإرغام الحكومة الإيرانية عـلى الكف عن مطاردته .. وثـانياً إلغاء الشريعة الإسلامية وكتبـها وقوانينها وأحاديثها ، واستبدالها بشريـعة البيان .. «البابية». أما ثالثاً.. فكـان أنه حيث لم ينته «الـباب» من كتابه بعد .. وبالـتالى لم يختر له عـنوانا ، فقد أوصوا بأن يكون عنوانه «البيان»وأن ينتهى منه «الباب» فى أسرع وقت.

إلا أن «الباب» قُبض عليه ، وأعدم رمياً بالرصاص ، ومـاتت معه «البابية» التى سلمت الرايـة «للبـهائيـة» وزعيمـها «حـسين علـى المازندانـى» أو «بهاء الله» فـى الأرض ومع أن «الباب» كـان قد بشّر بـ «يحـيى صبح الأزل» نائبـاً ونبياً من بعـده ، إلا أن «حسين» (الأخ الأصغر ليحيى) استأثر بالخلافة ، وقاتل أخاه وأتـباعه وقتلهم بعد فترة من موت «الباب». وأعلن أنه «بهاء الله».. وأنه الموعود فبايعه «البـابيون» فى حديقة الرضوان «بخورم شهر».. وسميت نفس الأيام من كل عام بعيد «الرضوان» يحتفلون كل سنة اثنى عشر يوماً. وأعلن بهاء الله أنه صاحب ديانـة جديدة وعقيدة مختلفة وشرائع هـى الأخرى جديدة. وأعلن أنه «ألغى» شريعة وعقيدة وكتاب «الباب» وأحل كتابه محله ومحل عقيدته وديانته وشريعته.

وكتب «بـهاء الله» كتاباً مـقدساً آخر أسمـاه الأقدس ، يعنى أقـدس من أى شىء وأى كتاب وأى مكتـوب آخر ، وأوصى أتباعه بألا يفـسروا ما جاء فيه ، إنما ينـفذونه بالحرف ، وبعد ما انتشرت الـبهائية شرقاً وغرباً ، ادعى «البهاء» أنـه روح الله ، ثم قال بأنه هو الله. ثم مات ، وخلفـه «عباس أفندى» ابن البـهاء ، وبهاء الله تزوج ثلاث مـرات ، أول مرة كانت «أم الكائـنات» نوابه هانم ، ثـم «مـهد على» ثم «كـوهر هانم». وأنجب من الثـلاث، عشرة أبناء مات منهم ثلاثة ، وبقى سبعة أكبرهم «عباس أفندى» الذى أوصى له أبوه بالخلافة.

وقد أصاب الجنون «بهاء الله» آخر أيامه ، فبعد ما أعلن أنه «البهاء» روح الله.. وانتظر قليلاً ليعلن أنه هو الله ، مشى فى الناس يلبس «برقع» على وجهه ، لئلا يشاهد أتباعه النور الإلهى فيه .

والبهائية تدعو إلى «المحبة» و«الوحدة» .. حب كل الناس ، والوحدة مع كل الناس ، فهم لا يؤمنون بالبلد ولا العائلة ولا الزوجة ولا الأبناء ، ولا الأديان أو اللغات المختلفة. يسعون لبلد واحد ولغة واحدة يسرى فيهم حب واحد ؛ حب الكل للكل. فكان أن كانت كل البلاد بلادهم ، ووطن البهائى هو ما أراد أن يحيا فيه ، لذلك فهم يطالبون بوحدة البلدان ووحدة الأراضى .

وللبهاء عندهم عدة ألقاب ، منها «حضرة الأعلى» و«النقطة» و«النقطة الأولى».. و«الرب الأعلى». ما يعنى أن البهاء هو «الله» بعدما كان «روح الله».و«النقطة» تعنى أنه هو البداية ، بداية خلق الكون عندما خلقه خالقه. أو هو أول شىء خلقه.. يعنى.. خُلق قبل خلق الكون. وكان أول نقطة وضعها الخالق على خريطة العالم. فى الوقت نفسه هو الخالق. وهو المقصود بالآية القرآنية ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾.

أما كتاب «الأقدس»[٩] فقد ألغى كل العقوبات الجسدية القرآنية ، فالزانى يدفع غرامة ، والسارق والمغتصب والحرامى وقاطع الطريق ، كلهم يدفعون غرامة ، أما المشرك «ببهاء الله» ، فيقتل أو يُصلب وتقطع أيديه وأرجله من خلاف.

وهم يصومون عن الطعام فى شهر مارس كل عام ، ويحجون إن رغبوا لبيت «النقطة» فى شيراز ، ليس فى وقت معين ، كل أوقات السنة تصلح للحج ، وحجهم قاصر على الرجال ولا شعائر ولا مناسك ، فالبهائى يفعل ما يحلو له أمام بيت النقطة أو داخله أو حوله أو بالقرب منه ، يصلى ، وهو صائم.. أو يقرأ بعض اللوح الأقدس. والزكاة لديهم ١٩٪ والرجل يرث كما ترث المرأة .. أو المرأة مثل الرجل. ولها الحق فى الزواج من أربعة رجال ، ومعاشرتهم حلال بين كل حيضين.

وللبهائى هيئتان دينيتان بيت العدل ، وبيت العدل العمومى ، ويمكن تأسيس بيت العدل فى أى مكان وجد فيه تسعة بهائيين ، أما بيت العدل العمومى ، فله السلطة والشرعية فى تغيير كل القوانين والأحكام والشرائع ، حتى ما ورد فى كتاب الأقدس. وبموافقة ١٨ من أعضائه يستبدلون أيا مما جاء فى الأقدس أو يقومون بإلغائه أو إضافة كلام جديد له قوة القانون وقوة التنزيل.

والرقم (١٩) رقم البهائية المقدس ، وهم يحسبـون القيمة الرقمية للحروف ، ويصلون منها لأحكام ونتائج وتكهنات ، فيقولون أن حروف البسملة «بسم الله الرحمن الرحيم» = ١٩وأن كـلمـة (واحد) قـيمـتهـا العـددية ١٩ ، عـلى أسـاس أن (و + أ + ح =د) = ١٩. والكـون عندهم بـاق حتى الـقرن التـاسع عشر أو اضـعافه. والـبهاء يـظهر كل ١٩ عـاماً ويختفـى ثم يعود للظهـور بعد تسعة عشـر عاماً آخر. ولهم ١٩ حـديثاً نبوياً يؤمـنون بها. ومقتنعون أن محمـد «ﷺ» لما قال «أنا مدينة العلم وعلى بابها».. كان يـقصد «على محمد رضا».. فالحديث ظاهر وباطن ، معلـن ومدفون ، ومعلن حديث الرسول أن «الباب» هو باب مدينة العلم .

❑

أما «الحشاشين»[١٠] فهم شيعة إسماعيليون.. ويحكى التاريخ أن الإمام جعفر الصادق قبل وفاته كان قد عهد بالإمامة لابنه الأكبر إسماعيل ، ولما مات إسماعيل قبل وفاة والده. حدث الخلاف بين الشيعـة ، هل تنتقل الإمامة «لمحمد» ابن إسمـاعيـل ، أم من حق الإمام جعفر الصادق أن ينقلها إلى ابنه الآخر «موسى الكاظم».

مجـموعة قـالت «محمـد بن إسمـاعيل». فـما دام جعـفر الصادق قـد أعطى الإمـامة لإسمـاعيل ، فهـى له.. ولابنه مـن بعده ، ولا رجعـة ، لكن الإمام جـعفر الصـادق.. عاد وأعطى الخلافة فـعلا لموسى الكاظم ، وبعد مـوت الإمام جعفر أصر أتباع مـوسى الكاظم على أن الإمام جعفر له أن يفعل ما يشـاء. يعطى الإمامة لابنه هذا ، أو ابنه ذاك ، فلا دخل لأحد فى رأيه ولا حجة لأحد على إمام ابن إمام والد إمام.

واستمـر هؤلاء على رأيـهم.. وظل الآخرون أيـضا على رأيـهم ، فانقـسمت الشـيعة لفرقـتين.. شيعة إسمـاعيلية.. وشيـعة اثنى عشريـة. الشيعة الإسمـاعيلية هم مـن ناصروا «إسماعيل» ابـن جعفر الصادق وابنه محمـد. أما الاثنا عشرية ، فقد أيـدت الإمامة لموسى الكاظم ابـن جعفر الصادق وأولاده مـن بعده ، ولما مات الخليـفة المستنصـر سنة ٤٨٧هـ. وضع الأفضل وزير المستنـصر أصغر أبناء الخليفة على العرش وسـماه «المستعلى».. بدلاً من نزار الابن الأكبر ، الذى عهد له المستنصر بالحكم قبل وفاته.

والمستنصر وأولاده من أتباع محمد ابن إسماعيـل.. شيعة إسماعيلية. وبموت المستنصر وتوليـة أصغر أبنـائه «المستـعلى» العرش ، انـقسمت الإسـماعيليـة لفرقـتين.. إسماعيـلية «نزارية» وإسماعيلية «مستعلية» أتباع للمستعلى.

والحشاشون.. من نسل الإسماعيلية النزارية مظاليم الشيعة فى أنحاء الأرض ، على أساس أن الشيعة الإسماعيلية قد ظلموا مرتين.. مرة بولاية موسى الكاظم مكان محمد ابن إسماعيل ، وأخرى بولاية المستعلى مكان نزار ، ولما مات المستعلى ، وضع الأفضل طفل للخليفة لم يتجاوز خمس سنوات مكان أبيه. ومنحه لقب «الآمر بأحكام الله». هذا الطفل قتله فدائيو الحشاشين.. فى غرفة نومه. بسكين مسموم.

والله عند «الحشاشين» منزه عن التشبيه ، فهو لا يعرّف ولا يوصف ولا يسُمى.. يعنى لا ينسب له صفة ولا نعت ولا وجود ولا عدم وجود ولا يجوز قولهم بأن الله حى. وهم لا يقولون أنه قادر ، ولا هو عندهم عالم ولا عاقل ولا ينام ، ولا يقولون أنه له ذات ، والسبب أنه لا تدركه الأبصار ، وما لا تدركه الأبصار لا تدركه العقول. فهو غيب الغيوب ومبدع الوجود فى الوقت نفسه. فالمبدع فوق الكائنات ، وهو ليس بكائن ولا يكون. فقط هو يمنح الكينونة .. أى هو يقول للشىء كن فيكون.

أما «التنزيه» فهو إبعاد الأسماء عن الله ، فيما كان التجريد هو تجريده من الأعمال المسبب لها ، فقط هو الذى خلق ومن فعل فعل ، إنما هو ليس سبب حدوث الفعل.

والحشاشون يقولون إن الله قد خلق الدنيا دفعة واحدة ، يعنى أبدع العالم فجأة على شكل أشباح نورانية متساوية فى الكمال ، ثم حدث أن واحداً من تلك الأشباح نظر إلى نفسه وأبناء جنسه ، فعلم أنه له صانع ، وأن هذا الصانع مختلف عنه كل الاختلاف ، فعلم أن هذا الصانع هو الإله ، عندها ، اتصل به الله ، وكلمه أو وصله كلام الله ، وعلم كل شىء عن الله ، وصار هذا العلم كمال المخلوق الأول ، وصار هذا المخلوق عقلاً محيطاً وعالماً لكل شىء ، ما كان وما يكون وما قد يكون ، لهذا أُعجب الله بمخلوقه هذا وسماه «الاسم الأعظم» وصار شفيعاً لكل المخلوقات لكن فجأة انتبه شبحان آخران من الأشباح النورانية إلى نفس ما انتبه إليه العقل الأول ، لكن أحدهم سبق الآخر.. فشاهد نفسه بنفسه ، ونظر إلى بنى جنسه كما فعل العقل الأول ، وعلم كما علم الأول ، أن له مبدعاً وصانعاً.. فوحده ونزهه وقدس العقل الأول أو العقل «السابق» له فى العلم والمعرفة ، فاتصل بواسطته بالنور الإلهى ، وعلم عن طريق العقل الأول كل العلم وكل المعرفة ، فصار هو الآخر عقلاً كاملاً أزلياً لا نهاية ولا بداية له ، فصار الأول «سابق».. وصار الثانى «لاحق»..أو تاليا ، وبعد فترة ، اتحد الأول والثانى ، فصارا واحداً.. فنادى «الواحد» فى الظلمات ، ودعا لتوحيد الله ، فاستجاب له سبعة أشباح الواحد بعد الآخر ، كل منهم وحد الله ونزهه ، واعترف بزينة العقل الأول.. و[illegible] «سابق» ، والعقل الثانى «تالى».

هنا وصل العلم من عند الله للسبعة أشباح ، وصاروا عقولاً سبعة كاملة ، وهى عقول الكواكب السبعة فى السماء.

بعد فترة.. ارتكب الشبح النورانى «التالى» خطأ فظيعا. فقد اعتقد أنه هو والشبح الأول «السابق» فى مرتبة واحدة ، وأراد أن يتخطاه ويتصل بالخالق مباشرة ، فكانت النتيجة أن انقطعت كل الإمدادات النورانية الروحانية عنه ، وأظلم وأظلمت ذاته ، وسقطت مرتبته وصار العاشر بعد ما كان «التالى» لكنه لما علم أنه ارتكب زلة لا تغتفر ، اعترف بخطئه وتاب وأناب وعمل صالحاً.. وتوسل للكواكب الستة التى عطفت عليه ومدته بأشعتها النورانية لتشرق ذاته من جديد ، ومن الظلمة وعاد لكماله مرة أخرى لكن بشكل جديد ، وروح جديدة ونور جديد ، هو من نور الله ، لكنه نور مغضوب عليه ، فقد ظل الخالق غاضبا على هذا العقل حتى بعد أن أمدته الكواكب بالنور من جديد ، أما هذا «العقل».. فهو آدم .. أبو البشر أو هى روح آدم، التى نزلت للأرض مع حواء بعد فترة. والحشاشون لا يعرفون الحكمة من خلق الخلق ، ولماذا خلق الخالق خلقه. ويعتبرون أن هذا السؤال غير منطقى.. وما دام هو غير منطقى ، فهو غير مقبول فإذا كان الإنسان عاجزا عن إدراك كيفية خلق الله للناس والنبات والحيوان ، فهو أيضاً عاجز عن معرفة الحكمة من خلق كل هذه الأشياء ، وإذا كانت كل الأمم وكل الكتب المقدسة تقول أن الخلق تم بالأمر.. أمر الله لخلق الله. فإن «الحشاشين» لم يعرفوا بعد كيف كان هذا الأمر؟! ولا متى كان؟ ثم إن ملكة المعرفة التى يستخدمها الإنسان فى محاولة معرفة حكمة خلق العالم ، هى جزء من هذا العالم.

والسؤال هو .. كيف يمكن معرفة خلق العالم ، مع أن ملكة المعرفة جزء منه ؟! لذلك فحكمة خلق العالم مجهولة ، لايمكن اكتشافها قبل معرفة كيفية كون العالم ؛ فالإجابة عن سؤال «لم»؟ يتوقف على إجابة السؤال «كيف»؟! أو هكذا قالوا.

هم يقولون أيضا أن نظامهم الدينى مبنى على الأرض تماما كما نظام عالم الكائنات والكواكب فى السماء فأنبياؤهم قد شيدوا نظام الدين فى الأرض ، على غرار نظام الوجود ، من أجسام متحركة ونفوس وأولياء تابعين ، كلهم لهم نفس ما للنظام العلوى فى السماء ، أو هم كما هو ـ مثله تماما ـ لذلك فإن معيار صحة الشرائع والقوانين والاتفاقات على الأرض يرجع لدرجة تشابهها مع نظام الكواكب فى السماء ، فإذا كانت الكواكب تطغى على بعضها البعض يطغى الناس على بعضهم ، وإذا سرقت الكواكب ، يسرق الناس وإذا قتلت يقتلون .. ولأنها ـ أى الكواكب ـ لا تفعل أيا من هذا ، فلايصح فى الأرض أى من هذا ، لا قتل ولا سرقة ولا حرب ولا ضرب ولا خيانة.

أما مصير «الحشاش» ، فيتحدد روحاً وجسداً بعد الموت على أساس انتمائه العقائدى أو على أساس إلى أى قسم ينتمى ، فهم يصنفون الناس قسمين: قسم يؤمن بمذهبهم.. وقسم كافر لا يؤمن لا بالمذهب ولا بأصحابه ولا بنظرياته ؛ بينما المؤمنون ينقسمون نوعين هم الآخرون لكل منهم مصير يتناسب مع درجته فى الإيمان ونصيبه من المعرفة والعمل.

والنوع الأول من المؤمنين هم أهل المعارف الحقيقية ، وأهل العلوم الإلهية ، أهل الأعمال الصالحة ، هؤلاء عندما تنفصل أرواحهم عن أجسادهم ، فإنها تتخذ طريقها إلى الجنة ، فالروح عندما تفارق الجسد تتحد بالروح التى فوقها.. أى الأعلى منها رتبة فى الإيمان ويستمر الصعود إلى أن تتصل كل الأرواح مع الروح الكلية التى تعود إليها كل الأرواح ، وأجساد المؤمنين ، تتحلل وتتبخر وتصعد للسماء ، ثم تنزل أمطارا تلطف الأرض ، وتحى النبات وتمتصها الأرض لتتبخر من جديد وتصعد ثم تمطر وتنزل وتدفن وتعود من جديد ، وتظل هكذا إلى مالا نهاية.

أما الطبقة الثانية من المؤمنين .. فإن أرواحهم تصعد للهيكل النورانى الأعظم فى السماء ، لكن تظل فى درجة أقل من أرواح الطبقة الأولى من المؤمنين ولا تبلغ أجسامهم ما بلغه الآخرون من نقاء وصفاء وراحة أبدية ، إنما تظل معلقة بعض الوقت فيما بين السماء والأرض ، بسبب ما فعلته من أفعال وتأخذ جزاءها ثم تعود لتصعد إلى حيث تحفظ فى «أحرز.. أحرز».. و«أعز .. أعز».

أما الكافرون عقابهم شديد وقاس إذا أن أرواحهم تظل فى الطبيعة الأرضية ، داخل مجال كوكب الأرض ، تتناسخ من جسد لجسد ومن شخص لآخر ، فتتعرض للألم والحسرة ، ومن ثم لا يموت الكافر بسهولة ولا تنتقل روحه من جسد لآخر بيسر ، إنما عذاب فى عذاب.

والعلم عند الحشاشين إما بالعقل والنظر ، وإما عن طريق المُعلم الذى هو الإمام ، ولما كان العقل يخدع ويعجز ، وتتحكم فيه العواطف والأحاسيس. فإن الإمام لا «يخُدع» ولا يعجز لأنه معصوم من كل هذا ، وإذا ثبتت الحاجة لمعلم وإمام ، فإن هذا الإمام لابد أن يكون معصوماً من الأخطاء ، ولا يوجد فى وقت واحد أكثر من إمام لأنه لا يجوز التعلم من عدة معلمين ، حيث كثرة عددهم تؤدى ـ أو لابد أن تؤدى ـ لتنوع الآراء ، وبالتالى تنوع الأهواء والأغراض ، وتنوع شكل وحقيقة الإيمان.

والأرض لا تخلو من إمام أبداً ، فلكل زمان ومكان إمامه ، وعلى المؤمن أن يعرفه

ويتحقق منه ويتبعه ويحبه أكثر من نفسه ، فهو محور الكون ، ويجب أن يكون محور حب ووجدان بنى آدم ، فإذا عـرفه أحبه كما لم يحب لا نفـسه ولا أمه ولا أباه ولا أخاه ولا أى شخص آخر، والمحـبة الخالصة تستـوجب الطاعة المطلقة والتسليم التـام بكل ما يقوله هذا الإمـام ، حتى لو كـفر أو فـسق ، والإمـام أعلى رتبة ومـقام مـن بنى آدم كلهم ، وهو سنة الوجود ، التى يتـحقق بها كمال الوجـود ، وهو العالم الوحيد ، والإنسـان الناقص الجاهل يمكنه أن يرتفع من درجـة الجهل إلى درجة العلم إذا وضع نفـسه تحت أمر الإنسـان العاقل الكامل وسلمه حسه وعقله ونفسه ليتغير حاله ، ويعلم بعد أن كان أجهل جهول.

والجاهل هـو الذى لا يعرف وليس مـفروضا فـيه أن يعـرف ، أما الجـهول فـهو من لا يعرف مع أن مفـروضاً فيه أن يعرف ، فـالتلميذ الذى لا يعرف جاهل أمـا الأستاذ الذى لا يعرف فهو جهول.

وهم مؤمنون بأن طبيعة الإمام ليست بشرية خـالصة ، فهو ليس بشراً صرفا لأنه مميز أو هو أسمى ، يجـمع بين طبيعـة الإنسان ، وطبيـعة الآلهة ، أمـا طبيعـة الإنسان ففى جـسده العـادى ، اللحم والدم والعظم وأمـا طبيـعة الإله ، فـفى طيـفه الذى لا تدركـه الأبصـار ، وليس كـبقيـة الآخرين إذ أنه مـكون من مغناطيس لا يراه أحـد ، تنطلق منه أشـعة لطيـفة تتصاعد من سـماء إلى سماء ؛ موجات إشـعاعية غريبة ، تنزل من السمـاء بعد أن تختلط بأشعة القمر التى لا يراها ـ أيضا ـ باقى البشر ، هذه الموجات تتحول لندى على سطح الماء والأشجـار ، فيـشرب منهـا الإمام وزوجتـه ويأكلان من هذه الثـمار ، وعندمـا يتكاثران ، يصبح الندى نواة لجسد نورانى لطيف هو الإمام القادم ، الذى يتشكل جنيناً فى رحم أمه ، (زوجة الإمام الحالى) ترعاه الكواكب السبعة ، أو العقول السبعة الأولى.

والإمـام لا يخاف ولا يفـرح ، حـتى أنه لا يبكى وهو طفل مـثل باقى الأطفـال ، وهـم يرون الإمـام ممثل الله عـلى «الأرض» ، أو هو «ظل الله» ووجـهـه ، وهو الإنســان الكامل الوحيد ، وهو رجل الله ، وأن معرفتـه هى المعرفة الوحيدة لله. والإمام أعلى من النبى ، لأن الإمام هو الامتـداد لتجلى الله على الأرض ، أما النبى فهو فـقط رسول الله ، وبذلك يصبح جعفـر الصادق فى زعمهم أهم من محـمد عليه الصلاة والسـلام ، وموسى الكاظم أفضل منه ﷺ أيضا ، أما «نزار» و«محمد بن إسماعيل».. فأفضل من آل البيت جميعاً.

(الملاحظة الآخيرة أن كل هؤلاء المخرفين جاءوا من فارس. ودخلوا الإسلام من فارس وصنعوا إسلام مختلف من فارس أيضاً).

الهوامش

(١) الخمنية. وريثة الحركات الحاقدة والأفكار الفاسدة. وليد الأعظمى. دار عمار الأردن. ١٩٨٩. د. زكى نجيب محمود موقف من التراث. دار الشروق الطبعة الرابعة.

(٢) د. زكى نجيب محمود. المرجع السابق. الأعظمى السابق. الملل والنحل للشهر ستانى ج٢.

(٣) الفرق بين الفرق. البغدادى. الملل والنحل. الشهر ستانى. سابق. غلاة الشيعة .

(٤) ابن الأثير: الكامل . ج٦ ص٤٩٥.

(٥) ظهر في سنة ١٥٩هـ (٧٧٦م) كان من أهل مرو بفارس. وقال أن روح الله حلت فيه بعدما حلت لآدم ثم نوح النبى.

(٦) د. عبدالوهاب المسيرى. الجمعيات السرية فى العالم. كتاب الهلال ، ١٩٦٣ ص٧٠.

(٧) صالح عبدالله كامل. البهائية الفكر والعقيدة. مصر للطباعة.

(٨) المسيرى. مرجع سابق ص٧٥ إلى ٨٦.

(٩) صور مخطوطات «الأقدس» «باب ششم» لوح «مبارك أنت الكافى». راجع أيضا «الوح دوم».

(١٠) الحشاشين:

- ابن خلدون (تاريخ ابن خلدون ومقدمته) دار الكتاب اللبنانى ١٩٦٨ .
- شمس الدين أبو العباس ابن خلكان. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. مكتبة النهضة المصرية القاهرة ، ١٩٤٨ .
- ابن كثير. البداية والنهاية. مكتبة المعارف ، بيروت ، ١٩٧٧ .
- ابن محمد الوليد ، تاج العقائد ومعدن الفوائد. تحقيق عارف تامر. دار المشرق. بيروت ، ١٩٦٧ .
- أبو الحسن على بن إسماعيل الأشعرى ، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين. مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٩ .
- كارل بروكلمان. تاريخ الشعوب الإسلامية ، ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعبكى ، دار العلم للملايين. بيروت ، الطبقة الخامسة ١٩٦٨
- عبدالقاهر البغدادى. الفرق بين الفرق. تحقيق محمد عثمان الخشت ، مكتبة ابن سينا. القاهرة
- محمد عثمان الخشت. حركة الحشاشين. تاريخ وعقائد أخطر فرقة سرية.. في العالم الاسلامي. مكتبة ابن سينا. ١٩٨٨ .
- الشهر ستانى. الملل والنحل. مرجع سابق.
- أبو يعقوب إسحاق الساحستانى: الينابيع ، تحقيق مصطفى غالب. بيروت ١٩٦٥
- شمس الدين الطيبى: رسالة الدستور ودعوة المؤمنين للحضور. مكتبة الحياة بيروت ، ١٩٧٨ .

راجع أيضا: الغزالى وفضائح الباطنية ، د. عبدالرحمن بدوى. دار الكتب الثقافية. الكويت ، أحمد حميد الدين الكرمانى. راحة العقل ، دار الأندلس. تحقيق مصطفى غالب. بيروت ، ١٩٥١



دراسة فى الاستخدام السياسى للدين

مدعو النبوة فى التاريخ الإسلامى

5

حديث فى أساطير الأولين

دار الخيّال



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا من قَبْلكَ من رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إذا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فى أُمْنِيَّته فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاته وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢) لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾

صدق الله العظيم

[٥٢ ـ ٥٣ سورة الحج]

في العصور البدائية لم يكن عقل الإنسان قادراً على أن يجد حلولاً لظواهر طبيعية عديدة ، فلا هو وجد سبباً لحمل الأنثى ، ولا تصورا معقولا لدورة حياة النبات ، فلم يلاحظ الإنسان البدائى أن اتصال الرجل بالمرأة هو السبب الأساسى للحمل ، إذ أن وقت الاتصال بعيد إلى حد كبير عن ظهور علامات الحمل على الأنثى ، إضافة إلى أن النساء ـ فى العالم القديم ـ كن فى حالة اتصال دائم مع كل الرجال دون تمييز.

اعتقد الانسان أن المرأة هى صاحبة قرار الحمل ، وإن «دماء الدورة الشهرية» عندما تظهر على الفتاة ، يعنى أن الطفلة لها القدرة على الإنجاب . وأصبحت «دماء الدورة» علامة على القدرة على الإنجاب ، ودخول الفتاة مرحلة الأمومة ، والأم هى التى تملك قرار وتوقيت حملها وحدها ، فأطلقوا على الأنثى بعد البلوغ ـ حتى لو لم تكن اماً ـ لفظ «Mamy» تشبيها لها «بالأرض» ، التى تخرج الزرع ـ أوتلده ـ دون ممارسة مع ذكر.

حاول الإنسان تفسير كل شيء ، أو الوصول لحقيقة كل شيء ، لذلك قدس كل شيء ، وظهرت الأسطورة ، ولما لم يكن العقل قد نضج ، أطلق الإنسان البدائي خياله لسرد حقائق وقصص وتواريخ قديمة جداً ، ذات طابع غامض وغريب ، ليس مهما أن كانت حدثت فعلا ، أو لم تحدث. أيضا ليس ضرورياً التحقق من ماهيتها ، ولا في أي أرض نشأت ، ولا إن كانت «منطقية».. المهم أنها ـ الأسطورة ـ كانت تفسيرا منطقيا لما يراه الإنسان غير منطقي.

واستطاع الإنسان البدائي عن طريق الأسطورة ربط أحداث كثيرة ومختلفة فشلت أي طريقة أخرى في ربطها ، أهمها علاقة الخالق بالمخلوق ، وظهر مفهوم «القربان» الذي يجب أن يكفر به الإنسان عن خطاياه ، وانتهى الأمر إلى أن نزل الإله ذاته ليقدم نفسه قرباناً للتكفير عن خطايا البشر ، فاعتقد الفرس أن الإله هبط في فارس باسم «ميثراً» ومات في فارس ، وأنه سوف يعود لفارس من جديد. واعتقد الصينيون أنه نزل باسم «بوذا».. وبوذا يعني «المخلص» أو «الفادي» أو الشخص الذي انكشفت أمامه كل الخطايا ، لذلك عبدوه قبل أن يصعد للسماء من جديد ، وعند البراهمة الهنود ، قال «كريشنا» أنه ولد من أم دون أب. وكلها قصص مأخوذة عن الإله «بعل» الذي نقشت قصة محاكمته على صخور المعابد البابلية (حوالي ٢٠٠٠ ق.م).

وظهرت عبادة «ميثرا» حوالي ٧٠٠ سنة قبل الميلاد في إيران ، ثم سافرت ليعتنقها كثيرون في روما سنة ٨٠ قبل الميلاد ، ثم انتشرت في شمال ايطاليا وبريطانيا ، واكتشفوا آثاراً لها في «يورك» ومدينة مانشستر ومدن أخرى في المنطقة نفسها.

عند «الميثرائيون» ولد ميثرا ٢٥ ديسمبر ، وبعد أحداث كثيرة مات أو قتل ، ودفن إلا أنه عاد للحياة قائماً من قبره.

اعتقدوا أنه مات مكفراً عن خطاياهم ، وكان مما أطلقوا عليه من أوصاف «الحمل الوديع» ويقيمون عشاء مقدس يتناولون فيه جسده ودمه. ميثرا عند أتباعه تاج للمؤمنين ، ورمز للطهارة ، وهو وسط بين الخالق و المخلوق ، بعدما حلت فيه الروح الإلهية وهو ـ أيضا ـ شمس الحياة. وإله «عبدة النار».

و«بوذا» الصيني له نفس القصة.

ويذكر في القصص الأسطورية عن «بوذا» أنه عرف ذات يوم أنه أصبح «بوذا».. أي

«الإنسان المستنير» ـ عالم الحق ـ وانكشفت أمامه كل الحقائق ، بعد ما تساقطت عند قدميه هموم الدنيا كلها ـ واهتدى إلى حل جميع المشاكل ، بعد ما انكشف عنه الحجاب.

قال بوذا أنه لا إيمان في الدنيا دون النظر لها نظرة عميقة متأنية ـ نظرة لكل شيء وفى كل شيء ، فكرة صحيحة ، فهم صحيح ، وبالتالى عمل صحيح ، ثم تأمل صحيح وأخيراً كلمة صحيحة وكل هذا لا يتأتى إلا من الإيمان بأن الحياة فى عمومها تعيسة ـ مصدر التعاسة شر الإنسان وأنانيته ، وحبه لذاته ، مع أن كل الكوارث الإنسانية لن يستطيع الإنسان الفكاك منها إلا بالزهد والرفض.

زهد كل شيء ـ ورفض كل متع الحياة ، إذ أن صورتها براقة ، مع أنها خالية من أى معنى ، لو حدث وشعر الإنسان بهذا ، فقد حقق أسمى هدف ، وربما اقترب من الكمال ، فالتجرد أصل العالم ، وحقيقة المخلوقات ، والزهد يرفع الإنسان إلى سلم الخلود ، حيث «النيرفانا» أو الدرجة العالية من الشفافية ، فتنعدم الشهوات ، وتموت الرغبات. لأن عند «النيرفانا».. كل شيء عدم ، أو كل شيء لا شيء فى أصله.

و«النيرفانا» هى مرحلة طلب اللاشيء. ورفض أى شيء. أو المادى فى كل شيء.

بوذا مات فى ثلاثينيات عمره. وكان عندما بلغ عامه الواحد والعشرين ، هجر بلدته متفرغاً للتأمل والبحث عن الحقيقة ، ثم استقر بعد فترة دارساً على يد أحد رجال دين هضبة التبت ، وهناك اكتشف أن حلول مشاكل البشر عنده ، وليست فى الكتب ، واكتشف أيضا أن الزهد هو الحل الوحيد والأسرع أو هو «الأفضل» فامتنع «بوذا» لسنوات طويلة عن الأكل إلا القليل ، والشرب إلا القليل أيضا ، لكنه سرعان ما اكتشف أن ما يفعله لا يفيد فى شيء ، بقدر ما تفيد دعوة الناس لاكتشاف أخطائهم ، ثم ردهم بإقناع وترغيب للصواب ، عدل عن إضرابه عن الطعام ومشى مبشراً بين الناس ولم تمر سنوات قصيرة حتى انتشر مذهبه دون أن يراه أحد ،حتى تلاميذه لم يعودوا يرونه ، لقد ذهب دون رجوع ، قيل أنه رفع للسماوات، وقيل أنه فى مكان ما على الأرض ينتظر ساعة الخروج ، وبعد فترة ظهر من طوائف البوذيين من يؤمن بأن «بوذا» بعد أن رفُع للسماوات ، فإنه سوف يعود وينزل للأرض من جديد لتحقيق العدل وتبديد الظلم ، وأن روحه تحل كل فترة فى جسد أطهر رجل فى العالم ، «الدلاى لاما».. الزعيم الروحى للبوذيين ، والذى يعتبرونه إنساناً «إلهيا» بكل المقاييس ، فإن «روح الله» هى التى تختاره ، وهى التى تحكم تصرفاته ، و هى التى تظل بجانبه تحميه من كل الشرور ، إضافة إلى أنها

هى التى تلقى على لسانه بكل ما يقول والروح الإلهية أيضا ـ هى التى ـ تختار الخليفة من بعده[1].

ولأن روح بوذا من روح الله ، فقد ولدته أمه «مايا» (لاحظ اسم أمه) بغير رجل. وقال البوذيون أن ملكا صينيا تبناه فى عامه الخامس عشر.

ويقولون أيضا أن ولادته جاءت بعد حلول روح الخالق المقدسة على أمه ، فنزل من مقعد الأرواح فى السماء ليدخل جسد أمه ، التى صار رحمها شفافاً كالبللور النقى وظهر منه بوذا كزهرة جميلة ، ودل على ولادة بوذا نجم ظهر فى السماء ، نجم غريب لم يظهر من قبل. وفى البوذية أن جنود السماء فرحت بمولده ، ورتلت الملائكة أناشيد المجد للمولود المبارك قائلين: [2].

بوذا اليوم على الأرض.

منقذاً ومخلصاً.

كى يعطى الناس المسرات والسلام.

مرسلاً النور إلى الفجوات المظلمة.

واهباً بصراً للأعمى.

شافى السريرة ، والمرضى ، شافى أهل الأرض.

وتقول الأسطورة أن حكماء زمانه أدركوا أسراره الإلهية ، ولم تمض أيام على ولادته حتى جاء الناس إلى أمه ، مقدمين هدايا عديدة وثمينة. ولما وصل خبره للملك «جمارا» سعى لقتله ، لأنه خاف منه على مملكته ، فكما قال الكهنة أن هذا الغلام سوف يقضى على الملك لو ظل حيا ، لكن «مايا» هربت بطفلها لمقاطعة أخرى ، وأخفته ، ومن هناك بدأ دعوته ، وظهر له الشيطان «مارا» وحاول أن يضلله ، فوعده بامبراطورية العالم وقال له أنه يستطيع أن يجعله «ملكاً» على العالم لو ترك ما كلفه به ربه ، لكن بوذا ابتعد عنه ، ولما استمر الشيطان فى مطاردته.. رجمه بالحصى حتى ابتعد ، وأمطرت السماء زهرا وورودا على الفور ، وامتلأ الهواء بعبير جميل ، فقد انتصر «بوذا» على «مارا» وبدأت الدعوة المنتظرة ، وبدأ «بوذا» يطارد الظلمات فى كل مكان.

بعد معركة الشيطان ـ كما تحكى تفاصيل الأسطورة البوذية حوالى ٩٠٠ سنة قبل الميلاد ـ اغتسل «بوذا» فى أحد الأنهار ، ولما مات ودفنوه ، شق قبره بقوة من قوى ما فوق

الطبيعة وأعاد نفسه للحياة .. وأوصى أتباعه بالشفقة والحب ، ومؤكداً لهم بأنه سوف يعود للأرض آخر الزمان ليواصل دعوته ويملأ الأرض نعماً وسعادة[٣].

وقالوا أنه قال للمقربين منه : «احمل سيئات البشر عنهم ليصلوا إلى السلامة». وقال أيضاً : «اخفوا أعمالكم الطيبة ، وأعلنوا على إخوتكم سيئاتكم التى ترتكبونها». ونادى بعدم الزواج وشبهه بالاحتراق فى الفحم .. لكنه عاد وأجازه عند الخوف من الزنى.

كريشنا نبى البراهمة الهنود له نفس القصة أيضاً [٤]

فقد ولد من عذراء اسمها «ديفاكى» ، اختارها الخالق لطهارتها ونقائها. وقد مجّدت ملائكة السماء «ديفاكى» الأم ، وابنها «كريشنا» قائلين يوم ميلاده :

يحق للكون أن يفاخر بابن تلك الحكيمة.

ابن الله .. الحكيم.

حامى الكون .. منعّم الإنسان.

وقد عُرف كريشنا يوم ميلاده بنجم ظهر فى السماء ، وقال أتباعه أن الأرض سبحّت باسمه ، وأنارها القمر بنوره .. كما ترنمت الأرواح وغنت ، وهامت الملائكة فرحاً وطرباً.. ورتل السحاب أيضاً[٥] ، ولدته أمه فى كهف مظلم فى الشتاء، ذليلة فقيرة ، إلا أنه فور أن «حلت» روح الإله فى رحمها ، أضاء الكهف نور عظيم ، خرج من وجه «ديفاكى» واستقر فى وجه الابن ، وعرفت إحدى البقرات الموجودة بالكهف الطفل كريشناً وعلمت «بألوهيته» فسجدت له ، وآمن الناس بعدها به .. واعترفوا بلاهوته ، وذهب كثيرون لأمه مقدمين صندلا وطيبا وأفضل أنواع البخور ، وشاع الخبر هنا وهناك. حتى وصل أسماع الملك القاسى «نارد»[٦] ، وأيقن نارد أنها أيام الطفل الإلهى الذى حكى عنه الأجداد ، وأن كريشنا هو ذلك الطفل ، فزاره فى مدينة «كركول» ، وأحصى ما فوقه من نجوم فتأكد أنه هو ، ولما عاد لقصره أمر بقتله.

وفى ديانة براهما .. أن كريشنا جزء من روح الإله براهما. تماما كما لدى الفاطميين فى مصر أن الحاكم بأمر الله جزء من روح الله ، ويعتقد الهنود أن الإله براهما خلق نفسه قبل الخلق كله ، ثم خلق باقى الخلق .. وسمى نفسه الخالق.

و«كريشنا» ابن الإله براهما ، هو الذى خلّص الإنسان وأبناءه بتقديم نفسه للصليب فداء عنهم ، لذلك تصوره طوائف البراهمة فى رسوماتهم مصلوباً مثقوب اليدين

والرجلين علـى قميصه صورة قلب إنسان معـلق كناية عن ذل البشر وهوانهـم لو لم يُقتل كريشنا أو يرضى بالصلب.

أما الإلـه «بعل» الإله الـبابلـى القديم الـذى تحول «لهُبـل» أحد المعـبودين فى الجـزيرة العربية قبل البعثة المحمدية.. فله نفس القصة أيضا . (وللمرة الثالثة).

وتصوره الرسومات القديمـة على حيطان المعابد البابلية منذ ميـلاده وحياته ومحاكمته ثم مماته وقيامـته من جـديد ، وبعدمـا نطــق بأفكـار ترفض تعـدد الآلهة ، حـكموا علـيه بالإعدام ، لكن الجماهير الغاضبة كان حكمـها أعنف وأسرع ، ولـم ينتظروا تنفيذ الحكم ، فأعتدوا عليه فور خروجه من المحكمة.. جرجروه على الأرض ، ونزعوا ثيابه ، لكن جنود الملك خلصوه ، وحبسوه فى أحد سجون الجبل.

وتقول أسطورة «بـعل» أنه صادف سجيناً آخـر ينتظر هو الآخر الإعدام ، لـكنه أعفى لأسباب لم يعرفهـا ، وحل «بعل» مكانه. وفى الصباح نفذوا حكـم الإعدام فى بعل ، فعم الظلام ، وانطلـق صوت الرعد ، واضطربت أحوال الـناس ، لذلك أمر الملك بحـراسة قبر «بعل» حتى لا يـسرق أتباعه جثته ، وتـصور إحدى المخطوطات البابـلية إلهتين جالـستين حول مقبرته تبكيانه قبل قيامته فى اليوم الثالث لدفنه.

عاد «بعل» للحياة فى الـربيع أو فى عيد الربيع وصعد للسماء ، بعـدما وعد أنه سيهبط مرة أخرى لخلاص العالم ، وقال أنه سيعود آخر الزمان .

ومنذ ذلـك الوقت والبـابليون ـ والـشعوب المحيـطة ـ يحتـفلون بعـيد الربيـع وسماه الإيرانـيون «بالنـيروز» أو «ناروز» ، وتـكثر اسـماء «زوران» بين المجـوس ، وهو المقـلوب اللغوى الشائع فى اللغات القديمة للفـظ «ناروز». ولأن «بعل» مثل «ميثرا» كانا آلهة للنور والضياء فـإن ميلادهما ـ خصـوصاً ميثرا ـ كان يـو م ٢٥ كانون أول (ديسمبـر) نفس يوم بداية دورة الـشمس الجديدة حول الأرض وربمـا عبدالفرس «الـنار» لأنها رمز للـشمس ، التى يمثلها «ميثرا» على الأرض بعدما حلت فيه روحها(٧).

❑

وانتقلت أساطير العالم القديم للجزيرة العربية ، وتدريجياً اكتسب العرب أخلاق بقايا «ديانات» العـالم القديم ، فامـتزجت قصص خلـق الأرض ، بقصص أول البشـر .. حتى التـفاصيل الـصغيرة ، وأدق الـدقائق ، لذلـك حلق الـعرب رؤوسهم حـزناً على المـوتى ،

وغطوا شعورهم أمام الكبير وفى صلواتهم ، وظهرت «الندابات» ، وتفاخر العرب بأعلى «صياح» على أساس ارتباط الصياح بمكانة الميت وثرائه ، وموقع قبيلته بين القبائل الأخرى.

ظاهرة «الندابات» عرفتها «سومر» ثم «بابل» وعرفتها شعوب الهند قبل العرب ، ودخلت التراث اليهودى كطقس دينى مهم ، وجرت العادة أن يظهر اليهود حزنهم على وفاة أصدقائهم عن طريق جرح أجسامهم وقص جزء من شعورهم إلى درجة أن تظهر فروة الرأس ، وفى التوراة أن النبى أرميا يقول : « فيموت الكبار والصغار فى هذه الأرض ، لا يدفنون ولاينديونهم ولا يخمشون أنفسهم ولا يجعلون قرعة من أجلهم»[٨]. وهو نص حزين يشير إلى أن أرميا النبى يتنبأ بكارثة تبدّل العادات المقدسة ، مايدل على أن جرح النفس والصياح وقص شعر الرأس كان مقدساً ، وعلامة على الحزن .. أو الخشوع فى العبادة.

الأمر نفسه لدى الفراعنة المصريين القدماء فقد غطى الكهنة شعورهم داخل «قدس الأقداس» أو حلقوها ، وتحولت العادة إلى أن غطى الرجال والنساء شعورهم علامة على «الخلق الدمث» بعدما كان غطاء الرأس عادة مقصورة على الأمراء والملوك ، وحتى القرن التاسع عشر كان من المستحيل أن يخرج الفلاح المصرى من بيته دون غطاء رأس. وفى «التوراة» أن «شمشون»[٩] كان قوياً ولم يستطع أحد قتاله ، وهو ما جعل «دليلة» تسأل الآلهة عن سر هذه القوة ، فكانت الإجابة أن قوته تكمن فى شعر رأسه الذى لم يحلقه ولا يغطيه ، وباعت «دليلة» السر لأعداء شمشون فأمسكوا به وقيدوه وقصوا شعره بالقوة فعاد ضعيفاً.. كأنه رجل عادى [١٠].

وفى سفر أرميا أيضا : «أن رجالاً أتوا من شكيم ومن شيلو من السامرة ، ثمانين رجلا محلوقى اللحى و«شعور الرأس» ومشققى الثياب وبيدهم تقدمة ولبان ليدخلوهما إلى بيت الرب» [١١]. ويظهر فى النص أن الرجال وصفوا بأنهم أتقياء لأنهم قصوا شعورهم ، تعبير عن الخشوع والحزن العميق .

ورث أبناء بنى إسرائيل عادات الشعوب القديمة ، وحولوها لطقس دينى ، فأمروا بقص الشعر إلى درجة «الصلع» ، وإن لم يذكروا عادة تجريح الأجسام ، فالنبى «عاموس» أقدم نبى وصلت كتاباته يعلن فى أحد الأسفار على لسان الرب زوال دولة إسرائيل فيقول : «وأحول أعيادكم نوحاً وجميع أغانيكم مراثى وأصعد على كل الأحقاء مسحاً وعلى كل رأس قرعة واجعلها كمناحة الوحيد وآخرها يوما مرا»[١٢].

ومما ورثه التراث اليهودى عن بقايا الديانات القديمة قصة الخلق.

تخلص هذه القصة أن الرب [١٣] خلق الكائنات وخلق الرجل والمرأة بعد ذلك من طين ، وفى الإصحاح الثانى من سفر التكوين أنه خلق المرأة من ضلع الرجل وأسكنهما فى الجنة ، وأغدق عليهم بالنعم ، فيأكلا ما يريدان على ألا يقتربا من ثمار شجرة المعرفة. وجاءت الحية (ثعبان كبير) لحواء وقالت إن الرب قد حرّم عليهما الأكل من هذه الشجرة كى لا يعرفان أى شىء عن الخير والشر. فما كان من حواء إلا أن مدت يدها وأكلت هى وآدم.

لم يكن الرب قد علم بما ارتكبه آدم وحواء من حماقة ، وذات يوم عندما كان الرب يتمشى فى الجنة ، وجد آدم وحواء مختبئين خجلاً بعد أن انكشفت لهما عورتهما أثر أكلهما من الشجرة.. فنادى عليهما وطردهما من الجنة ، خوفاً من أن يتهورا مرة أخرى فيأكلان من شجرة الحياة فيصبحا خالدين مثله.

فى هذه القصة ثلاث ملاحظات تفتح باب المقارنة بين القصة اليهودية وقصة الخلق لدى الشعوب البدائية والقديمة.

أولى الملاحظات هى خلق الإنسان الأول من الطين. ثانيا: الدور الذى لعبته الحية فى القصة ، وأخيراً حرمان الإنسان من الخلود.

تتفق حكايات جميع شعوب العالم البدائية والقديمة على خلق الإنسان من طين. سكان أستراليا الأصليون السود ـ سكان ضواحى ملبورن ـ يعتقدون أن «بندر ـ جل» الخالق قطع ثلاث شرائح من ورق الشجر ، ووضع بعض الطين على إحداها ، وسواها بالسكين حتى صار رجلاً معتدل القامة.

ووضع كمية أخرى من الطين فصنع الأقدام أولا ثم الأرجل و أخيراً الأذرع والرأس ، ثم جاءه شعور بالارتياح والسرور ، فرقص حول أول ذكر وأنثى ، ولما انتهى جاء بخيوط من ورق شجرة الكافور وصنع منها شعراً لصقه فى رأس آدم وحواء ، ثم أستلقى فوقهما ونفخ فى فم كل منهما بقوة.. فتحركا وتكلما.. وأصبحا مكتملى النمو [١٤].

أما إقحام الحية فى قصة الخلق ، يرجع ـ وفق كثير من التقديرات ـ إلى اعتقاد الإنسان البدائى أن الحية هى الوحيدة التى لا تموت ، فهى تغير جلدها باستمرار ، الأمر الذى اعتبره الإنسان تجديدا لحياتها كلها ، لذلك تعمدت الحية غواية آدم وحواء كى يعصيا أمر ربهما فيحرمهما من الخلود ولا يشاركونها فيه.

فلأن الحية تغير جلدها فى مواسم معينة ، لذلك تصور الإنسان البدائى أنها تجدد شبابها ولا تموت على الإطلاق ، على أنها - أى الحية - ليست الحيوان الماكر الوحيد الذى ربط الإنسان البدائى بينه وبين حرمانه من الخلود ، فقد روت حكايات عديدة أن القمر (الإله) أرسل الكلب ليبلغ الإنسان أنه عندما يموت ، فسيحيا مرة أخرى فى حياة أخرى تماما كما يحدث للقمر الذى يصبح محاقاً يعود ويولد هلالا مرة أخرى.

ويرد فى حياة الشعوب البدائية أن الكلب غيرّ «محتوى الرسالة » ، و بهذا كتب على الإنسان الموت بسبب الخطأ (١٥).

وربما هذا ما يجعل الكلب ملعونًا أو نجساً عند رجال الدين

رواية التوراة رواية محرفة لحكاية أخرى أصلية (ربما تعود للعصور السومرية) حكت عن شجرتين فى الجنة حرُمتا على الإنسان ؛ شجرة الفناء وشجرة الحياة ، فقد آمن السومريون أن الرب كان رحيما كل الرحمة بالإنسان فأسكنه الجنة وأنعم عليه بخيرات كثيرة ، وأمر الإنسان ألا يأكل من شجرة الفناء و أن يأكل دائما وباستمرار من شجرة الحياة ، إلى أن جاءت الحية الماكرة التى شاءت أن تحرم الإنسان من الخلود الدائم (١٦).

بمرور الزمن تغلغلت القصة بتفاصيل أكثر دقة والأساس صراع الخير والشر. نفس فكرة صراع (أوزير) و(ست) فى العقيدة المصرية القديمة ، وصراع (مردوك) و(تهامة)فى عقيدة بلاد الرافدين القديمة ، ثم صراع (بعل) و(موت) فى العقيدة الكنعانية. ونفس الفكرة القديمة الشائعة فى بقية معتقدات العالم القديم من تنين الصين حتى تنانين بلدان أمريكا الجنوبية التى رمزت للشر.

فقد حاول الإنسان عندما اكتشف فكرة الشر أن يجد لها رمزا طبيعياً ، ولم يكن أمامه مثل على الخبيث الذى يضمر السوء ، ويتوارى بسرعة عن النظر أقرب من الحية التى تزحف على التراب وتندس فى الجحور وتمارس الخديعة بتغيير جلدها لتستمر فى الحياة وتستمر فى الأذى ، وظلت الفكرة تكبر حتى بقيت الحية مقترنة بالشر أو رمزاً له(١٧)، فنسجت حولها الأساطير التى امتدت جذورها لما قبل خلق الإنسان.

وفى العقيدة الفارسية القديمة ، أن (اهرمان) إله الشر تشكل بشكل حية وملأ الوجود كله ، ثم أرسل سمومه فى كل شىء ، ولم ينهزم حتى هبط «هرمز» إله الخير إلى الأرض وأصلح كل شىء.

وفى سفر أشعياء النبى (العهد القديم) جاء أن طائفة من الملائكة تسمى «السرافيم» تحرس عرش الرب فى معبد أورشليم ، وقد اكتُشف أن كلمة «سرافيم» فى اللسان العبرى جمع للمفرد (ساراف).. (وساراف) تعنى الحية [18]. والحية هى التى أغوت حواء للأكل من الثمرة المحرمة ، فهى إذن رمز (ابليس) أو هى الشيطان الذى كان ملاكاً فى الأصل .

والكتاب المقدس يقول: «وكانت الحية أصل جميع الحيوانات البرية التى عملها الرب الإله. فقالت للمرأة : احقا قال الله لا تأكلا من كل شجر الجنة ، فقالت المرأة للحية من شجر الجنة نأكل ، وأما ثمرة الشجرة التى فى وسط الجنة ، فقال الله لا تأكلا منه ولا تمساه ، لئلا تموتا ، فقالت الحية للمرأة بل الله عالم أنه يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما ، وتكونان كالله عارفين الخير والشر ، فرأت المرأة أن الشجرة جيدة الأكل وأنها بهجة للعيون وأن الشجرة شهية للنظر ، فأخذت من ثمرها وأكلت وأعطت رجلها. ولما علم الرب بذلك قال للحية لأنك فعلت هذا ملعونة أنت من جميع البهائم وفى جميع الوحوش البرية. على بطنك تسعين وتراباً تأكلين كل أيام حياتك».

وتحولت الحية فيما بعد «لإبليس». أو رمز للشيطان ، وربما تحولت فى أفكار الحضارات القديمة التى استمد منها كتاب التوراة ثقافتهم للشيطان نفسه ، حتى أن الشيطان - حتى الآن - فى فكر بعض الحضارات عبارة عن تنين خرافى يطلق النار من فمه أو تنين له رؤوس متعددة ، الملاحظ أن التنين هو فى الأصل جسم حية ، ورأس ثعبان ، وعند البوذيين أن «الشيطان» يظهر دائما فى صورة تنين له ملامح ثعبان كبير ، ويصور الفكر المسيحى القديس «مارجرجس» وهو راكبا حصانه يقتل الشيطان ، والرسم القديم للوحة يبين القديس راكباً حصانه ويقتل برُمح طويل تنين يطلق ناراً من فمه.. له جسم حية ورأس تشبه إلى حد ما رأس «التيرانوصور» (أحد أنواع الديناصورات) والأقرب شبها لشكل رأس الثعبان .

ولما كان كاتب التوراة قد استمد ثقافته من الفكر السومرى والبابلى القديم ، فقد كانت صفحات التوراة صورة حديثة لأساطير سومر القديمة. فتحكى التوراة أن الإله (يهوه) دخل صراعاً رهيباً مع التنين (الشيطان) الذى اسمه (لوياثان) فيقول: «أنت شققت البحر بقوتك ، كسرت رؤوس التنانين على المياه» (مزمور ٧٤ الكتاب المقدس). ويقول أيضاً «فى ذلك الوقت ستقتل لوياثان الحية ، الهاربة ، لوياثان الحية الملتهبة ، ويقتل التنين الذى فى البحر» [20].

وكشفت البعثات الأثرية كثيراً عن (الشيطان) أو إله الشر المرموز له «بلوياثان» فوجدوا صورة طبق الأصل لما أورده الكتاب المقدس: «فى ذلك اليوم يعاقب الرب بسيفه القاسى العظيم الشديد لوياثان ، ويضع نهاية للحية الملتوية الهاربة ، شالياط ذات الرؤوس السبعة»(٢١).

وفى نص بابلى آخر تقوم زوجة الإله بعل بقتل الشيطان ، فيخاطبها قائلاً: «ألست أنت التى أفنيت التنين؟! وسحقت الحية ذات الرؤوس السبعة؟!» .

ويبدو أن الكاتب التوراتى أصر على أن الشيطان تمثل لآدم وزوجته فى صورة حية حين أغراهما بالأكل من الشجرة المحرمة ، ومن وقتها لم تنقطع العلاقة بين الشيطان والحية أبداً ، ومن وقتها اكتسب الفكر الدينى ـ أيضا ـ فكرة الحلول ، أى أن تحل روح فى جسد آخر ، كأن تحل روح الشيطان فى الحية ، أو أن يحل روح الله فى المسيح عيسى بن مريم عليه السلام ، و أخيراً حلول روح على بن أبى طالب فى أئمة صالحين لدى الشيعة وروح الله فى جسد الحاكم بأمر الله عند الفاطميين.

لم يقتصر نقل اليهود لأساطير الحضارات القديمة على العرب فقط ، إنما تطور الأمر ليصل للفكر المسيحى.

فأصبح الشيطان هو «الحية» و«التنين» فى الفكر المسيحى القديم ، واستمرت ـ حتى الآن ـ اللوحات الفنية المسيحية تمثله بالحية وبالتنين فى جميع أعضائه عدا الرأس الذى حول إلى رأس إنسان ذى قرنين أو أذنين مكان القرنين. وأوضح إشارة أنجيلية لتسمية الحية بالشيطان جاءت فى أعمال الرسل: «إنه التنين العظيم ، الحية القديمة ، المدعو إبليس ، الشيطان الذى يضل العالم» (إصحاح ١٢ أعمال الرسل).

ولما انتقل الفكر اليهودى (السومرى الأصل) للعرب ، انتشر فى الجزيرة العربية أن الشيطان ثعبان كبير، وفى الإسلام تفسيراً (للنيسابورى) يقول: «أن أبليس أراد أن يدخل الجنة ليوسوس لآدم وحواء فمنعه خزنتها (حرس الجنة) من ذلك ، فذهب إلى الطاووس وكان سيد طيور الجنة يتحايل عليه ليدخل جسده ، فدله على الحية لأنها أقدر على ذلك ، وكانت الحية من خزان الجنة ، وكانت صديقة لإبليس ، فأدخلته فمها ومرت به على الحرس وهم لا يعلمون فأدخلته الجنة دون أن يراه أحد».

وتدلل الاكتشافات الأثرية على تأثر العقيدة العبرية (والمسيحية والعربية بعدها) بالأساطير السومرية والبابلية القديمة ، فقد عثر العلماء على نقش سومرى يعود لثلاثة

وكشفت البعثات الأثرية كثيراً عن (الشيطان) أو إله الشر المرموز له «بلوياثان» فوجدوا صورة طبق الأصل لما أورده الكتاب المقدس: «فى ذلك اليوم يعاقب الرب بسيفه القاسى العظيم الشديد لوياثان ، ويضع نهاية للحية الملتوية الهاربة ، شالياط ذات الرؤوس السبعة»(٢١).

وفى نص بابلى آخر تقوم زوجة الإله بعل بقتل الشيطان ، فيخاطبها قائلاً: «ألست أنت التى أفنيت التنين؟! وسحقت الحية ذات الرؤوس السبعة؟!» .

ويبدو أن الكاتب التوراتى أصر على أن الشيطان تمثل لآدم وزوجته فى صورة حية حين أغراهما بالأكل من الشجرة المحرمة ، ومن وقتها لم تنقطع العلاقة بين الشيطان والحية أبداً ، ومن وقتها اكتسب الفكر الدينى ـ أيضا ـ فكرة الحلول ، أى أن تحل روح فى جسد آخر ، كأن تحل روح الشيطان فى الحية ، أو أن يحل روح الله فى المسيح عيسى بن مريم عليه السلام ، و أخيراً حلول روح على بن أبى طالب فى أئمة صالحين لدى الشيعة وروح الله فى جسد الحاكم بأمر الله عند الفاطميين.

لم يقتصر نقل اليهود لأساطير الحضارات القديمة على العرب فقط ، إنما تطور الأمر ليصل للفكر المسيحى.

فأصبح الشيطان هو «الحية» و«التنين» فى الفكر المسيحى القديم ، واستمرت ـ حتى الآن ـ اللوحات الفنية المسيحية تمثله بالحية وبالتنين فى جميع أعضائه عدا الرأس الذى حول إلى رأس إنسان ذى قرنين أو أذنين مكان القرنين. وأوضح إشارة أنجيلية لتسمية الحية بالشيطان جاءت فى أعمال الرسل: «إنه التنين العظيم ، الحية القديمة ، المدعو إبليس ، الشيطان الذى يضل العالم» (إصحاح ١٢ أعمال الرسل).

ولما انتقل الفكر اليهودى (السومرى الأصل) للعرب ، انتشر فى الجزيرة العربية أن الشيطان ثعبان كبير، وفى الإسلام تفسيراً (للنيسابورى) يقول: «أن أبليس أراد أن يدخل الجنة ليوسوس لآدم وحواء فمنعه خزنتها (حرس الجنة) من ذلك ، فذهب إلى الطاووس وكان سيد طيور الجنة يتحايل عليه ليدخل جسده ، فدله على الحية لأنها أقدر على ذلك ، وكانت الحية من خزان الجنة ، وكانت صديقة لإبليس ، فأدخلته فمها ومرت به على الحرس وهم لا يعلمون فأدخلته الجنة دون أن يراه أحد».

وتدلل الاكتشافات الأثرية على تأثر العقيدة العبرية (والمسيحية والعربية بعدها) بالأساطير السومرية والبابلية القديمة ، فقد عثر العلماء على نقش سومرى يعود لثلاثة

آلاف عام قبل الميلاد (قبل ظهور اليهودية بمئـات السنين) يصور ذكرا و أنثى يتناولان ثمرة من نخـلة ، وخلف الأنثى ظـهرت حية قريـبة من الأنثى.. بـعيدة عن الرجل ، وهـى نفس الصورة التى حكت عنها التوراة فيما بعد»[٢٢].

وفي متحف حلب مـعروض نقش سومرى قديم لآخر صورة من صور الـشيطان التى لازال فكر البسطاء والعامة مصّراً على الاحتفـاظ بها ، فالشيطان فى هذه الصورة له جسم حية وأرجلٍ ماعـز وذيل ووجهه إنساني وعلـى رأسه قرون ، ومن هذا النقش بـدأ الباحث أندريه باروٌ بحثه عن الشيطان وأصله فى الحضـــارات القديمة ، وكان أن نشر كتابه الدقيق (بلاد آشور) .. ووصـل لنتائـج قوية جداً عـن صدى الفكر الـسومرى والبـابلى فى ثـقافة كتاب التوراة الاسرائيليين.

اكتسـى التراث العـربى بالفـكر اليهـودى وبالتالـى تحولت ثقـافة العرب إلـى خلاصة أساطيـر الحضارات القديـمة ، فى الوقت نـفسه استـمر اليهود فـنسبوا بطـولات الملاحم القديمة إلى آبائهم الأوائل ، وحولوا أبطال الأساطير السومرية و البابلية لأبطال من نسلهم هم ، واستطاعـوا أن يختاروا لكل بطل أسـطورى ، شجرة نسب وقصة مـيلاد فى أرضهم وبين أجدادهم ،

والنتيجة أن ظهر «العهد القديم» حاملاً لثقافات وأساطير متعددة.

فى مقدمة الكتاب المقـدس بطبعته الكاثوليكية الصـادرة عـام ١٩٦٠ من كتـب يقول : «مامن عالم كاثوليكى فى عصرنا يعتقـد أن موسى ذاته كتب كل التوراة منذ قصة الخليقة ، أو أنه اشرف عـلى وضع النـص الذى كتبـه عديدون بعـده ، بل يجب الـقول أن ازدياداً تدريجيا حدث سببته مناسبات العصور التالية الاجتماعية والدينية»[٢٣].

الباحثون التـوراتيون اختلفوا اختلافاً شديداً فـيما بينهم حول تاريخ الانتـهاء من كتابة التوراة ، ووصـل الكثيـرون منهم إلـى أنه ـ أى الأسفار الخـمسة الأولى ـ لـم تكتب بـيد مؤلف واحد ، إنما قام بـهذه المهمة مؤلفون كثيـرون ، فى عصور مختلفة .. وانتـهى الكثير من علـماء نقد التـوراة (علم حديـث ظهر فى أوروبا) أن أسـفار التوراة انتـهت كتابـتها بحلول المائة سنة الأولى قبل ميلاد السيد المسيح.

وهنـاك دراسات كثيـرة دقيـقة التـوثيق والبـحث ، أهمـها وأشهـرها دراسات «هـنرى بريستيد» حول تأثير الحضارات القديمة فى التراث التوراتى. ووصل عالم الآثار السومرية «صموئيل كريمر» إلى أن هناك تأثير شديد ومباشر ـ لبابل وآشور ـ فى التوراة.

التـأثير الـذى نقلـه اليهـود للعرب فـى شبه الجـزيرة العـربية ، وبـعد الإسلام سـاعد «الموالى» على ترسيخ هـذه الأساطير فى فكر المسلمين ووصل الأمر إلى تـفسير من علماء الإسلام للنصوص القرآنيـة وفقًا لمرجعية معتقدات العالم القديـم الثقافية ، وبمرور الوقت أصبحت أساطير «سومر» مسلمات فى الفكر الإسلامى لدى كل العامة، ومعظم الخاصة ، ولم يكن غريباً أن تظهر هذه الأساطير كل فترة فى ثوب جديد وشكل جذاب ، فتظهر مرة فى عقائد الشيعة ، ومرة فى فكرة حلول روح الله فى جسد الحاكم بأمر الله خليفة الفاطميين المشهور.

❑

قصة الطوفـان ـ أيضا ـ دخلتها أساطير كـثيرة وكبيرة ، حتى أنه ـ الطـوفان ـ ظل حتى الآن لغز معظم الـديانات السماوية ـ وغير السـماوية ، أو اللغز الذى يضيف إلـيه البعض أجزاء ، ويلغى الآخرون منه أجزاء أخرى.

الثابت فعـلا ـ لدى العلماء ـ أن الطوفـان غمر الأرض كلها منذ آلاف السنين.. وفى نظريات أخرى أن الطوفان اجتاح الأرض أكثر من مـرة ، ورغم أن الكثير من الباحثين فى «الجيولـوجيا» مُصرون عـلى أن تلك الـوقائع حدثت فـى زمن ما يسمـى «بعصر انـحسار الجليد» يرجع آخرون غمر الطوفان للأرض لما قبل هذا العصر بسنوات طويلة أخرى.

ومثلما كان الطوفان لغزاً لدى العلماء ، ظل لغزاً كبيراً لدى «البوذيين» و«الزرادشتيين» و«المجوس».. ولدى اليهود والمسيحيين والمسلمين. وقد اعتمد الكاتب التوراتى مرة أخرى على تجميع قصاصات تراث الحضارات القديـمة فى كتابة تفاصيل القصة ، فقد جـاء فى ملحمة جلجامش إحدى أساطير الحضارة السومرية القديمة (قبل اليهودية بمئات السنين):

إن طوفانا سيُهلك مراكز العبادة.

وتهلك ذرية البشر.

إن هذا هو القرار الذى أصدره الإله.

فى مجمعه.

قم فابن فلكاً.

هذا ما همس به الإله لعبده الصالح زيو سودرا (٢٤).

اعتقد السومريون أن زيوسودرا العبد الصالح قد بنى مركباً ضخماً بعدما تلقى إلهاماً بهذا.. وتستمر الملحمة حسب ماورد من ترجمات النقوش السومرية القديمة فتقول:

أرعد الإله حداد فى الغيوم.

وبعد أن زلج زيوسودرا الباب (باب السفينة).

كان الإله حداد يرعد فى الغيوم.

وأصبحت الرياح عاتية ، فأرخى الحبال.

وانطلقت السفينة مع التيار.

وجاءت كل الرياح والعواصف المدمرة.

واكتسحت الزوابع ، العواصم.

وبعد أن اكتسحت الزوابع البلاد.

فى سبعة أيام وسبع ليال.

وتأرجحت السفينة مع الرياح المدمرة.

فى المياه العالية.

بزغت الشمس تنير الأرض[٢٥].

قبل منتصف القرن الماضى أعلن (صموئيل كريمر) عالم الأثريات والباحث فى الآثار السومرية والبابلية القديمة: أن «قصة الطوفان التى دونها كتاب التوراة العبريون لم تكن أصلية ، إنما هى من المبتكرات السومرية التى اقتبسها البابليون ، ووضعوها فى صيغة الطوفان البابلى».

فبعد السومريين.. أتى البابليون. وظهرت ملحمة الطوفان مرة أخرى ، باسم جديد وصياغة جديدة ، فيما كان المحتوى واحدا، البطل هذه المرة تحّول من «زيوسودرا» ، إلى «اوتنابشتيم» فتقول قصة الطوفان البابلية.

أوتنابشتيم يا رجل شورباك.

اهدم الدار وابن سفينة.

دع أملاكك ، وانقذ حياتك.

وفيما ظلت الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم (التوراة) حتى وقت قريب يهودية صرفة تغير هذا الاعتقاد تماما لدى علماء الأثريات ، خصوصاً بعد حل اللوح الحادى عشر من ألواح ملحمة «جلجامش» البابلية.. التى هى فى الأصل تراث سومرى اقتبسها البابليون مع بعض التغييرات الطفيفة أيضاً [٢٩]. ولأن التراث الفكرى اليهودى اختلط بالتراث العربى ، بعدما استقر اليهود بالجزيرة العربية وأصبحوا جزءاً من شعبها ، بدأ العرب يتحولون للاعتقاد ـ الذى ترسخ فيما بعد ـ بأن نوح أحد مشاهير الأنبياء الخمسة أولى العزم ، وأخذوا بروايات اليهود ـ غير المنطقية ولا العلمية ـ على أنه النسل التاسع فقط لآدم[٣٠]. رغم أن العلم يؤكد أن الفارق بينهما أكبر بكثير من تسعة أجيال.

وإعمالا لتملك الفكر التراثى الخرافى من العقل العربى ، يصف (الجزائرلى) سفينة نوح قائلاً : « مقدار طولها فى الأرض ألف ومائتى ذراع ، وعرضها ثمانمائة ذراع .. وطولها فى السماء ثمانون ذراعاً».

ويكمل «فلما ركب نوح السفينة ضربتها الأمواج حتى وافت مكة ، وطافت بالبيت (لاحظ أن إبراهيم عليه السلام لم يكن قد ولد بعد ولا رفع قواعد البيت) وغرق جميع الدنيا إلا موضع البيت. وإنما سمى البيت العتيق لأنه أعتق من الغرق».

ويضيف (الجزائرلى) أن الله قال لنوح (عليه السلام) بعد ما انحسرت المياه : «يا نوح إننى خلقت خلقى لعبادتى ، وأمرتهم بطاعتى ، وقد عصونى وعبدوا غيرى واستوجبوا بذلك غضبى فغرقتهم ، وأنى جعلت قوسى (قوس قزح) أماناً لعبادى وبلادى ، وموثقاً منى بينى وبين خلقى ، يأمنون به إلى يوم القيامة من الغرق. وقال:« ففرح نوح وتباشر ، وكانت القوس فيها سهم ، فنزع الله عز وجل السهم والوتر منه» وفيما ينسبه الجزائرلى للنبى ﷺ أنه قال: «لا تقولوا قوس قزح فإن قزح اسم الشيطان ، لكن قولوا قوس الله».

أما ابن كثير فيشير إلى قصة العهد الذى أخذه الله على نفسه بألا يغرق عباده فيما بعد ودلل عليه بقوس قزح فيقول: «اخرج من الفلك أنت وامرأتك وبنوك ونساء بنيك معك وجميع الدواب التى معك ، وليمنوا وليكثروا فى الأرض ، فخرجوا وابتنى نوح مذبحاً لله عز وجل وأخذ من جميع الدواب الحلال والطير الحلال فذبحها قرباناً إلى الله عز وجل ، وعهد الله إليه أن لا يعيد الطوفان على أهل الأرض ، وجعل تذكارا لميثاقه القوس الذى فى الغمام وهو قوس قزح»[٣١].

ويستمر الفكر الأسطورى ويختلط بالتراث العربى.. وتتكاثر تفاصيل طوفان «نوح» ،

فيحكى (الجزائرلى)[٣٢]: «ويوم النيروز هو اليوم الذى استقرت فيه سفينة نوح عليه السلام على جبل اسمه الجودى». (لاحظ أن النيروز عيد سومرى قديم). ويكمل: «إن الله أوحى إلى الجبال أنى واضع سفينة على جبل منكن فى الطوفان فتطاولت وشمخت، وتواضع جبل بالموصل يقال له الجودى فأخذت السفينة تدور فى الطوفان على الجبال كلها حتى انتهت إلى الجودى فوقفت عليه فقال نوح: «بارات قنى، بارات قنى».. يعنى اللهم أصلح اللهم أصلح. وفى حديث آخر قال «يا ماريا أتقن، يعنى يارب أصلح».

الملاحظة أن الجزائرلى كان يعرف لغة النبى نوح، أو يعتقد ـ كما انتشرت التفاصيل فى التراث العربى ـ بالمعرفة الحقيقية لتفاصيل أبجديات لغة نوح عليه السلام، فيما لم تكن هذه اللغة سوى بقايا للغة الحضارات الرافدية.

ويكمل الجزائرلى يقول: «إن نوحاً» لما ركب السفينة أوحى الله إليه يا نوح إن خفت الغرق فهللنى ثم سلنى النجاة انجيك من الغرق ومن آمن معك، فلما استوى نوح ومن معه فى السفينة ورفع القلص عصفت الريح عليهم، فلم يأمن نوح من الغرق، فأعجلته الريح فلم يدرك أن يهلل ألف مرة فقال هلوليا ألفا ألفا، يا ماريا أتقن، فاستوى القلص وجرت السفينة».

بينما الحقيقى أن النداء (هلوليا)[٣٣]. نداء مستعملاً فى أناشيد الإلهة عشتار إلهة الخصب فى الحضارات القديمة. وعرف عباد الإله (ديونيسيوس) بالألوليون (أصحاب هلوليا)، أو الذين يستعملون هذا النداء فى العبادة. والإله (ديونيسيوس) هو النسخة الرومانية من الإله البابلى (تموز) زوج الإلهة (عشتار).

ورغم ما دخل التراث العربى والإسلامى من وقائع موروثة عن التوراة، الذى ورثها بدوره من حضارات سومر وأكاديا وبابل. يؤكد (ابن كثير) فى مقدمته لكتاب البداية والنهاية أنه سيجعل روايات اليهود القديمة مصدراً لا غنى عنه فى مؤلفه. ويعقب (ابن كثير) على الحديث النبوى: «بلغوا عنى ولو آية، وحدثوا عن بنى إسرائيل ولاحرج» بقوله «هو محمول على الإسرائيليات المسكوت عنها عندنا، فليس عندنا ما يصدقها ولا مايكذبها».

والنتيجة التى يراها ابن كثير أنه: «تجوز روايتها للاعتبار»[٣٤].

ولما تعرف الدارسون الغربيون على مؤلفات «بيروسوس»[٣٥]. وهو المؤرخ البابلى

الأصل الـذى كتب تاريخ بلاده فى النصف الأول من القرن الثالث قبل الميلاد ، وجدوا أن بيروسوس دون بدقة قصة الطوفان قبل اليهودية بقرون.

فقال أن الـطوفان حدث فى عـهد الملك «اكسـيسو ثروس» المـلك العاشر الـذى حكم بابل. فظهر الإله «كرونسوس» لهذا الملك فـى منامه، وحذره من أن طوفاناً سيغمر الأرض ويهلك الـناس جميعاً. فـطلب منه أن يبـنى سفينة يـركبها مع أقربـائه ويخزن فيهـا اللحم والـشراب. كـما أمره بأن يـأخذ فـيهـا الطـيـور والحيـوانات والحـشــرات ، ولما انـتهـى «اكسيسوثروس» من إعداد السفينة سأل الإله إلى أيـن يبحـر ؟! فقال له الإله: «إلى الآلهة بعد أن تصلى من أجل خير الناس».

فأطاع «اكسيوثروس» ما أمُره وبنى سفينة طولها مائة وألف ياردة ، وعرضها أربعمائة وأربعون. وبعدما هدأ الطوفان ، أطلق «أكسيسوثروس» سراح بعض الطيور ، التى لـم تجد طعاماً ولا مكانـاً تستقر فيه فعادت للسـفينة ، إلا أنه أطلقها مرة أخـرى بعد أيام .. فعادت هذه المرة وأرجلها مـلوثة بالطين.. فيما لـم تعد المرة الثالثة ، عندهـا عرف الملك أن الماء قد انحـسر عن الأرض فـنزل هو وزوجتـه وابنتـه وقائد الـدفـة ، وسجـد على الأرض وبـنى مذبحاً للآلـهة. ثم اختفى هو ومن مـعه. فلما قلق الذيـن لا زالوا على السفينـة من غيابه ، نزلـوا للـبحث عـنه ، فـسمعـوا صوتـاً يقـول «اخشوا الآلـهة». وكـفوا عن الـبحـث عن «اكسيسوثروس» لأن الآلهة قد اختارته إلى جوارها. مع زوجته وابنته وقائد سفينته.

وأخبرهم الصوت أن الأرض التى يـقفون عليها هى أرمينيا. فرجعوا لـبابل ، بينما ظل جزء من السفينة فى مكانه.

ظل البـاحثون الأوروبيون قرونـاً طويلة لا يعرفـون رواية أخرى للحـكاية البابلـية عن الطوفـان إلا تلك التى احـتفظت بهـا مذكرات «بيروسـوس» إلى أن اكتشفـوا بقايا مكـتبة الملـك الآشورى «اشـوربنيـبال» (حكـم فى ٦٦٨ ـ ٦٢٨ ق.م) آخـر عصر الامـبراطـورية الآشورية الزاهر.

العلـماء قالوا أن الروايات الـبابلية لأسطـورة الطوفان ترجع لـعصر «أشوربنيـبال» فى القرن الســابع قبل الميلاد. وقـال آخرون بل أقدم ، وعلى كل فـإن الشواهد القاطـعة للآثار القديمة الـهائلة لأسطورة الطوفـان تؤيدها الكتابات المـدونة على لوح مهشم اكـتشف فى مدينه «ابو حبة» فى تركيا تحتوى على روايات مخـتلفة فتذكر أن اللوح كتب فى الثامن من

شهر «شباطو» الشهر الحادى عشر من السنة البابلية ، فى السنة الحادية عشر فى حكم الملك «عمى صادوقاً»[٣٦].. حوالى عام ١٩٦٦ ق.م.

وهناك رواية أخرى وأقدم لأسطورة الطوفان ، اكتشفت بمدينة «نيبور» على يد متخصصى جامعة «بنسلفانيا» ، ومدونة على كسرة من الفخار غير المحترق. ورأى «ابروويسور» «هـ. و. هيلبرخت» بعد تحليل أسلوب الكتابة والمكان الذى عثر عليها فيه أنها لم تكتب بعد سنة ٢١٠٠ قبل الميلاد.

هذه الروايات كتبت باللغة السامية البابلية والآشورية ، لكن هناك رواية أخرى مكتوبة عثر عليها علماء الآثار فى «نيبور» أيضا ، وفكوا رموزها بعد عناء لأنها مكتوبة بلغة غير سامية تكلم بها الشعب الذى سكن أرض بابل قبل الساميين.

واكتشف العلماء أن قصة الطوفان السومرية تكملة لحكاية خلق الإنسان.

تقول الحكاية السومرية أن الآلهة خلقت الإنسان قبل الحيوان.

والذين يقرءون الكتاب المقدس لا يمكن أن يغيب عنهم التناقض الصارخ بين قصتى خلق الإنسان ، اللتين تقعان فى كل من الإصحاحين الأول والثانى من سفر التكوين.

ففى الحكاية الأولى (عهد قديم) يبدأ الإله بعملية خلق السمك ، ثم يمضى بعد ذلك فى خلق الطيور والوحوش حتى ينتهى إلى خلق الرجل والمرأة [٣٧].

بينما يخلق ـ فى الحكاية الثانية ـ الرجل ، ويخلق بعده الحيوانات.. وينتهى بخلق المرأة ، ويدل هذا التناقض ببساطة على أن القصتين قد استمدهما الكاتب من مصدرين مختلفين ، ثم جمع بينهما فى كتاب واحد.

قصة الخلق فى الإصحاح الأول مصدرها (كهنوتى) ألفه كتّاب يهود أيام السبى البابلى بينما الواضح أن قصة الخلق فى الإصحاح الثانى مصدرها عبرى ألف قبل المصدر الكهنوتى بمئات السنين.

فيما كان المصدر العبرى اليهودى تكملة بصورة ما لقصة بابلية قديمة.

ويبدو من نصوص مختلفة من الأدب البابلى أن البابليين كانوا يعتقدون أن الإنسان خلق من طين ، وهناك رواية إغريقية احتفظت بحكاية عن أصل الخليقة «لينيوسوس» الكاهن البابلى تقول: «الإله (بل)[٣٨]. قطع رأسه ، وجمع سائر الآلهة الدم المتدفق منه وعجنوا به التراب. وخلقوا البشر من هذه العجينة المخلوطة بالدم ، لذلك كان الرجال

ـ كما يعتقد البابليون ـ حكماء كل الحكـمة ، لأن الطين الذى خلقوا منه كان مخلوطاً بدم الإله.

وتقول الأساطـير الفرعونيـة أن الإله «خنم»(٣٩). أبو الآلهـة خلق الإنسان من الـطين على نفس المكان الذى كان يشكل عليه الفخار.

وتحكـى الأسطـورة الإغريـقية أن «بـيرومـيثـوس» خلق الإنـسان الأول مـن الطـين ، وتخلفت عـن عملية الخلق كمـية من الطين كان من المـمكن رؤيتها بعد هـذا الوقت بزمن طويل على شكل صخرتين كبيرتين تشرفان على واد ضيق».

واعتقد السومريون أن الذى ينسب له فعل خلق الإنسان هو الإله (أنكى) فتقول سطور أحد ألواح سومر المحفوظة بمتحف اللوفر الفرنسى:

الأم الأولى «نمـو» تأتى إلى «أنـكى». وتخاطـبه قم يـا بنى من فـراشك. واعمل مـاهو حكيم لائق. اصنع عبيداً للآلهة وعساهم أن يضاعفوا من عددهم فتدبر «أنكى» الأمر وقال لأمه «نمو» يا أمـاه.. إن المخلوق الذى نطقـت باسمه موجود فـاربطى عليه صـورة الآلهة. اعجـنى لب الطـين الموجود فـوق مياه العـمق. واجعلـى الصانعـين المهرة يـكثفون الـطين وعلـيك أنت أن تـوجدى له الأعـضاء والجوارح وسـتعمـل «ننمـاه» الأم الآلهة مـن فوق يديك. وستقوم بجانبك إلهة الولادة. وستربط ننماه عليه صورة الآلهة. إنه الإنسان(٤٠).

اعتقـد السومريون أن الإنسـان صُنع من طين وأنـه خلق من أجل غرض واحـد فقط .. أن يعـبد الآلهة ويـخدمهـا بتزويدهـا بالطـعام والشـراب والمسكن لـيتوافـر لها وقت الـفراغ لأعمالها الإلهية»(٤١).

وأطلق السـومريون اسم (إنسى) عـلى أول مخلوق إنسانـى طينى. وكلمـة انسى فى تحليل سيد القمنى (باحث التراث) تعنى «الـشبيه» والاسم «انسى» فى كل اللغات السامية يدل على الإنسان(٤٢) ، ومؤنثه (أنتى) أو (أنثى) وجمعها فى اللغة العربية «إناث».

وكان الاسم «انسى» لقبّ لملوك سومر ، وهو ما اعتـبر لفظا لجلال الملوك والتأكيد على أبوتهم للمحكومـين ، وفى اللغات السامية القديمة لقب المـلك أيضا بلفظ «لوجل»(٤٣). أو «الرجل العظيم».

اعتقد السومريـون أيضا أن (نن تى) إلهة خلقت بغرض تـمريض وعلاج الإله (أنكى) عندما أصاب المـرض أحد «أضلاعه». والضلع بالـسومرية هو (تى) ، لذلك سـمت الآلهة

المرضة (نن تى) ، و(نن) يعنى السيدة ، وبذا يصبح الاسم بالكامل (سيدة الضلع) ويقول صموئيل كريمر (أحد علماء الآثار السامية) فى مؤلفه الموسوعى (من ألواح سومر) أن الكاتب التوراتى أخذ ما جاء فى الأسطورة السومرية بشكل مشوه ، وبعد مرور فترة من الزمن.. تعاقبت الأجيال ولم يعد هناك من يتذكر الأصل. يقول كريمر أيضا أنه طبقاً لقضية (نن تى) السومرية ، ظن اليهودى الأول أن الأنثى الأولى مخلوقة من ضلع الإنسان الأول. لذلك فسر لفظ «حواء» التى تدل على الأنثى الأولى فى اللغات السامية ، على أنها «السيدة التى تحيى أى التى تسبب الحياة»(٤٥).

ويشير «سيد القمنى» إلى الاعتقاد لدى السومريين الأوائل باختصاص الأم الأولى بلقب (مونوس) ، التى يظن أنها الأصل للكلمة السامية (مومس) التى انحدرت للعربية «مومس». للدلالة على المرأة التى لا تعرف معاشرة رجل واحد فقط ، وهو ما يتفق مع نظريات علم الاجتماع فى أن المرأة كانت مشاعاً للرجال فى المجتمع القديم أو ما يطلق عليه الآن (العصر الأمومى)(٤٦).

وتستمر القصة فتشير إلى أن الآلهة خلقت ثمانية نباتات ، فأكلها الإنسان الأول فغضبت آلهته وقامت تلعنه قائلة «لن أنظر إليك بعين الحياة حتى تموت»(٤٧). وتعتبر هذه القصة السومرية ـ حتى الآن ـ أول قصة تتكلم عن خطيئة الإنسان الأولى. فكانت الآلهة قد طلبت من الإنسان الأول ألا يأكل من النباتات الثمانى ، ولما أكل منعته من الخلود ، وكما تستمر القصة فقد أصاب المرض أحد اضلاع (أنكى) (الإنسان الأول) من استمرار وطول الغضب الإلهى ، وتعرض للموت بسبب خطيئته ، لكن شفاءه تم بانتزاع الآلهة للضلع المريض ، ليصبح هذا الضلع هو (نن تى) أو (المرأة المخلوقة من ضلع الرجل) ولم يمت الإنسان بعدما كان معرضاً لخسارة حياته بسبب خطيئة ، إنما استمر مع (حواء) كل إلى أجله ؛ فيما خسرت البشرية كلها صفة الخلود التى كانت الآلهة قد وعدت بها من قبل.

واعتقد البابليون والسومريون فى عالم تحت الأرض تنتهى فيه حياة الإنسان ، فتذهب الروح إلى قبر العالم السفلى الذى اسمه ارالو ، وهى مدينة كبيرة يعيش فيها الموتى بحزن وكآبة ، يشربون الماء القذر ويأكلون التراب ، فيدا لا يمكن التخفيف من هذا البلاء إلا بالقرابين التى يقدمها أصدقاء الميت وأقرباؤه.»(٤٨).

واعتقدوا أيضا أن هناك عالما آخر يذهب إليه الميت وهو «الادمو»(٤٨). وهى أرض

كبيرة ، مكان ظلمة يوجد فيه البيت الذى يدخله الإنسان ولا يخرج منه ، وهو مكان تحت الأرض تحيط به أسوار سبعة ، لكل منها باب واحد ، والموتى تنبت لهم أجنحة كأجنحة الطيور ، وهناك .. فى الادمو أمراضا خطيرة وحيوانات تمنع الموتى من العودة للحياة مرة أخرى.

وتبدل اسم «ادمو» فى الإشارة للعالم التحت أرضى إلى (ادّين)،ونطقت «الدين» و«أدن» وتحولت فيما بعد إلى «أديم». و«عديم».. وأخيراً «عدم». وأصبح العالم تحت الأرض اسمه ادن ، الدين ، ادين ، اديم ، ادمو ، أدم ، عدم. وكلها تعطى معنى العودة إلى «العدم» أو التراب.. أو الآديم. وآدم من تراب وإلى تراب أو «اديم» سوف يعود. وعند اليهود (ادون) أو (ادن) تعنى السيد.. أو الرب.

و اللفظ آدم لفظ سامي يدل على أب البشر(٤٩).

وجاء فى نصوص الألواح السامية الفينيقية (الاوجارتية) المكتشفة حديثاً:

أب آدم ويقرب (أى يقترب الأب آدم)

أو ظهر له فى الحلم إيل ، فى رؤياه ظهر أبو آدم(٥٠).

آدم تعنى هنا الإنسان ، والملاحظ فى النص الاعتقاد القديم فى عبادة الأب الأول ، فجاء (إيل) الإله القديم فى النص كأب للبشرية ، وهو الذى لقب عند الفينيقيين بأنه:

خالق الخلائق

خالق الكائنات.

لطفان (كثير اللطف بعباده)

إله الرحمة (٥١).

وكلها صفات تشير إلى الألوهية الممزوجة بالحنان الأبوى ، فيما كان (إل) أو (إيل) يُعد لدى الفينيقيين الإله الأعلى. ولقبوه بـ (العلى)(٥٢). وهو أبو الآلهة جميعاً ، وأبو البشر أيضاً. ولمزيد من الاجلال حرموا ذكر اسمه ، فذكروا صفاته ، وأخفوا ألفاظ أسمائه، ويبدو أن نفس الفكر وصل للعرب ، فخافوا من ذكر أربابهم بأسمائهم خوفاً من بطشهم، والفكر نفسه ـ حتى الآن ـ لدى المتصوفة المسلمون .. الذين يحرمون تماما ذكر لفظ الجلالة ويكتفون بالإشارة إلى الله بـ «هو»(٥٣).

الهوامش

١ ـ مقارنة الأديان ـ المسيحية ـ د. أحمد شلبي. مصادر المسيحية وأصول النصرانية: محمد أفندى حبيب.

٢ ـ المرجع السابق: د. أحمد شلبي. مقارنة الأديان. المسيحية وأصول النصرانية. محمد أفندى حبيب.

٣ ـ النصرانية والإسلام في مقارنة الأديان. المستشار محمد عزت الطهطاوى: الطبعة الثانية: ١٩٨٧ الفصل الثاني ـ ٩٩ ـ ومابعدها.

٤ ـ المصدر السابق: المستشار محمد عزت الطهطاوى ص ١٠٨ ومابعدها.

٥ـ ولد كريشنا ـ فى الديانة البراهمية قبل ميلاد المسيح بأكثر من ٨٠٠ عام.

٦ـ عبادة الأهرام:وليد طوغان: مكتبة مدبولى الصغير ، ط الأولى ، ١٩٩٩. ص. ١١٠.

٧ ـ د. علي سامى النشار: نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام. دارالمعارف ، ط ٧ ، ١٩٧٧ ، جـ١ ، ص ١٩٠ ، عباس محمود العقاد: الله ، كتاب الهلال ، عدد ٤٢ : القاهرة: سبتمبر ٥٤ص ١١١ ، ١١٢. عصام الدين حنفى ناصف: المسيح مفهوم معاصر: دار الطليعة بيروت ط١ ١٩٧٩ ، ص ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦.

٨ ـ عهد قديم : ارميا: الأصحاح السادس عشر آيه٦.

٩ ـ شمشون: من قضاة بنى إسرائيل: العهد القديم: سفر القضاة.

١٠ - جميس فريزر: الفلكلور فى العهد القديم: ترجمة د. نبيلة إبراهيم. الهيئة العامة لقصور الثقافة. ١٩٩٨. ج ، ١ ، ط١ ، ص ٨٠ ، ٨١.

١١ ـ عهد قديم: ارميا: الاصحاح الحادى والأربعين آيه ٤ ـ ٦. مرجع سابق.

١٢ ـ عهد قديم: عاموس ، الإصحاح الثامن: آية ١٠.

١٣ ـ عهد قديم: سفر التكوين: الأصحاح الأول.

١٤ ـ Folklorc in the old Testament. P. 4 Sumplefeal Issue. SamesFveejer. 1985.

١٥ ـ جميس فريزر: فلوكلور العهد القديم: مرجع سابق ص ٥٦.

١٦ ـ المرجع السابق. راجع أيضاً سفر التكوين ٢٢:٣ إلى ٢٤.

١٧ ـ عباس محمود العقاد: أبليس ، كتاب الهلال ، عدد ١٩٢ ، القاهرة ص ٨٩.

١٨ ـ سبينو موسكاتى: الحضارات السامية القديمة ، ترجمة د. السيد يعقوب بكر ، دار الكتاب العربى ـ القاهرة ١٩٥٧ ، ص ٣٠٥. سيد محمود القمنى. الأسطورة والتراث. دار سينا للنشر ، ط الثانية ١٩٩٣ ص ٤٦ ، ٤٧.

١٩ ـ عهد قديم: سفر التكوين. الأصحاح ٣.

٢٠ ـ عهد قديم: سفر أشعياء (٢٧ ـ ١).

٢١ ـ فراس السواح: مغامرة العقل الأولى. دار الحكمة ـ بيروت. ١٩٨٠ ، ص ٢٧٤ وما بعدها. سيد محمود القمنى. الأسطورة والتراث. دار سينا للنشر. الطبعة الثانية ١٩٩٣. القاهرة. ص٤٩.

٢٢ ـ القمنى.. المرجع السابق ص ٥١ ، ٥٢.

٢٣ ـ المرجع السابق ص ١٤٨ ، ١٤٩. د. أنيس فريحة دراسات فى التاريخ. دار النهار بيروت. ١٩٨٠. د. حسن حنفى. ترجمة كتاب ابسينوزا رسالة فى اللاهوت والسياسة ، دار الطليعة ، بيروت طباعة ، ١٩٨١ ، ص ٢٨.

٢٤ ـ صموئيل كريمر: من ألواح سومر ، ترجمة طه باقى ، مكتبة الخانجى بالقاهرة ١٩٧١. ص ٥٢٧ وما بعدها.

٢٥ ـ د. فاضل عبدالواحد: الطوفان فى المراجع السماوية ، بغداد ، ١٩٧٥ ، ص ٧٤ ، ٢٣.

٢٦ ـ د. عبدالعزيز صالح: الشرق الأدنى القديم ، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية. القاهرة. ١٩٧٦ ج١ ، ص٠ ٤٠ وما بعدها.

٢٧ ـ فراس السواح: مغامرة العقل الأولى ، دار الكلمة ، بيروت. ط٢. ١٩٧٩ ص ١٥٤.

٢٨ ـ سيد محمود القمنى: مرجع سابق: الأسطورة والتراث.

٢٩ ـ صموئيل كريمر: الأساطير السومرية ، ترجمة يوسف عبدالقادر داوود ، مطبعة المعارف بغداد ، ١٩٧١.

٣٠ ـ محمود سليم الحوت: فى طريق الميثيولوجيا عند العرب ، دار النهار ، بيروت. ط٢ ، ١٩٧٩ ، ص ٤٤.

٣١ ـ ابن كثير: البداية والنهاية دار الكتب العلمية لبنان ج١ ، ص ١١٠

٣٢ ـ نعمة الله الجزائرلى: النور المبين فى قصص الأنبياء والمرسلين. منشورات مؤسسة الأعلمى ، بيروت. ١٩٧٨ ، ص ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٨ ، ٩٣ ، ٩٥.

٣٣ ـ سيد محمود القمنى. الأسطورة والتراث. ص ١٧٠.

٣٤ ـ ابن كثير. البداية والنهاية. ج١. ص ٥.

٣٥ ـ الفلكولور فى العهد القديم: جميس فريزر. ترجمة د. نبيلة إبراهيم. الجزء الأول ص ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٢. سبق ذكره.

٣٦ ـ المرجع السابق (الفلكولور) جزء١ ص.٢٣٣.

٣٧ ـ الجدل بين قصة الأصحاح الأول والأصحاح الثانى وقصة خلق الإنسان سفر التكوين فى العهد القديم. د. نبيلة ابراهيم.

٣٨ ـ الاسم البابلى للإله بعل.

٣٩ ـ إله مصرى صوره المصريون على شكل رأس كبش.

٤٠ ـ صموئيل كريمر. بغداد ١٩٦١. ص ١٩٩.

٤١ ـ صموئيل كريمر من ألواح سومر ـ ص ١٩١.

٤٢ ـ د . حسن ظاظا: الساميون ولغاتهم ، مطبعة المصرى ، الاسكندرية ، ١٩٧١ ص ١١.

٤٣ ـ المرجع السابق.. ص ٣٤.

٤٤ ـ سيد محمود القمنى: منابع سفر التكوين ، المركز المصرى لبحوث الحضارة. ط٢. ١٩٩٩ ، ص ٥٥، ٥٦.
٤٥ ـ عهد قديم. سفر التكوين ٣ ـ ٢٠.
٤٦ ـ سيد القمنى. منابع سفر التكوين. قصة الخلق السومرية - ص ٦١.
٤٧ ـ د. نجيب ميخائيل: مصر والشرق الأدنى القديم ، حضارة العراق القديم. دار المعارف ، القاهرة ١٩٦١ ج٦ ص ٢٦٣.
٤٨ ـ ك. دولابورت: بلاد ما بين النهرين. حضارة بابل واشور ، ترجمة مارون الخورى ، دار الروائع الجديدة ، بيروت ١٩٧١ ، ص ١٩٦.
٤٩ ـ سيد القمنى. منابع سفر التكوين. ص ١١٨ ، ١١٩.
٥٠ ـ فراس السواح: مغامرة العقل الأولى ، دار الكلمة ، بيروت ، ١٩٨٠ص ٨٧ حتى ١١٨.
٥١ ـ أنيس فريحة: دراسات فى التاريخ ص ١٢٤ حتى ١٤٧.
٥٢ ـ الاستنتاج سيد القمنى. منابع سفر التكوين.. سبق ذكره.
٥٣ ـ أبحاث للمؤلف تأسيساً على أبحاث دارسى السومريات.

نحو تأويل أكثر منطقية لآيات الله

القرآن ليس تراثا ، فالتراث هو النتاج المادى والفكرى الذى تركه السابقون للاحقين الذين هم نحن ، وهو الذى يؤدى دوراً أساسياً فى تكوين شخصياتنا وفى عقلنا الباطن وسلوكنا الظاهر ؛ هكذا نفهم التراث على أنه من صنع الإنسان ونتاج النشاط الإنسانى الواعى فى مراحل تاريخية متعاقبة، والمعاصرة ليست إلا تفاعل الإنسان المعاصر مع النتاج المادى والفكرى ، والذى هو أيضا نتاج الإنسان ، فبهذا المعنى يكون التراث والمعاصرة ، مفهومين متداخلين تفصل بينهما لحظة «الآن».

فإذا صدر مقال فى صحيفة منذ عشر سنوات ، فهو يدخل ضمن مفهوم التراث ، وليس للناس خيار فى الانتماء إلى تراثهم .. لكن ـ غالباً ـ ما يكون لهم الخيار والاختيار فى انتقاء معاصرتهم وطريقتها وأسلوبها وأسلوب معالجة ما يرتبط بها من مصالح ومعاملات ؛ إننا لا نصنع تراثنا كما نريد ، إنما ورثناه ، وفى الوقت نفسه نستطيع أن نختار بأنفسنا ما نحتاجه لحاضرنا ومستقبلنا ، والقرآن الكريم نفسه نهى عن أن نقف من تراثنا موقف «التسليم» و«التقديس».

والذين صنعوا التراث العربى الإسلامى ليسوا إلا أشخاصا مثلنا مثلهم ـ هم من الناس ، ونحن ـ أيضاً ـ من الناس ، «هم رجال ونحن رجال».

أما الأصالة فلها عنصران يتمم بعضهم البعض .. يُفهم كل واحد منهما حسب الموضوع تحت عنوان الأصالة ، فإذا قلنا أن اللسان العربى لسان أصيل فهذا يعنى أنه لسان له جذور قديمة .. هذا هو عنصر أصالته الأول ، وأنه مازال حيا وهذا هو عنصر أصالته الثانى. وإذا قلنا أن العالم « مندليف» قام ببحث أصيل فى الكيمياء ، حيث وضع جدول العناصر الطبيعية .. فقولنا (بحث أصيل) معناه أنه بحث فيه إبداع وابتكار لم يسبقه إليه أحد ، لكن هذا البحث لم يأت من فراغ .. بل اعتمد على تراكمات سابقة فى المعرفة الكيمائية.. يعنى الجذور.. أى أن مندليف بدأ يتعامل مع الجذور وخرج بنتائج معاصرة.

السؤال.. هل الكتاب الذى يحتويه المصحف والذى أوحى إلى محمد ﷺ.. والذى يحتوى على نبوته ورسالته هو من التراث .. أم أنه ليس تراثا ؟!

للاجابة لابد مبدئياً أن نفترض أحد فرضين.

فأما أن ما يسمى بالـكتاب (المصحف) من تأليف محمد ﷺ نفـسه. وإما أن ما يسمى بالكتاب الموجود بين دفتى المصحف موحـى من الله (سبحانه) بالنص ومحتوى النص. وأن الفصول فيه تسمى سوراً ، وأن السور مؤلفة من مقاطع كل واحدة منها تسمى آية.

إذا أخذنا الأفتـراض الأول .. وصدقناه ، فمعـنى ذلك أن الكتاب (المـصحف) تراث ، لأن محمد ﷺ ليس إلا شخـص من السلف .. أو من السابقين. والسابـقين من الناس هم الذين صنعوا التراث. وفى هذه الحالة يمكن أن يـصف محمد ﷺ من العظماء العباقرة لا من الأنبياء والـرسل .. وهذا فعلا ما فعله أحـد الكتاب الأمريكييـن (مايكل هارت).. إذ صنف محمد ﷺ عـلى أنه عظيم تاريخى.. وانطـلت هذه الخدعة علينا ، وعلـى الكثير من المسلمين أنفسـهم ـ لأن هارت بحسبانه محمد ﷺ عظيم ، أبعد عـنه صفه النبوة ، وحول الكتاب من كلام الله إلى مجرد تراث خطه محمد ﷺ بيده من عقله !!

الفرض الآخر أن هـذا الكتاب من عند الله .. مـوحى إلى محمد ﷺ ، وهـو فى الوقت نفسه خاتم الكتب .. ومحمد ﷺ هو خاتم المرسلين فعلا ، لذلك يجب أن يحتوى الكتاب على خواص معينة أولها أنه مُطلق ونسبى فى الوقت نفسه.

فالله سبحانه وتـعالى مطلق وكامل المعرفة ولا يـتصف بطابع النسبيـة .. وبالتالى ، فإن كتابه يحمـل الطابع المطلق فى المحتوى .. يـعنى صالح لكل زمان ، و فيه مـن العلم ما لم نعرفه حتى الآن .. لأن علم الله مطلق وعام. وبما أن الله سبحانه وتعالى ليس بحاجة إلى أن يعلم نفسه أو يهدى نفسه فقد جاء الكتاب هداية للناس .. وهو آخر الكتب ، لذلك وجب أن يحمل ـ أى الـكتاب نفسه ـ طـابع النسبيـة فى الفهم الإنسـانى له. وبما أن نمط التـفكير الإنسانى لا يمكن أن يَتم بدون لغة ، فيجب أن يـكون الكتاب مصاغا بلغه إنسانية أولا.. وثانيـاً أن تكون هذه الـصياغة لـها طابع خـاص .. فتحتـوى المطلق الإلـهى وتتمـاشى مع النسبية الإنسانية فى فهم محتواه.. المحتوى المطلق !!..

المعجزة أن القرآن يحتوى المـعنى المطلق المتغير المحتوى فى الوقت نفسه ، يعنى كلما زادت المعرفة الإنسانية فى الـعلوم والفيزياء والكيمياء وحساب المثلثـات وقوانين النسبية ، فإننا نعود للنصوص القرآنية ونجد فيها ما يدل على هذه المعلومات!!

المطلق المتغير المحتوى موجود فى الآيات المـتشابهات .. الآيات المتشابهات هى الآيات القـرآنية التـى تحتوى نـبوة محمـد ﷺ وهى تخـتلف عن الآيـات غير المـتشابهـات (آيات الأحكام) التى تحـوى الرسالة .. الرسالة التى بعـث بها محمد رسولاً. فالنبـوة فى الكتاب

هى مجموعة من المعلومات الكونية التى أوحيت إلى النبى وسمى بها نبياً ، يعنى كل الأخبار والمعلومات التى جاءت فى الكتاب هى من النبوة.

أما الرسالة ، فهى مجموعة التشريعات التى جاءت إلى محمد ﷺ وبها أصبح رسولاً. يعنى النبوة علوم.. والرسالة أحكام. والنبى ﷺ كان نبيا ورسولا فى الوقت نفسه.

بمعنى آخر.. نظرية الخلق الكونى والإنسانى وتفسير التاريخ هى نبوة ، أما التشريع من «مواريث» و«حدود» و«أحكام» والأخلاق والمعاملات والأحوال الشخصية والمحرمات.. فهى من «الرسالة».

المعنى .. أن الكتاب (الذى بين دفتى المصحف) ينقسم إلى جزءين القسم الأول.. آيات الرسالة أو الآيات المحكمات ، وهى التى تمثل رسالة النبى ﷺ وقد أطلق عليها الله مصطلح (أم الكتاب). وهى قابلة للاجتهاد حسب الظروف الاجتماعية والاقتصادية ، بينما يخرج عن إمكانية الاجتهاد حسب الظروف كل من العبادات والأخلاق والحدود.

أما الآيات المتشابهات.. وقد أطلق عليها الكتاب مصطلح «القرآن والسبع المثانى».. وهى تلك الآيات القابلة لـلتأويل ، وهى الثابتة النص المتغيرة المحتوى .. يعنى كلما نضج الإنسان وجد فيها علوماً كثيرة .. ووجد فيها فيزياء وبايولوجى وكيمياء.

يمكن أن نسمى هذه الآيات «آيات الكون».

والتحدى للناس جميعاً بالإعجاز فى الكتاب .. وقع فى الآيات المتشابهات «القرآن والسبع المثانى».. والقرآن والسبع المثانى هما الآيات المتشابهات ، ويخضعان للتأويل على مر العصور ، وبذلك يصبح التأويل للقرآن ، والتفسير لآيات الأحكام (الآيات المحكمات).

والتشابه فى الآيات المتشابهات ، هو ثبات فى النص .. وحركة فى المحتوى وقد تم إنزال القرآن بشكل متشابه عن قصد ، وقد كان النبى ﷺ ممتنعاً عن التأويل للآيات المتشابهات عن قصد أيضا ، فيما كان كل تأويل لآيات القرآن فى عصر ما (حتى عصر الصحابة والخلفاء الراشدين) هو تراث.

محاولات تأويل القرآن هى التراث ، أما النص القرآنى الصالح لكل زمان بما فيه من معلومات نبوة فلا هو تراث ولا هو موضوعات للسابقين فقط .. ولا تعريف له إلا أنه من معلومات الله (المطلقة) ، لعلم الإنسان (النسبى) !!

الفرق بين المتشابه وغير المتشابه ، هو أن المتشابه (يعنى القرآن) فرّق بين الحق والباطل.. أى أعطى للإنسان فكرة عن قوانين الوجود بصرف النظر سواء كان هذا الإنسان كافراً أم مؤمناً لذلك قال (سبحانه وتعالى) إن الآيات المتشابهة التى هى قرآن (هدى للناس).. بصرف النظر عن إيمان أو عدم إيمان ، تديّن أو عدم تدين هؤلاء الناس. أما آيات الأحكام.. فهى (هدى للمتقين) يعنى ضرورة أن يكون المتقى مؤمنا ، ولو لم يكن مؤمنا ، فلن ينفذ أحكام الله من صوم وصلاة على سبيل المثال ، لكن الكافر ـ ومع كفره ـ لن يستطيع أن يتحكم فى تتابع الليل والنهار كما هو مذكور فى آيات «النبوة».. أو الآيات المتشابهات !!.. يعنى لا يمكن للكافر أن يعصى معلومات «النبى» إنما يمكن له أن يعصى أحكام «الرسول».

والآيات الكونية هى «الخاتم الإلهى» كى نصدق أن آيات الأحكام من عند الله ، لأنه وضع الآيات المتشابهات مُختلطة فى السور القرآنية مع الآيات غير المتشابهات.. فنصدق الأحكام ونؤمن بضرورة العمل بها لأنها من عند الله بدليل الآيات المتشابهات (الآيات الكونية التى تحوى معلومات ليست بشرية). فالمتشابه من الآيات جاء تصديقاً للرسالة التى بين يدى محمد ﷺ.

وموقفنا من النبى ﷺ مُشرعاً موقف دقيق للغاية ؛ إذاً يمكن القول بأن ما فعله النبى ﷺ طوال حياته هو الاحتمال الأول لتطبيق الإسلام فى القرن السابع الميلادى وفى شبه جزيرة العرب بالذات ، والقول بأن السنة هى كل فعل أو قول أو إقرار أو نهى قام به النبى ﷺ إنما قول فقهاء ، وليس قول النبى نفسه ﷺ ، حيث كان محمد ﷺ يصرّ على تدوين الكتاب «القرآن» أو حفظه ، بينما كان يأمر الناس بعدم تدوين أقواله الشخصية ولا حفظها. ثم إن الآية «إن هو إلا وحى يوحى» تشير إلى أن الوحى فى القرآن فقط .. وفى الكتاب الذى أنزله الله على خاتم المرسلين ، ولا تعنى أبداً أن كل ما صدر عن النبى هو وحى يوحى.

لقد كان دور النبى ﷺ محاولة تحويل المطلق إلى نسبى حسب العصر الذى عاشه فى القرن السابع الميلادى ، وفى الجزيرة العربية ، ولا شك أنه ﷺ نجح فى هذا نجاحاً باهراً ، أما الذى يجب أن يكون لنا «أسوة حسنة» هو محاولات النبى ﷺ تحويل المطلق إلى نسبى .. أى أن باب الاجتهاد فى الأحكام لا يقفل ، وباب التأويل (بالنسبة للآيات المتشابهات)

هو أيضـا لا يقـفل ، أمـا كل اجتـهـاد ماضـى سواء فى الأحـكام ، أو فى تأويل الآيات المتشابهات فيدخل ضمن التراث.

على الأسـاس السابق يمكننا أن نقـول أن الكتاب بين دفـتى المصحف ليس كلـه قرآنا (يعنى ليس كله آيات مـتشابهات) ، كـما أنه ليس كله آيات غيـر متشـابهات ، ويمكننا ـ على نفس الأساس ـ أن نقسم المصحف إلى «نبوة محمد» ورسالة محمد.

ويحتوى قسـم «رسالة» محمد .. على الآيات المحكمات ، أو أم الكتـاب التى تتضمن الحدود بما فيـها العبادات ، ويحوى ـ أيضا ـ الوصـايا التى وصى الله بها الأنبياء جميعهم قـبل محـمد ﷺ وتضم أيضـاً تعليمـات عامـة وتشريعـات خاصـة بالنبى ولنسـائه وبناته وحدهن ووحده.

والإعـجـاز فى القرآن فـقط.. يعنـى فى الآيات المتـشابهـات ، وليس فى الآيات غـيـر المتشـابهات (أم الكتاب).. وإلا ما قـال الله سبحـانه وتعالى: «ويل للذين يكتبـون الكتاب بأيديهم».. وهو هنا يـتكلم عن اليهـود الذين كـتـبوا أحكامـاً لم ترد عندهم فى التـوراة.. كتبـوها بأيديهم وقالوا إنها من عند الله ، إذا اسـتطاع اليهود أن يكتبوا «أحـكاما» جديدة ، لكن أحدا لا يستطيع أن يكتب مثل القرآن.. يعنى الآيات المتشابهات !!..

كلمة قـرآن جاءت من (قرن) أو جمع الثـابت من قوانين الكون مع الجزء المتغـير.. لذا فالقـرآن يحتوى على مـوضوعين. الأول.. الجـزء الثابت ، وفيـه القانون العام ويتـمثل فى الكلام عن الانفجار الكونى الأول وقوانين الساعة ونفـختى الصور الأولى والثانية والبعث والحسـاب والجنة والنار. هذا هو الجزء الـذى قال عنه ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ (٢١) فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ وهذا الجزء لا يرده الدعاء ولا يمكن أن يغيـر الدعاء منه ، لأن الدعاء لا يمكن أن يجعل الليل يتوقف أو أن يأتى بعد الليل.. ليل !!..

وهذا الجزء ـ أيضا ـ هو كلمات الله ﴿لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾.

القرآن هو أيضا «حسب تعبير الله» (الكتـاب المبارك). والبركة فى اللسان العربى تعنى التكاثر والتوالد ، وتعنى الثـبات أيضا ـ فى نفس الوقت ـ ووصف القرآن بأنـه مبارك يعنى «ثابت النص» «متغير المحتوى». وبما أن القرآن حقيقة مـطلقة تفهم فهما نسبياً ، فإن حركة «فهـمه» دائمة التـبدل والتغير ، فالعلـماء يستنبطون منه نظريـات علمية على مـر الزمان ، والصحـابة فهمـوه حسب معـرفتهم وعلومـهم ذلك الوقت .. وبما أن معلومـات الإنسان

صاعدة لأعلى بشكل دائم ، فإنه على مر السنين سترى الأجيال معلومات جديدة لم تكن الأجيال السابقة تعرفها.. فالنص القرآنى (الثابت) يستوعب كل ما يصل إليه الإنسان من معلومات.. وباستمرار ، مهما طالت أو تغيرت طبيعة العلوم ، لهذا سمى كتاباً مباركاً.

أما الأحكام (آيات أم الكتاب) فلا إعجاز فيها.. لأنها تحمل صفة الثبات فى النص والمحتوى و الحركة. آية الوضوء مثلا فهمها الصحابة كما نفهمها نحن على حد سواء لا هم زادوا ـ ولا نحن نقصنا.

ولما كان القرآن كتاب الوجود المادى التاريخى ، يعنى يحتوى على المعلومات المادية التى حدثت من قبل والتى سوف تحدث مثل الجنة والنار ، فلا تنطبق عليه عبارة «هكذا اجمع الفقهاء» أو «هكذا قال جمهور العلماء». وأننا فى فهم القرآن غير مقيدين إطلاقاً بأى مما قاله علماء الفقه قبلنا.. إنما مقيدون بما يكتشفه علماء الفيزياء والكيمياء والأحياء يومنا هذا . مقيدين بقواعد البحث العلمى والتفكير الموضوعى وما وصلت إليه المعرفة فى عصرنا الحالى ـ أبناؤنا أيضا سوف يقيدون بنفس القواعد ، وحسب معرفتهم فى زمانهم!!

والقرآن حقيقة موضوعية خارج وعينا.. سواء فهمناها أو لم نفهمها.. قبلناها أو لم نقبلها .. لهذا قال الله عن القرآن ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ سواء كانوا كفرة أم مؤمنين ، مع أن الأحكام (أم الكتاب) ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ يعنى المؤمنين فقط ، لأنه لا يوجد غير مؤمن يصلى .. إنما يوجد ملحد يمر عليه الليل والنهار كما يمر على المؤمنين.

على نفس النسق يمكن أن نتكهن بطبيعة ومعنى «السبع المثانى» فى القرآن الكريم.

السبع المثانى ليس من الضرورى أن تكون الفاتحة (فاتحة الكتاب) كما يعتقد أغلب المسلمين. أولا لأن من أول لفظ السبع المثانى وأثبت وجعلنا نصدق أن المقصود بها فاتحة الكتاب لم يكونوا إلا بشرا مثلنا ، ولا يوجد ما يقفل باب النقاش فيما هو مقصود «بالسبع المثانى» لأن التأويل فى كل زمن يختلف ـ حسب المعرفة ـ عن الزمن الذى قبله.

قال الله سبحانه وتعالى ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ وهنا عطف القرآن على السبع المثانى ما يعنى أن السبع المثانى شىء والقرآن شىء آخر. وأن السبع المثانى ليست جزء من القرآن .. وأن الله قد وضعها قبل القرآن فى الترتيب مميزة عليه بالأفضلية من حيث المعلومات.

ثم إنه لا يمكن أن يكون القرآن جزءاً من السبع المثانى ، لأن «السبع المثانى» سبعة وآيات القرآن أكثر من ذلك ، ثم إن العرب يعطفون ـ دائما ـ العام على الخاص. وفى العطف يجب أن يكون هناك تجانس بين العطف والمعطوف .. فلا يمكن أن يقول العربى جاء محمد والسيارة ، لأن التجانس واجب بين الشيئين المعطوفين بعضهما على بعض

فأقول.. جاء محمد ومعه السيارة.. أو جاء محمد وجاءت السيارة. فإذا تم عطف القرآن على أم الكتاب ، فوجه التجانس بينهما أنهما موحيان من الله .. وأيضا نرى نفس الشيء عندما عطف ﴿ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾ [سورة التحريم : ٥] أن الثيب غير البكر.. لكن كلتيهما نساء، ولقد ميز سبحانه وتعالى السبع المثانى عن القرآن بأن أطلق عليها مصطلح «أحسن الحديث» وذلك فى قوله ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣].

ونجد أنه قد أطلق على القرآن مصطلح الحديث ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ﴾ ، بينما أطلق على السبع المثانى مصطلح أحسن الحديث ، حيث إنه تم تمييزها ، وهنا التمييز بأن القرآن آيات متشابهات فقط ، بينما أحسن الحديث يحمل بالإضافة إلى التشابه صفة المثانى ﴿كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ﴾.. أما القرآن فكتاب متشابه فقط ، وهو ما يجب أن يفتح النقاش لدى العاقل عن ماهيه السبع المثانى وما هو الدليل على هويتها حسب منطق التأويل الحالى.. يعنى فى القرن الواحد والعشرين وبعد ما يزيد عن ألف وأربعمائة سنة من الهجرة؟!

جاء فى اللغة العربية «الثاء والنون والياء أصل واحد ، وهو تكرار الشيء مرتين ، أو جعله شيئين متواليين أو متباينين». وأيضا: «المثناة هى الطرف» ، وإنما يُثنى الشيء من أطرافه.. والمثانى هى الأطراف.

ولكل سورة فى القرآن طرف.. فالمثانى هى أطراف السور.. وفواتحها !!

لذلك لايمكن أن نسمى «فاتحة الكتاب» بالسبع المثانى. لأن الفاتحة هى مجموعة آيات فى فاتحة واحدة ، لكن المثانى السبع هى سبع آيات.. كل منها فاتحة ، أى هى سبع آيات وهى فى الوقت نفس سبعة فواتح ، وبما أن الكتاب واحد وبما أنه مكون من ١١٤ سورة ، فالأكثر منطقية أن نعتبر السبع المثانى سبع فواتح للسور ، بحيث تكون كل آية منفصلة فى

ذاتها ، الأمر الذى يظهر فى حروف الإعجاز. (ألم ، المص ، كهيعص ، يس ، طه ، طسم. حم) مع استبعاد المر ، طس ، ن ، ق ، ص. لأن هذه الحروف كل منها جزء فى آية ، آية منفصلة. فالآية الأولى فى سورة نون ﴿نٓ والقلم وما يسطرون﴾ أما الآية الأولى فى سورة البقرة ﴿الٓـمٓ﴾ ، أما ﴿عٓسٓقٓ﴾ فهى ليست فاتحة لسورة ، لأنها الآية الثانية فى سورة الشورى ، والآية الأولى ﴿حمٓ﴾.

ومعجزة المثانى السبعة فى القرن الواحد والعشرين لابد أن تكون مفهومة فهماً أوقع وأدق من مفاهيم القرن الرابع عشر مثلا ، فإذا نظرنا إلى عدد الحروف «الأصوات» الموجودة فى الآيات السبع نراها تتألف من أحد عشر حرفاً أو «صوتا» هى الألف ، اللام ، الميم ، الصاد ، الكاف ، الهاء ، الياء ، العين ، السين ، الطاء ، الحاء. ولو أخذنا بقية الحروف «والأصوات» فى «الر» ، «المر» ، «طس» ، «عسق» ، «ن» ، «ق» ، «ص».. والتى لا تشكل آيات منفصلة فى ذاتها ، فنرى أن فيها ثلاثة حروف «أصوات» غير موجودة فى آيات السبعة الفواتح.. هى القاف والراء والنون ، ومن هذه الحروف تتألف كلمة «قرآن» لأن كلمة قرآن مشتقة من «قرن».. أو قرن العام بالخاص ، ومن «قرآن».. أيضا ، لأن «قرآن» و«قرن» جمع للاستقراء والمقارنة. و إذا أضفنا الحروف الثلاثة الإضافية إلى السبعة الفواتح التى تشمل أحد عشر حرفاً ، يصبح المجموع أربعة عشر حرفا «صوتا» مختلفا أى ٧ × ٢ وهذه هى أيضا سبع مثانى. ويبدو أن جوامع الكلم التى تكلم عنها النبى وقال أنه أوتى مجامع الكلم وأنه ﷺ ـ اختصر له الكلام اختصاراً.. كانت إشارة للسبع المثانى.

❑

الكلام فى اللسان العربى يعنى الأصوات ـ مجرد أن تخرج أصواتا من فمك.. فهذا يعنى أنك تتكلم ما دمت لا أعرف لكلامك معنى .. أما القول.. فهى أصوات تخرج من فمك ويدخل معناها مدركاتى .. أى أننى أفهم منها معنى. ويعتقد العلماء أن نشأة اللغات نشأة صوتية ، يعنى أصواتا معينة تدل على معان معينة ـ لكل لغة ـ والسبع المثانى ماهى إلا حروف ـ أو أصوات ـ هى جوامع الكلم وهى اختصار الكلام كله ، وأول ما يمكن أن نستنتجه ـ بالضرورة ـ من حروف (أصوات) السبع مثانى أنها أعطت مقاطع صوتية تتألف منها أصل الكلام الإنسانى وليس اللغة العربية فقط ، وأن عدد الأصوات الأحد عشر فى الآيات السبع الفواتح تشكل الحد الأدنى لأى كلام إنسانى.

أى أنه لا يمكن أن توجد لغة إنسانية يقال عنها لغة ، إلا إن كانت أصواتها الأصلية مكونة من أحد عشر حرفاً على الأقل.. وهذا ما توصل إليه العلماء والباحثون فى علم اللغات .. إذ أنهم اكتشفوا أن الأحد عشر حرفاً للسبع المثانى هى الحد الأدنى لأى لغة انسانية معروفة فى العالم ، ويعطون أمثله للغة «البروتوكاس» وهى لغة أهل جزيرة سيشيل القدماء.

ممكن ـ أيضا ـ أن نعتقد أن الإحدى عشر صوتاً تحمل «الصيغة الكونية» للغات عموما ، ولو أن هناك مخلوقات عاقلة فى الكون ، فإن طريقة التواصل معها هى طريقة صوتية عن طريق الحروف الأحد عشر للسبع المثانى . الغريب أن هذا ما فعله الأمريكان.. فقد وضعوا نماذج من الحروف الصوتية الأساسية ـ الأحد عشر حرفا فى موضوعنا ـ وسجلوها على شر يط كاسيت وبعثوا بها للفضاء على متن سفينة الفضاء «فويجر». فقد اعتقدوا أنه إذا كان هناك كائنات فى الفضاء .. فإن وسيلة تفاهمنا معهم يجب أن تكون بوسيلة مشتركة. والأحد عشر حرفا .. أو السبع مثانى هى حروف التفاهم بين الأرضيين والفضائيين فإذا ما تيسر لنا اللقاء بعقلاء فى كوكب آخر غير الأرض ، ثم أردنا أن نتفاهم معهم ، أو نبث إليهم إشارات فعلينا أن نستعمل هذه الأصوات الأحد عشر.. فهى القاسم المشترك بين كلامنا وكلامهم!!.

لقد حوى القرآن الحقيقة المطلقة للوجود ، بحيث تفهم فهما نسبيا حسب معرفة وإدراك كل عصر، فالقرأن حوى الحقيقة المطلقة والفهم النسبى لهذه الحقيقة فى وقت واحد ، وهو ما لا يمكن لأى إنسان مهما كان أن يفعله.

القرآن ـ مرة أخرى ـ ثابت النص متغيرالمحتوى ، فإذا أردنا أن نعرف الأرضية المعرفية للعصر الذى عاش فيه ابن كثير ، فما علينا إلا أن نقرأ تفسيره وإذا أردنا أن نعرف الأرضية المعرفية لعصر الصحابة.. فما علينا إلا أن نتتبع تفسيراتهم.. فتفسير ابن كثير وغيره يحمل المعرفة النسبية لفهم القرآن لا المعرفة المطلقة.

الوجه الآخر فى الاعجاز هو صياغته .. فنحن نعلم الآن أن هناك نوعين من الصياغة اللغوية ، أولهما الصياغة العلمية كصياغة نيوتن أو ألبرت أنيشتين للنظريات ، وثانيهما الصياغة الأدبية الخطابية والشعرية الغنية بالصور الفنية كصياغة شكسبير وبوشكين والمتنبى.

السؤال هل يمكن صياغة نظريات نيوتن وأينشتاين وابن الهيثم صياغة المتنبى

وبوشكين دون أن تؤثر هذه الصياغة على الدقة العلمية ودون أن يطغى الكلام الأدبي على المعلومات؟!

إلى يومنا هذا لم نر هذه النوعية من الصياغة.. ولن نرى ، وكل ما كتبه «السلف الصالح» وتكلموا عنه في كتاب الله تعلق بالجزء الأدبي للاعجاز القرآني ، كما لو كان كله إعجازاً أدبياً فقط ، وهذا يعني أن العرب اهتموا بفهم الرسالة (التي هي مجموعة الأحكام فقط) اهتماما شديدا أو أعطوها كل وقتهم وجهدهم وجاهدوا في سبيل نشرها بين الأمم لكنهم لم يهتموا بفهم القرآن ، فهم القرآن يحتاج إلى وضع حضاري معين وبحث علمي ؛ فكلما زادت معاهد البحث العلمي وزاد عدد المتفرغين لهذا البحث في الكيمياء والبايولوجي وعلم التشريح ، كلما زاد فهم القرآن ، هذه الشروط لم تكن متوفرة في عهد النبي ﷺ.. ولم تكن الشروط متوفرة في جميع الناس ، بما فيهم الصحابة والخلفاء الراشدين من أبي بكر الصديق إلى علي بن أبي طالب ، والدليل.. أنه بعد وفاة النبي ﷺ حارب أبو بكر الصديق المرتدين من أجل الزكاة وهي من «أم الكتاب».. ثم إن الآية التي تطلب من النبي أن يأخذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم كانت خاصة بالنبي وحده.. ولا تنطبق على أي شخص آخر حتى لو كان خليفة المسلمين من بعده ﷺ.

ومع أن حروب الردة استشهد فيها مسلمون كثيرون ، إلا أن أبا بكر كان واثقا من قراره بشنها وقد أجاب في الوقت نفسه عندما سئل عن تفسير حرف من القرآن : أي سماء تظلني وأي أرض تقلني.. وأين أذهب ، وكيف أصنع إذا قلت في حرف من كتاب الله بغير ما أراد الله. وقرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه على المنبر قوله تعالى ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ فقال «ما الأب؟!» ثم استرجع نفسه وقال: «إن هذا هو التكليف ياعمر فما عليك أن تدري به» ثم قال: «اتبعوا ما بين لكم من هذا الكتاب فاعملوا عليه ، وما لم تعرفوه فكلوه إلى ربه.».

موقف العرب أيام النبي ﷺ كان علميا من الناحية التاريخية ، لأن القرآن كان معظمه - إن لم يكن كله - غيباً بالنسبة لهم ، ولم تكن أرضيتهم المعرفية تسمح لهم بالتأويل.. لذا قال القرآن عن الكافرين ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ [سورة يونس: ٣٩].

وقد سلم المسلمون الأوائل بالقرآن تسليماً ، وآمنوا به على أنه الحق ، علما بأنه كان غيباً بالنسبة لهم ، وقد تكلم الله عن هذا التسليم في سورة الواقعة ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ

(١٠) أولئك المقربون (١١) في جنات النعيم (١٢) ثلة من الأولين (١٣) وقليل من الآخرين﴾.
فعند نزول القرآن آمن به من آمن تسليماً ، وهؤلاء هم السابقون ، وأعطاهم الله مكانة عالية بقوله ﴿أولئك المقربون﴾. أما قوله ﴿ثلة من الأولين (١٣) وقليل من الآخرين﴾،فهذا يعكس التطور العلمي والتاريخي لفهم القرآن ، فالذين آمنوا بالقرآن تسليماً أول نزوله كانوا يشكلون الأكثرية الساحقة ، إن لم يكونوا كلهم ، لذلك قال ﴿ثلة من الأولين﴾. لكن بعد مرور الزمن ـ وتقدم العلم فإن الناس الذين سيؤمنون تسليما على طريقة الأولين ـ سيكون عددهم أقل .. لأننا نعرف الآن معنى قوله ﴿ مرج البحرين يلتقيان (١٩) بينهما برزخ لا يبغيان﴾ والناس يؤمنون بها اليوم تصديقاً لا تسليماً ، وعلينا ألا نفهم ﴿وقليل من الآخرين﴾ على أن المؤمنين من الآخرين سيكونون قلائل. هذا غير صحيح ، لكن نسبة المؤمنين في الآخرين على طريقة الأولين ستكون قليلة.

❑

التمييز ضروري بين نوعين من علم الله

الأول علم الله بالأشياء وظواهرها وحركاتها وهو ما لاخلاف عليه ، أما النوع الثاني فهو علم الله بالسلوك الانساني الواعي والاختيار الانساني وهذا هو محل الخلاف ، لقد حدث جدل طويل وخلط كبير وأخذ ورد والتباس في النوع الثاني ، سبب الالتباس أن بعضنا أدخل في علم الله حول الاختيار الإنساني ما لا يدخل فيه .. ولم يرد له ذكر في كتابه تعالى.

كل الآيات القرآنية تتحدث عن سلوك إنساني واع ومختار ، ولنأخذ مثلا قوله تعالى ﴿ويعلم ما تخفون وما تعلنون﴾ جاءت الآية في صيغة المضارع للدلالة على استمرارية المعرفة أولاً.. واستمرارية الاختيار الإنساني.

فإذا كان زيد في لحظة ما لايخفي شيئاً.. فالله (سبحانه) يعلم أن زيدا لا يخفي شيئاً في هذه اللحظة ، وفي لحظة تالية إذا أخفى زيد شيئاً ، فإن الله يعلم أن زيدا يخفي شيئاً فعلا. وبما أن السر والعلن متغيرفي الإنسان بتغير نواياه ، فقد جاء العلم الإلهي في الآية بصيغة المضارع للدلالة على استمرارية المعرفة الإلهية.

الالتباس يظهر في الاعتقاد بأنه إذا نوى زيد غداً القيام بأمر ما ، فإن الله منذ الأزل يعلم

أن زيداً في يوم كذا وساعة كذا وثانية كذا سيقوم بالأمر كذا ، مع أن الموضوع - في حقيقته - ليس كذلك.

البعض يعتقد في أن الله علم منذ الأزل أن أبا لهب سيكون كافراً ، وأن أبا بكر الصديق سيكون مؤمناً مع أن الملاحظة المهمة أنه لو كان الله يعلم ، أو قدرّ لأبي لهب أن يكون كافراً ، وقدّر لأبي بكر أن يكون مؤمنا.. فالاثنين ينفذان - في هذه الحالة - إرادة ربانية .. ولو لم ينفذ أحدهما الإرادة الربانية فسوف يعصي ، ولو آمن أبولهب «بعد أن كتب الله عليه الكفر» ، فإن أبا لهب سوف يكون عاصي.. لأن وظيفته أن يظل كافراً ، والمسألة بهذه الطريقة لا تترك للخيار الانساني معنى ، وإنما تجعله نوعا من الكوميديا الإلهية مهما حاولنا التبرير !!..

الله كامل المعرفة بالأشياء وأحداثها (الطبيعة وظواهرها) فعلمه سبحانه رياضي بحت ﴿وأحصىٰ كلَّ شيءٍ عددًا﴾ ﴿وكُلُّ شيءٍ عندهُ بمقْدار﴾ ونقول على علمه رياضي ، لأن الرياضيات اليوم أرقى أنواع العلوم ، ومادمنا لا نعرف علما أرقى من الرياضيات ، فإننا نذهب إلى أن علمه (سبحانه) علم مجرد ، وأكثر صور التجريد في الرياضيات .. فالرياضيات تتصف بالدقة والتنبؤ.. فلو حدث وعلمنا القانون الرياضي لظاهرة ما يصبح من السهل التنبؤ سلفاً بسلوك هذه الظاهرة.

وهو ما يحدث الآن في الاكتشافات الطبية والعلمية ، إذ يمكننا أن نتنبأ بموعد وصول الصاروخ إلى القمر إذا عرفنا قدرته وسرعته. وبما أن قوانين الوجود هي كلمات الله ، فقد أعطانا الله الاطمئنان بأنه لامبدل لقوانينة ﴿ولا مُبدّل لكلمات الله﴾ لذا قال ﴿سُبْحانهُ إذا قضىٰ أمْرًا فإنّما يقُولُ لهُ كُن فيكُونُ﴾ [مريم: ٣٥] ﴿ إنّما أمرُهُ إذا أرادَ شيئًا أن يقُول لهُ كُن فيكُونُ﴾.

لذلك.. فإن معرفة الإنسان لكلمات الله هي مفتاح خلافة الإنسان لله في الوجود .. وهي مفتاح رقيه أيضا . فعلم الله بالطبيعة إما علم محفوظ سلفاً يحوي قوانين الطبيعة والخلق والتطور والساعة والبعث واليوم الآخر والجنة والنار ، وإما علم في «كلية الاحتمالات» (يعني كل الاحتمالات التي يمكن أن تحدث) لظواهر الطبيعة الجزئية ، والتي نفهمها من خلال علم الرياضيات والتوافيق والتباديل.

وحتى نفهم السلوك الإنساني «الواعي». يجب علينا ألا ننسى أن الانسان خليفة الله

فى الأرض. لذلك ففى النفس الإنسانية شيء من ذات الله وهو الروح ، بها أصبح الإنسان خليفة الله فى الأرض واكتسب المعارف وأصبح قادراً على المعرفة والتشريع ، فلو نسينا الاختيار الإنسانى واعتقدنا أن كل شيء مكتوب ، لتحول السلوك الإنسانى لمجموعة من الصور المتحركة يديرها الذى صممها تماما مثل أفلام الكارتون ، لكن لو هناك امرأ مشتركاً بين الله والإنسان أى أن «الصور المتحركة» فيها شيء من ذات المصمم ، لتغير الأمر وعدنا من جديد لنظرية علم الله الكامل الذى يدخل فيه كل ما يمكن أن يحدث ، وكل المسالك التى يمكن أن يسلكها الإنسان ، كل إنسان على حدة أمامه ملايين الاختيارات فى اليوم الواحد ، موعد نومه وطعامه وملابسه وكلامه وعلاقاته مع الآخرين وصلاته وصومه وإيمانه وكذبه وهكذا. ولا يمكن لأى إنسان أن يقوم بأى عمل علنى أو يخفى أى أمر أو يتبنى أى فكرة سراً أو علنا ، إلا وتصرفه داخل فى هذه الاحتمالات التى يعلمها الله جمعياً ، وبالتالى فسلوك الإنسان فى هذه الحالة داخل فى علم الله الكلى.

يعنى لا يمكن لأى إنسان ـ مهما عمل ـ أن يقوم بفعل ما سراً أو علنا.. ويفاجئ به الله ، لأن كل سرا أو علن يدخل فى كلية الاحتمالات التى يعلمها الله وهذه هى عين كمال المعرفة الإلهية ، تماما كسرعة الضوء ، فإنها تحتوى كل احتمالات السرعة الممكنة للأشياء .. وكل سرعة لا تخرج عنها.

على ذلك .. نستطيع أن نقول أن أبا بكر لم يكتب الله عليه ايمانه ، وأن أبا لهب كذلك. أبو بكر وأبو لهب كل منهما اختار طريقه بكامل إرادته .. إن الله كتب أخطاءهم وتقواهم عليهم بعد حدوثها ، إضافة إلى أن أبا بكر لما ولد ، لم يكن مكتوباً عليه الإيمان أو الكفر ، اللذان يدخلان فى علم الله وفى قوله ﴿لمن شاء منكم أن يستقيم﴾ [التكوير: ٢٨].. ذكر الاستقامة فى حيز التبعيض (أى البعض) ، فالذى لايشاء الاستقامة ينحرف ، ففى علم الله أن هناك استقامة وانحراف معا.. لذا قال فى مجال الكل وليس مجال البعض كالآية ﴿وما تشاءون إلا أن يشاء الله﴾ [الإنسان: ٣٠]

ففى علم الله ومشيئته الاستقامة والانحراف معا وفى مشيئتنا أن نستقيم أو ننحرف ، غير أن من يستقيم ، لا يفاجئ الله باستقامته ومن ينحرف لا يفاجئ الله بانحرافه ويصبح الخيار الإنسانى الواعى خياراً حراً يستلزم الثواب والعقاب ، وتصبح خيارات الإنسان غير

مكتوبة عليه من قبل.. يعني ليست مقدرة عليه سلفا وفي هذا قال القرآن ﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ .

وإذا قلنا الآن أن الله منذ الأزل علم أن أبا بكر سيؤمن ، وأن أبا جهل سيكفر فهذا عين نقصان المعرفة ، فالعلم الإلهي في هذه الحالة يحمل الاحتمال الواحد ، ولو كفر أبو بكر وآمن أبو لهب ، لكانت مفاجأة كبيرة لله تعالى ، في حين لو منع الله أبو لهب من الإيمان ، ومنع أبو بكرمن الكفر.. لما أصبح هناك أي مجال لحساب أي منهما ، إذ أن الله هو الذي فعل وقدّر وأراد

ثم إن باب الكفر والإيمان لم يكن مفتوحاً أمام الاثنين .على حد سو .

لكن علم الله كامل بأحداث مسبقة بكلياتها وجزئياتها.. وذلك أنه في لحظة أن نوى أبو بكر الإيمان وقبل أن يخبر بهذه النية أحد ، علمها الله وهي لا زالت سراً في نفس أبي بكر.

مرة أخرى هذه المعرفة داخلة في احتمالات علم الله الكامل ، أي لم يفاجأ بها فقد خلقنا الله أحراراً في اختياراتنا.. ونحن بالنسبة له لسنا لهوا يلهو بنا ، والفرق هو أنه كامل المعرفة «عليم» ، ونحن ناقصو المعرفة «متعلمون» لذا فهو حر وله تمام الحرية . ونحن متحررون ، ولكي يبين الله حرية الاختيار للإنسان ، وأن الإنسان الفرد لحظة اختياره لأمر ما ، ينتقل هذا الأمر من علم الله الكلي «كمال المعرفة» إلى علمه المصنف الذي سيسجله على الإنسان قال ﴿يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء﴾ وقال ﴿لا يهدي القوم الفاسقين﴾ ، فإذا أختار الإنسان الفسق بملء إرادته ، لم يهده الله .

فقد وضع الله تعالى صيغا بالنسبة للاختيار الإنساني على الشكل التالي ﴿ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾ [العنكبوت: ٣] وقوله ﴿وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء﴾ وآيات كثيرة مشابهة تحمل المعنى.

هناك آيات تكلم عنها «الملحدون» (من نوعية الآيتين السابقتين) ووصلوا معها إلى أن الله ناقص المعرفة ، فهو لا يعلم الشيء ـ كما تشير الآيات ـ إلا بعد وقوعه ؛ لم يكونوا يعرفون ، أن هذه الآيات لا علاقة لها بكمال المعرفة ، لأن كمال المعرفة كلي ، وهذه الآيات تدخل باب المعرفة الجزئية ، والتي هي جزء من المعرفة الكلية ، أي لا تحتوي على عنصر المفاجأة ولكن تدخل تحت باب التصنيف الجزئي ، فالإنسان عندما يختار الجهاد والإيمان ، يصنف اختياره في كتاب أعد لهذا الإنسان بالذات ، أي أن اختياره ينتقل من

باب المعرفة الكلية للاحتمالات جميعها عند الله ، إلى باب التصنيف الشخصى لأعمال إنسان بعينه.

وهكذا نفهم الآيات التالية ﴿إنَّ رُسُلَنا يكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾. ﴿ كَلاَّ سَنَكْتُبُ ما يقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾[مريم: ٧٩]. و نلاحظ من مفهوم الكتابة أنه تصنيف لأعمال الإنسان وأفعاله بعد حدوثها. وفى قوله تعالى ﴿ونَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وآثَارَهُمْ﴾[يس: ١٢] ، ﴿واللَّهُ يَكْتُبُ ما يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ [النساء: ٨١] ﴿بلَىٰ ورُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠].

والإكراه يعنى انخفاض الاحتمالات الممكنة للخيار الإنسانى ، فبوجود خمر وماء يصبح للخيار الإنسانى معنى فى شرب أحدهما ، لكن إذا كان لا يوجد إلا الخمر ، وشربه الإنسان ، يدخل مفهوم الإكراه ، حيث إن الإكراه وجود احتمال واحد للاختيار ، وعندما ينخفض عدد احتمالات الاختيار الإنسانى للاحتمال الواحد فقط ، فالعقيدة الإسلامية الصحيحة تقول لا ثواب ولا عقاب .. ولا يصلح أن يكون هناك تكليف !!.

الأرزاق والأعمار.. وحقيقة الحديث النبوى

القرآن اعتمد على العقل ، وخاطب العقلاء «الذين يعقلون» «الذين يتفكرون» «أولى الألباب» ، والعقل فى اللغة من «عقل». ويقال أن فلان «عقل» حصانه جوار بيته ، يعنى أحكم ربطه ، والمقلوب اللغوى لـ«عقل » هو «لقع» يعنى أطلق الشىء وتركه ، وفى اللغة أيضاً «نهر» هو انسياب الشىء وجريانه ، ومقلوبها اللغوى «رهن» يعنى قبض الشىء وأحكام حجزه.

الفعل «كتب» «لغويا» هو صف أشياء بعضها بجوار بعض ، فيقول كتب الحروف.. وعكسها «بتك» ، أى فصل شىء عن شىء ، وفى القرآن الكريم «فليبتكن آذان الأنعام» ، أى يفصلوها ويمزقوها عن باقى الجسد.

والفعل «ربط» مقلوبه اللغوى «طبر».. و«الطبر» عكس «الربط» ، فيما كان «العقل» يعنى صف الحقائق والأدلة العقلية ببراهينها جنباً إلى جنب تكويناً لحقيقة منطقية لاخلاف عليها.

فالعقل هو المنطق ، والمنطق فى القول وليس فى الكلام ، لأن الكلام لغويا هو كل ما يخرج من الفم من حروف وحركات صوتية مقطعة ولا تدخل إدراكى ، لأننى لا أفهم لغة المتكلم ، بينما القول .. هو ما يخرج من فم إنسان وأفهمه ، لأننى أفهم لغته ، أو على نفس درجته الثقافية والمعرفية ، فلو تكلم شخص من الصين فإن ما يقوله هو «كلام» لأننى لا أفهمه ، وإذا حدثنى شخص آخر من اليمن ، فإن ما يقوله هو «قول» وليس كلاما. لأن اليمنى يتحدث العربية وأنا أفهمها.

والفرق بين «الكلام» و«القول» فى علم المنطق يقوم على أساس العلاقات المنطقية بين مفردات الكلام ، والتأثير والتأثر بين المتكلم والمستمع ، والجملة فى علم المنطق ثلاثة أنواع ، إما صادقة حتما (دون رجوع للعالم الخارجى) ، وإما كاذبة حتماً (دون رجوع أيضا للعالم الخارجى أيضاً). وإما أنها تجريبية تحتاج لرجوعك للطبيعة مثلا للكشف عن إما صحتها وإما كذبها.

غير ذلك فإن هناك جملاً يعتبرها المناطقة «لغوا» أو كلاما لا معنى له.

أفرض أن زيد «آمن» إيمانا شديدا بالقضية (س) ويسعى لاثباتها للآخرين ، وقد يموت من أجلها لكن هذا لا يعنى ـ أبداً ـ صدق القضية (س) بالضرورة ، ولا يعنى ـ فى الوقت نفسه ـ أن إيمان «زيد» الشديد ، يفرض على آخرين ضرورة استعمال (س) كقضية مُسلم بها ، هذا من ناحية «الإيمان» بشىء ما ، ولكن «البرهان العقلى» على نفس الشىء يختلف ، فالمعادلة (١ + ١ = ٢) حتى مع أى «إيمان» بعكس ذلك. مع ملاحظة أن الرمز للرقم (٢) ليس قيمة فى حد ذاته ، إنما رمز لقيمة لا يمكن أن تختلف عليها الثقافات ولا العلوم.

العقل يربط النتائج لأى عملية منطقية ، ثم يخرجها رياضياً فى شكل رموز ، ولو لم تتوافر المقدمات ، لا يمكن أن ترتبط النتائج ، ولا يحدث شكل له رموز رياضية فى النهاية.

لا فرق فى المنطق بين حرف (أ) العربى وبين حرف (A) اللاتينى . لأنه مع اختلاف الشكل ، دلالة الرمز واحدة ، بصرف النظر عن طريقة الكتابة أو النطق.

ولذلك فإن نتيجة المعادلة السابقة (١ + ١ = ٢) هى هى عند مختلف الحضارات ، وفى كل الأزمنة ، حتى ولو صادفنا من «اعتقد عن إيمان شديد» بأن (١ + ١ = ٣). المعادلة بهذه النتيجة خاطئة منطقياً مع عدم وضع أية اعتبارات لأحاسيس «المؤمن شديد الإيمان».

«المنطق» مختلف عن «الاحساس». و«العقل»: عكس «الحدس». المنطق العقلى قادر على الانتقال من المقدمات للنتائج بصرف النظر عن الأهواء والميول ، ومنطقياً لا حاجة للبرهان على صدق هذه الجملة «الدائرة مستديرة» فهى صادقة بالقطع دون «دليل» ، أو «رغبة» ، حتى مع إيمان آخرين بأنها «ليست مستديرة» ، وإن وجد من يرفض صدق الجملة (الدائرة مستديرة) ، لأنه مؤمن بالعكس ، فإننا نستطيع إرجاعه لأصل المسألة ، فنقول أن هناك رسوماً هندسية ، سُمى بعضها مستطيل وشكله كذا ، وآخر مُربع وشكله كذا ، وآخر دائرة. إلى أن تصل معه أن الاسم «دائرة» مدلول لصفة الاستدارة ، والعقل يرفض أن تتعارض الصفة مع الموصوف ، لذلك لم يحدث طوال تاريخ البشرية من يثبت أن الدائرة «مستطيلة» أو «متوازية الأضلاع».

بنفس المنطق تكون الجملة «الدائرة شكل متوازى الأضلاع» كاذبة دون حاجة لأى برهان خارجى ، مهما كثر عدد «المؤمنين» بصدقها ، ومهما أعطى هذا الإيمان من أحاسيس .. عملية الاقتناع فى المنطق تأتى بعد الاستدلال ، نستخلص نتائج من مقدمات ، ويكون حكم «العقل» بحسب ما دخله من مقدمات ، المشكلة أنه لو آمن أحدهم بأن الدائرة «مستطيلة» ـ رغم أن هذا منطقياً ليس صحيحا ـ فأن أولاده يكبرون متمسكين باعتقاد أبيهم ، وفى الكثير من الأحيان ، متعصبين له ولا يملكون أى رغبة فى التغيير ولا الفهم.

أما الجملة الكاذبة دون حاجة لإثبات من خارجها فتكون مثلا «زيد كان فى المكان (أ) والمكان (ب) فى نفس الوقت» هذه الجملة تحمل تكذيبها فى داخلها ، لأن الشىء لا يمكن أن يكون فى أكثر من مكان فى نفس الوقت.

العقل هنا يعمل ، لكنه لا يرجع فى استدلاله للواقع الخارجى ، وحكمه نتيجة آلياته المنطقية فى العمل ، والثابت منطقياً أن (١ + ١ = ٢) ، وأن (زيد لا يمكن أن يكون هنا وهناك فى الوقت نفسه) ، لكن فى الجملة «التجريبية» يضطر العقل للعودة للواقع الخارجى ، فلو قيل «صخور جبال الهمالايا جيرية» ، ضرورى أن نذهب للهمالايا ونحلل صخورها ، إما أن نقتنع ، و إما أن نرفض ، أما «كلام اللغو» ، فهو الخالى من المعنى ، والجملة الخالية من المعنى هى تلك التى تحتوى على ألفاظ لا ترابط فيما بينهم ، مع أن كل لفظ له معنى فى حد ذاته.

«الكـلام الفارغ» لا هو كـاذب بالضرورة ، ولا هـو صادق حتمـاً ولا هو تجريبـى. فلا تستطيع رفضه ولا قبوله ولا حتى فهمه ، كأن يقال: «الانجليزى شكل ليلا دون غيوم»

لا مقدمـات ولا نتائج ولا أى شىء ولا يـمكن إخضاع مثـل هذا «الكلام» للاختـبار. «كلام اللغو» ليس «قول» ، إنما «كلام» يقال ولا أفهمه ، ولا يدخل مدركاتى.

القضـايا ترتبط داخـل العقل الإنسـانى من تلقاء نـفسها ، وبشـكل آلى حسب قـوانين الترابط المـتعارف عليها. وعـادة ما تكون الأسباب هـى «الحبل» الذى يربط بيـن ما يدخل عقلك ، وما يخرج منه.

الجزئيات تـترابط لتتحول لأفـكار مركبة ، و تترابط هـذه الأفكار بدورها لتصـبح أكثر تركيباً.. حتى يصل العقل فى النهاية للفكرة الكلية.

هذا عن العقل ، لكن الإيمان مختلف ، فالعـقل يحكُم على أساس العلاقة بين السبب والمسبب ، والخروج من المقدمات إلى النتائـج ، ولكن الإيمان درجة عالية من الاحساس ، والاعتقـاد فى شىء ، سواء أكـدته ظـواهـر معينة أو لـم تؤكده .. الإيمـان ليس مرهـــوناً بوقت ، فإيمـان اليهودى بيهوديته لا يحـدها وقت معين ، كذلك إيمـان «اليونانى» الأول بقصة «آلهة الأوليمب».

المسلم «المؤمن» لا يستطيع البرهنة على وجـود الملائكة بعقله ، لأن الحكم العقلى ـ غير أنه متـعلق بموجـودات ـ فهو أيضا يـعمل فى وجـود سلسلة مـن الارتباطات والـعلاقات المنطقية بـين ظاهرة وأخرى ، وحسب علوم المنـطق ، وباستخدام «التفكيـك» و«التركيب» للمـقدمات ومحـاولة الخروج للنـتائج يصبـح إيمان المسـلم بالملائكـة لا معنى لـه ، ولفظ الملائكة نفسه يعتبر ـ منطقياً ـ لفظاً خالياً من المعنى.

وتصبح جملة «الملائكة موجودة» لاهى جملة صادقة ولا هى كاذبة ، ولا هى تجريبية.

ومنطقياً تصبح العلاقة بين وجود الملائكة ، وبين عبادتها لله ليست ذات معنى ، بانعدام القـدرة علـى إثبات وجود تـلك الكـائنات «عـقليـا» ومنطـقياً من الأســاس . لكـن مع «الايمان» ، نـعتقد أن «الملائـكة»كائنات نورانـية فطرت علـى «طاعة الله». إيمانـى بوجود الملائكة هـنا مستمد مـن إيمانى بكتـاب الله ، لذلك لا أتعامل مـع لفظ «الملائكة» كـقضية يشمـلها البحث ، إنمـا كقضية «مـسلم بها».. أبحـث ما بعدها ، أو مـا يترتـب عليـها ، من قدرتهـم مثلا على علـم الغيب وما مدى صـحة هذا ، أو مدى ضرهـم ونفعهم للـبشر إن كانوا يستطيعون.

المسَلَّمة الايمانية اضطرتنى للاعتقــاد فيها دون جـدال ، ودون عمل للعقـل والمنطق ، إيمانى بوجود الملائكـة لأن الله ذكرهم فى آياته ، مختلف عن اقتناعـى «عقليا» بوجودهم . العقل دائما مـستقل فى استخلاص أحكامـه ونتائجه ، ولو رفض تصديق فـكرة مـا ، فإن هذا يعنى أن مقدمات هذه الفكرة ، أدت لنتائج تستدعى رفض الفكرة كلها.

العقـل فطر على قـوانين وسلاسـل منطقيـة ، فإذا رفض.. لم يكـن رفضه قصـورا فيه والقاعـدة الفقهية «الإسـلامية» «التكـليف لا يكون إلا فـى وسع المكلف» أو أن المسـتطاع يجب أن يكون أسـاساً لطلب الطاعة. فلا يمـكن ـ على سبيل المثال ـ حل مـعادلة من هذا النـوع «عدد النـجوم = ٢ + ٤> » الخلل هنا لـيس فى مساحـة إدراكـنا ، إنما فى واضع المعادلة ، أو المعادلة نفسها.

ولا اختلاف ـ مـنطقيـاً وعقليـاً ـ بين الإيمان بـوجود «ملائكـة» وبين الإيمـان بوجود الطائر الخـرافى «العنقاء». ولو لـم نحتكم لكـتاب الله الذى يؤكد وجود الملائـكة ، لا يسع العقل الاقتناع «بالملائكة» ولا الاقتناع «بالعنقاء»

ودون إيمان يتسـاوى قولنا «الشوح موجود» مـع قولنا «الملائكة» موجـودة ، مع أننا لا نعرف ما المقصود «بالشوح» أو ماذا يعنى هذا اللفظ.

المنطقى أيضا أن الله لـم يكتب على أبى بكر الإيمان ، ولا كتب علـى أبى لهب الكفر. أبو بكر وأبو لهب كانت لهما حرية الاختيار ، والـعدل هو محاسبتهما على ما اختاراه يوم الحساب. ولو كـان مكتوبا علـى أبى بكر الايمان بـالله والإسلام ومحمد ﷺ فإنـه فى هذه الحالة يستحق الجنة ليس لإسلامه ، وإنما لأنه نفذ إرادة الله.

فيما يـستحق أبو لهب ـ هـو الآخر ـ الجنة رغم كفره ، فقـد كتب الله عليه الكـفر منذ الأزل ، وبذا لـم يكن لأبى لهب أى اختيار غيره ، وهو فى هذه الحالة ينفذ إرادة الله ، لذلك لابد أن يدخل الجـنة ، ولو حدث واستجاب أبو لـهب لدعوة محمد ﷺ وتحول مـن الكفر للايمان ، فإنه فى هذه الحالة يستحق جهنم وبئس القرار ، إذ أنه خالف إرادة الله الذى كتب عليه الكفر ، بينما تحول هو للإيمان.

أبسط قواعد المـنطق العقلى تنفـى تماما «القدر والمكتوب» «والوعـد المكتوب» رغم أن نسبة كبـيرة من المسلمين «مؤمنـين» بهذه المسلمات «تمام الإيمـان». والأكيد أن أى صاحب منطـق لابد أن ينظر لهـذه «المسلمات» نـظرة دونية ، لأنهـا تدخل ـ وفق علمـه ـ فى إطار الجملة التجريبية الكاذبة ، ذات الاستدلال الفاسد وربما هى من «لغو» الكلام.

فلو كـــان يدخل فى عــلـم الله منذ الأزل ـ منذ بـداية الخلق ـ ماذا سـيفعل أبو بـكر فى حياته ، وماهـى الخيارات التى سيختارها مـنذ أن يصبح قادراً على الاختيـارحتى يموت ، لابد أن يترتب على هذا عدة نتائج.

أولاً تصبـح دعوة محمد ﷺ لا مـعنى لها ، لأن سواء نـزل الوحى أو لم ينـزل فإن أبا بكر سـوف يكون مسـلماً ، أو سواء كـان محمد ﷺ هـو المصطفـى أو غيره ، فإن أبـا بكر سوف يحبه ويخلص له. ثانيا تصبح مسألـة إيمان أبى بكر مسألة مرحلة ، بمعنى أن الله قدر أن بمجرد وصول أبى بكر سن الأربعين ـ مثلا ـ سوف يـدخل الإيمان قلبـه ، وبالتالى هى ليسـت مسألة إيمان ، إنمـا تصبح مسألـة طبيعة قـدر فيها على أبـى بكر أن يكون مسـلماً. ثالـثاً.. لا معـنى لإرجـاء حساب أبـى بكر حـتى يوم الحـساب ، لأن النـتيـجة معـروفة لله (سبحانه) قبـل ميلاد أبى بكر وأنه سيدخل الجـنة ، فى نفس الوقت يصبح مـن غير العدل أن يدخل أبو لهب النار ، إذ أن الله أمره (كتب عليه) الكفر ، وبذا (كتب عليه أيضا) النار ، دون اختيار حقيقى واع من أبو لهب نفسه.

الخرافة أن يبـرر كثير من المسـلمين الأمر ، فيـقولون أن الله علم منـذ الأزل أن أبا لهب سيكون كافراً ، وأن أبا بكر سيكون مؤمنا ، ثم يـقولون أن أبا لهب اختار لنفسه الكفر وأبا بكر اختار لنفسه الإيمان فى الوقت نفسه.

المعنى النـهائى بهذه الطريقة أن الحـياة نوع من «العبث».. فلا مـعنى لأى شىء. أو هى كالقطار تمشى على «سكة حديد» ولا مـعنى للعمل ولا الصلاة ولا الصوم ولا أى شىء ، لأن الله يعلـم النتائج من الـبداية وكتبهـا ، والبشرمجمـوعة من الدمى لا تملـك من أمر أى شىء ... شيئاً ، وهذا هو عين الجهل .. وعدم الايمان.

د. محمـد شحرور فى بـحثه الخطير «الكتـاب والقرآن» يقـول : أن علم الله سبـحانه بالطبيعـة نوعان: إما علم مبرمج سلفـاً فى اللوح المحفوظ كقوانين الخـلق الأولى والـساعة والبعـث واليوم الآخر ، وإما عـلم فى كليـة الاحتمالات لظـواهر الطبيـعة الجزئية (الـعلم الرياضـى) التى سمـاها سبحـانه «كتاب مـبين». والآيات الـقرآنية تـبرهن علـى أن سلوك الإنســان سلوك احـتمـالى. ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ [يس:١٢].

وحيث إن كلام القـرآن غاية فى الدقة ، واللغة العـربية (علميا) لا تحمـــل مترادفـات ، ولا يمكـن أن يكون هناك لـفظ يحمل نفـس معنى ودلالة لـفظ آخر على خـلاف أى لغة

أخرى. وبما أن القرآن نزل عربياً.. فإن معنى «أحصيناه» أو فعل «أحصى» يستوجب وجود الشىء قبل إحصائه. أو إقرار حادثة بعد حدوثها.

وتستوجب الآية الكريمة السابقة ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس ١٢] ضرورة حدوث الشىء كى يتم تسجيله، أو يأمر الله بتسجيله.

بمعنى آخر أن الله سبحانه يترك للإنسان الاختيار ثم يسجل اختياره، وبذلك يستحق الإنسان إما العقاب وإما الثواب، ولا يمكن أن يكون سلوكه وتصرفاته مكتوبه عليه. ولا كتب الله رزقه ولا عمله.

وعلى هذا فإن الله سبحانه لا يكتب فعل فلان إلا بعد وقوعه، ونقول أن فعل فلان يدخل علم الله الكلى، لأنه لا يوجد فى الدنيا من يقوم بتصرف ما يخرج عن الاحتمالات الكلية التى يعرفها الله.

افرض أن لديك طفلا، وقد وضعت أمامه ثلاثة ألوان أحمر وأخضر وأصفر. الاحتمالات الكلية أو الأكيد أن الطفل سوف «يختار» أحد هذه الألوان، أو كلها، لكنك لم تقدّر عليه أن يأخذ لوناً بعينه، فى الوقت نفسه لا يمكن أن يأتى الطفل بلون آخر غير تلك الألوان الثلاثة لأن غرفته مغلقة عليه.

وفى حالة الخلق الإلهى للكون لن يستطيع الإنسان خلق اختيار آخر غير مجموعة الاختيارات التى خلقها الله، فالإنسان غير قادر على الخلق، ولا قادر على الخروج عن كلية الاحتمالات التى تدخل علم الله.

ووفق التأويل المنطقى لخبرة الله (خبير بما تعملون) هو أنه تعالى يعلم تمام العلم أنكم أمام أحد تصرف من مليون، وأنه تعالى سوف يأمر بتسجيل أحدهم فور وقوعه.

وهكذا نفهم الآيات الكريمة ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ [يونس: ٢١]. ﴿كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾ [مريم: ٧٩]. ولفظ سنكتب يعنى تصنيف أعمال الإنسان وتسجيلها بعد وقوعها.

وقوله تعالى ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾[يس: ١٢] و ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [النساء: ٨١] و﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠].

هذا عن كمال معرفة الله الكلية. أما قضاؤه فشىء آخر.

يقول د. شحرور أن فعل «قضى» جاء مرة بمعنى «أخبر» كقوله تعالى ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤] وقوله تعالى ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ [الحجر: ٦٦]. وقوله ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الأَمْرَ﴾ [القصص: ٤٤].

وجاء «قضى» بمعنى «أمر» (أو الالتزام بأداء فعل والنهى عن آخر) فقال تعالى ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

وجاء مرة ثالثة ـ قضى ـ بمعنى انهاء الشيء كقوله ﴿ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ [القصص :١٥]. وقوله ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

وجاء نفس اللفظ «قضى» بمعنى الإرادة الإلهية النافذة فقال تعالى ﴿سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [مريم ٣٥]. ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]. ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، ﴿ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[غافر: ٦٨].

ويبحث د. شحرور قضاء الله فى الآيات السابقة ويقول إنه سبحانه صاغه بصيغة ثابتة صارمة «يقول له كن فيكون». وهو مايعنى أن قضاء الله النافذ لايأتى إلا من خلال كلماته سبحانه و﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾. ﴿ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾. وكلماته هى الوجود وقوانينه الموضوعية ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾.

«كتاباً» هنا لا تعنى المكتوب ، إنما تعنى الظروف الموضوعية التى حين تكتمل (تكتب أو تصف أو تترتب بعضها بجوار بعض) يحدث أمر ما.

ففى اللغة أن «كتب» أى صف شيء بعضه جوار بعض ، والبخارى صنف صحيحه فى كتب فقال «كتاب الصلاة» و«كتاب الصوم» ما يعنى أن للصلاة والصوم والزكاة ظروفاً وطقوساً معينة لو اجتمعت كلها أو «كتبت» جوار بعضها البعض ، فإنها تنتج «صلاة» أو «صيام» أو «زكاة» ولا تعنى الآية ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ أن سلوك الإنسان مقدرا عليه منذ ولادته.

أما «إذن» الله ، فهو ضرورة لحدوث شيء ليس للإرادة الإنسانية رفعه ، فقد جاء الإذن من «أذن» . وهو فعل يعنى فى اللسان العربى «إعلان الشيء وتأكيد الحصول والنفاذ».

﴿وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا﴾ [آل عمران: ١٤٥] . الكتاب في هذه الآية لا يعني أن الموت هو الآخر مكتوب ، إنما يعني أن هناك ظروفاً تجتمع بموجب القوانين الدنيوية لو حدثت ، فإن الله يعطي الإذن بالموت وأن هذه الظروف غير موقوتة ، يعني لم يقدرها الله سلفاً.

فالله سبحانه قد يعطي الإذن بالوفاة لو وصلت حرارة الجسم إلى ما فوق ٤٤ درجة مئوية ، أو إذا شنق الإنسان نفسه.

ونستطيع أن نقول في الآية الكريمة ﴿إن الله عنده علم الساعة﴾ أنه سبحانه وتعالى برمج أحداث الساعة (أو كتابها وهو مجموعة الظروف الموضوعية الخاصة بها) في «اللوح المحفوظ» ، لذلك وصف لنا ماهي الساعة وماذا سيحصل في هذا الكون المادي حين تقدم ، لكنه سبحانه لم يضع توقيت قيامها أو متى «يأذن» بقيامها.

علم الساعة هنا علم إلهي بحت ، لا يعلمه إلا الله ، ويتعلق «بإذن» الله وحده ، وحتى لو حدثت الأمور الموضوعية الكونية لحدوثها ، ولم يعط الله «الإذن».. فلن تقوم.

وإذا كان العلماء ورثة الأنبياء لأنهم يستطيعون كشف أموراً كثيرة «كونية» قالها الأنبياء بطريق الوحي دون أن يعرفوا حقيقتها ، وجاء العلم بعد ذلك وفسر بعضها ، فإن علم الساعة ـ حسب آيات القرآن ـ مختلف تماما ، فقد يتنبأ العلماء بأن الشمس قد تنطفئ بعد مليون سنة أو أن الكون سوف ينكمش بعد مليون سنة لكنهم لا يستطيعون التنبؤ متى يعطي الله الإذن «للقيامة» بالحدوث ، ومعرفة العلماء بتوقيت انطفاء الشمس ، أو انكماش الكون ليس مشاركة لله في علمه ، إنما اكتشاف سر قوانين وضعها الله في هذا الكون ، فيما يظل «إذن» الله وحده .. لا يعلم توقيته ولا سره إلا هو.

فالله «ينزل الغيث». يعني حدد سبحانه أن هناك ما ينزل من السحاب اسمه مطر ، وقد وضع سبحانه مجموعة من القوانين مثل قوانين البخر وتشكل الغيوم التي إن اجتمعت نزل المطر ، لكنه لم يحدد ـ سبحانه ـ سلفا كمية المياه التي ستنزل على كل كيلو متر مربع من سطح الأرض.

من هنا يصبح لصلاة الاستسقاء والدعاء لله سبحانه وتعالى بإرسال المطر معنى.

ولو كان الله قد كتب كمية المطر وتوقيته سلفا ، ولأن ﴿قوله الحق﴾ و﴿ولا مبدل لكلماته﴾ فإنه مهما حدث لن يمكن للمطر أن ينزل مهما كثر الدعاء أو قل ، ويصبح

ـ أيضا ـ لا معنى للدعاء الإنسانى ، إذ أن الله ـ فى هذه الحالة ـ يكون قدر توقيت المطر وكميته ومن يتمتع به ، وإضافة إلى الأعمار والأمراض وفترات السعادة والحزن ، فيما لن يفيد الدعاء فى شىء ، إذ أنه سبحانه لن يرجع فى قرار اتخده منذ بداية الإنسان بالنسبة لمرضه أو سعادته. أما لو كانت الأمور تسير «احتمالية» وفق قانون أول وضعه الله للأشياء ، فإن أهمية الدعاء تأتى من أن الإنسان يطلب من الله أن «يأذن» فيشفيه ، أو أن «يأذن» فينزل المطر أو أن يتدخل الله كى يمنع كارثة رغم توافر الظروف الموضوعية لحدوثها فلو تدخل الله ، فقد استجاب الدعاء.

مع ملاحظة أن الله يستجيب للمؤمنين ، لكن «الكفرة» فإن القوانين الموضوعية تعمل معهم وفق نظامها دون تدخل من الله ، فقوانين المرض والشفاء تعمل ، والرزق والفقر تعمل ، والموت والحياة تعمل ، وبذا يمكن للإنسان اختيار أعماله ، التى تنتج «رزقه» ، فالأرزاق هى الأخرى غير محددة سلفاً ، لكنها ستسير وفق الطبيعة الكونية ، رغم أن الله قد يتدخل فيها «بإذنه» بالنسبة لمن يريد من المؤمنين ، فيما لا يعنى هذا أن غير المؤمنين لابد أن يكونوا فقراء.

أما الموت ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوت﴾ فيدخل ضمن «كتاب الموت». أى الظروف والملابسات التى حين تجتمع ، يعطى الله الإذن بالوفاة ، ولوحدث تأجيل أو تأخير من قبل إرادة الإنسان ، فإن هذا لايعنى ـ فى الوقت نفسه ـ قدرة الإنسان على درء الموت تماما ، لأنه لا يمكن أن يظل الإنسان حيا إلى الأبد ، فكلماته سبحانه «حق» و﴿وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِه﴾ وهو ما يعنى ضرورة حدوث الموت إن آجلاً أو عاجلاً.

فقد حدد الله سبحانه وتعالى مجموعة القوانين التى تحدد الحياة والموت وتحدد قصر العمر وطوله ، وترك للبشر التصرف فيها حسب معرفتهم النسبية بها ، ولو كانت الأعمار مكتوبة ، والأفعال هى الأخرى مقدرة منذ لحظة الميلاد ، لما دخل «المنتحر» النار ولا اعتبره الله كافرا بنعمته ، إذ أن فعله ، وقت موته وكيفية موته مكتوبة عليه ، ولا ضرورة ولا معنى لحسابه.

والفارق الكبير بين «النبوءة» و«الرسالة» يظهر هنا.

والمقارنة بينهم تظهر فى الآيتين التاليتين: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلاً وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِى الشَّاكِرِين﴾ [آل عمران: ١٤٥].

الآية الثانية ﴿فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا﴾ [النساء: ١٠٣].

الآية الأولى آية «نبوة» ، أو آية كونية تحتوى حديثاً للناس كلهم كافرهم ومؤمنهم وتسرى معلوماتها على كل المخلوقات بصرف النظر عن إيمانهم أو عدمه ، فلا يستطيع شخص ما أن يرفع عن نفسه الموت إلى الأبد ، بينما كانت الآية الثانية آية «رسالة» ، وهى موجهة لمن آمن وارتضى الإسلام دينا ، ويستطيع أى شخص غير مؤمن أن يعصى الله فيها ، فلا يصلى مثلاً ، ولا يذكر الله لا قياماً ولا قعوداً ، بينما لا يستطيع أى «كافر» مهما بلغ كفره أن يدرأ الموت ، لاعنه ولا عن آخرين.

لأن الموت «كتاب مؤجل» ، يعنى مجموعة من الظروف إن حدثت فإنها تؤدى للوفاة فالوفاة إذاً أكيدة ، إنما توقيتها هو المؤجل.

وعند ما يدرس الإنسان كتاب الموت (الظروف التى تؤدى للوفاة) و تزيد معرفته بالعوامل المؤدية إليها ، يستطيع أن يؤجل الشروط ويطيل الأعمار.

وقوله عز وجل ﴿ لكل أجل كتاب﴾ [الرعد: ٣٨] معناه أن دنوا الأجل (وقت الوفاة) لابد أن تسبقه شروطاً وظروفاً تؤدى قطعاً للموت مع إمكانية أن يمنع الإنسان هذه الظروف فيطول عمره ، ولم لم يكن هذا صحيحا ، فالأفضل مع مرض أحدنا ألا يتداوى ، لأن موته ـ لو مكتوب ـ فلن يجدى لا دواء ولا طبيب ولا أى شيء.

ولو الأرزاق مكتوبة على الإنسان ، فلا معنى للعمل ـ لأن لو رفض فلان العمل ورزقه مقدر له بمائة جنيه ، فإنه سوف يحصل عليها لاجدال ، إضافة إلى أنه لن يستطيع أن يحصل على غيرها ـ المائة جنية ـ حتى لو عمل ليل نهار.

❑

فرق شاسع بين التفكير المنطقى وأنواع أخرى من التفكير.

المشكلة الأساسية التى تواجه الدين هى تواتر المسلمات تدريجياً بحيث تصبح قضايا دينية لا تحتمل لا التأويل ولا الرفض ، فانتشرت «المسلمات» حول العقاب والثواب ، ومصير النصارى وعذاب اليهود ، وأسباب الحلال والحرام ، وظهرت أقوال غاية فى السذاجة على أنها من «صميم الدين».

الغريب ـ وهو ليس جديداً ـ شهرة مجموعة مما نسب للنبى ﷺ من أحاديث تأكيداً «لمسلمة من مسلمات» أو نفيها. ولذلك يمكن اعتبار الحديث النبوى بالتصورات الخاطئة تجاهه هى إحدى أهم المشكلات التى تواجه الإسلام الصحيح.

بداية يجب التسليم بأن الحديث النبوى عموماً لا يحل حراما ، ولا يحرم حلالا. وإذا كان الإسلام كدين مقسم لعبادات وأخلاق وعقيدة ومعاملات ، فإنه لا يجوز الاعتماد على الحديث النبوى بالنسبة لأى مما سبق فيما يخالف أو يناقض آيات الله فى كتابه.

وعليه يجوز الأخذ بالحديث النبوى الشريف فيما يتعلق بالعبادات والأخلاق ، بينما يجب الحذر من التسليم بأى قول ينسب للنبى ﷺ فيما يتعلق بالعقيدة.

فقد وردت آيات الله وفيها كل ما يتعلق بالمعاملات تجارية وطلاق وميراث ، وإذا اعتبرنا ما ينسب للنبى ﷺ شرحاً لما فى كتاب الله ، يجوز الاستئناس بما قال (إن صح) ، أما فيا يتعلق بالعقيدة فيمكن أن نعتبر ما قاله ﷺ ، أو قاله الصحابة ، لا يخرج عن حدود الاجتهاد التى صنعتها الأرضية المعرفية لعصر فجر الإسلام ، ومع تقدم العلوم الحالية ، واختلاف الزمان والمكان ، ولأن القرآن صالح لكل عصر، فيجوز اعتبار ما وصل إليه الصحابة والأولون تراث ، يمكن مناقشته ، وتعديله ، أو استيضاح نقاط لم تكن واضحة أو فهمها المسلمون الأوائل حسب أرضيتهم الثقافية والمعرفية.

فيما يظل التمسك و«التبرّك» بتراث الأوائل (فى تأويل آيات الله واتباع سننهم فى تصريف أمورهم) بعد ما يزيد على أربعة عشر قرناً من نزول الوحى ، ودون أى إضافة منا أو تعديل كمن أصابته الزائدة الدودية فترك الطب الحديث والأدوية الجديدة ، وراح يبحث فى كتب ابن سينا عن كيفية إجراء مثل هذه الجراحة.

العيب ليس عيب ابن سينا لأن هذا العالم اجتهد وفق ثقافته وثقافة عصره وعلوم مجتمعه ، لكن العيب فى صاحبنا الذى لم يستفد من ثقافة عصره (القرن الحالى) وتمسك بإجراء الجراحة على طريقة ابن سينا ، فتلوث جرحه ومات ، إذ أن تلوث المصانع وعوادم السيارات خلق نوعاً جديدا من البكتيريا لا عرفها ابن سينا ولا سمع عنها فى عصره.

التخلف هو أن تتمسك بتراث الأولين ، رغم تقدم عصرك وإمكانك خلق طرق ومصالح وحلولاً جديدة لمشكلات قديمة.

التمسك بما قاله الصحابة (وفق ثقافتهم وثقافة عصرهم) عن كتاب الله وتأويل آياته

قمة الخطأ ، بينما التمسك بكتاب الله وتأويله وفق ظروفنا وثقافة عصرنا هو كمال الصواب ، فلأن هذا الكتاب صالح لكل زمان ومكان ، فهو لذلك يتصف بالمرونة ، يجوز أن يؤوله أبناء كل عصر حسب ثقافتهم دون المساس بروحه وروح نصوصه ، بينما إصرارنا وتمسكنا بما قاله الأولون في تأويل آياته يحوله من المرونة للثبات ، أو من الاستمرارية الدائمة للتراث ، لأن تأويل أبي بكر رضي الله عنه لآية من آياته تراث ، بينما يبقى نص الآية نفسه ليس تراثاً ، نص الآية متجدد متغير ، قد يرى فيه آخرون ـ بعد مليون سنة ـ أشياء جديدة لم يستطع أبو بكر رضي الله عنه أن يستشفها في وقته ، لذلك كتاب الله ليس تراثاً ، إنما ما قاله الأولون عن كتاب الله هو التراث ، وحتى ما قاله محمد (ﷺ) فهو تراث ، لأن الرسول ﷺ بشر ﴿قل إنما أنا بشرٌ مثلكم يوحى إلى﴾ وما يوحى إليه هو آيات الله ، وغير ذلك نعتبره من أقواله هو ﷺ . ولو كان كل ما يقوله الرسول موحى إليه ، لما عاتبه سبحانه في أكثر من موضع ﴿وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك لتفترى علينا غيره وإذا لاتخذوك خليلا (٧٣) ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليل﴾[الاسراء: ٧٤].و ﴿عبس وتولى (١) أن جاءه الأعمى﴾و﴿يا أيها النبيُ لم تحرم ما أحلَ اللهُ لك تبتغى مرضات أزواجك﴾ و﴿وتخشى الناس واللهُ أحقُ أن تخشاه﴾ والآيات الكريمة تعنى وتؤكد أن ليس كل فعل أو قول صدر عن النبى كان وحياً ، والوحى فى الآية الكريمة ﴿قل إنما أنا بشرٌ مثلكم يوحىَ إلى﴾ تقصد كتاب الله وآياته ، هذا من جانب ، أما لو تعمقنا فيما يتعلق بالحديث النبوى (أو كل ما نسب للنبى ﷺ) عموما ، فسنجد أنه ﷺ نهى عن تدوين أحاديثه[1]. وتكلم عن هذا النهى أبو هريرة ، وعبدالله بن عمرو ، وزيد بن ثابت ، وأبو سعيد الخدرى وعبدالله بن مسعود. فيقول أبو هريرة : «خرج علينا الرسول ونحن نكتب أحاديثه فقال ما هذا الذى تكتبون ؟! قلنا أحاديث نسمعها منك يا رسول الله ، فقال: «أكتاب غير كتاب الله ؟!».. يقول أبو هريرة «فجمعنا ما كتبناه وأحرقناه بالنار.».

وهو ـ أبو هريرة ـ الذى قال أيضاً[2]: «بلغ رسول الله أن أناساً قد كتبوا أحاديثه فصعد المنبر وقال : ما هذه الكتب التى بلغنى أنكم قد كتبتم .. إنما أنا بشر فمن كان عنده شيء منها فليأتنى بها» فيقول أبو هريرة: «جمعنا ما كتبناه وأحرقناه بالنار».

وأبو هريرة نفسه صاحب الحديث «لا تكتبوا عنى غير القرآن ومن كتب عنى غير

القرآن فليمحه». وفي رواية لأبي سعيد الخدرى قال: «استأذنت رسول الله ﷺ أن أكتب حديثه فأبى أن يأذن لى.».

وقال عبدالله بن عمر: «خرج علينا رسول الله عليه الصلاة والسلام يوما كالمودع وقال إذا ذُهب بي فعليكم بعدى بكتاب الله أحلوا حلاله وحرموا حرامه.»(٣).

وروت عائشة بنت أبي بكر رضى الله عنه «جمع أبى الحديث عن رسول الله وكان خمسمائة حديث فبات ليلة يتقلب كثيراً فلما أصبح قال: أى بنية هلمى بالأحاديث التى عندك فجئت بها فدعا بنار وأحرقها»(٤).

أما عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقد صعد المنبر وقال: «أيها الناس بلغنى أنه قد ظهرت فى أيديكم كتب (يقصد مكتوب الحديث النبوى) فأحبها إلىّ أحسنها وأقومها فلا يبقى أحد عنده كتاب إلا أتانى به فأرى رأيى فيه» فظن الناس أنه يريد أن ينظر فيها فأتوه بما كتبوا ، فجمعها وأحرقها وقال «أهى أمنية كأمانى أهل الكتاب؟» وكتب إلى ولاته فى البلاد قائلا : «من كان عنده من السنة شيء فليتلفه»(٥).

لذلك قيل إن المسلمين الأوائل خافوا من كتابة أى شيء غير القرآن ، بينما لم تجمع الأحاديث النبوية إلا فى عصر التدوين ، فى العصر العباسى الأول(٦) وقيل أن الخليفة عمر بن عبدالعزيز (٩٩ ـ ١٠١هـ) أمر بجمع الحديث فى العصر الأموى ، لكن أمره لم ينفذ فبقيت الأحاديث بدون جمع حتى العصر العباسى(٧).

وبعد جدل كبير بين العلماء قسمت السنة النبوية إلى (متواترة ومشهورة وآحاد).

أما السُنة المتواترة «الفعلية» فهى ما قام به الرسول ﷺ من أفعال تعبدية لم تذكر فى القرآن كالصلاة والحج ومناسك العمرة ، فقد نقل عنه ﷺ أنه قال «صلوا كما رأيتمونى أصلى» وعن الحج قال: «خذوا عنى مناسككم». مع ملاحظة أن الأحاديث (السنة) العملية لا تضر أبداً لو كان ما نقل عنه ﷺ ليس صحيحاً. فالخطأ فى مناسك العمرة لا يضر بمصالح المسلمين ، إنما يتحمل وزره من نقله على خطئه ، فيما يصح العمل فى حد ذاته ويتقبل الله.

أما الأحاديث (السنة القولية المتواترة) فلم يتفق الفقهاء على حديث منها بلفظه ، فاختلفوا فى متونها جميعاً وفى أسانيدها وقال ابعض أن ثمة حديثاً واحداً ثابت فعلاً وهو: «من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»(٨).

واتفقوا على أن المتـواتر من الحديث يعنى ثبوت خروجه من الرسول ﷺ ثبوتاً أكيداً ، لذلك يعمل به فى أمور العقيدة ، ما دام لايخـالف معنى دينيا ، ما دام التواتر يؤكد أن قائل الحديث هو النبى نفسـه لكن بعض الفقهاء رأى أن تواتر الحديث (المـتواتر القولى) بالنقل والتدوين بعـد عصور الصحـابة والتابعين وتابعى التـابعين لا يجعله مـتواترا لأن نقله فى العصور الثلاثة التى كان عماد الرواية فيهـا على المشافهة والسماع لا يقطع بصحة مثل هذا الحـديث وثـبـوته.»[٩]. وبذا أصبح الحـديث المتواتر (الأكـيد) الوحيـد: «من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار.». وهو قول الإمام الشافعى.

أما الأحـاديث المشهورة ، فهى الـتى رواها عن النبى ﷺ صحابى أو جـمع لم يبلغ حد التواتر ، ثم رددها فى عصر التابعين وعصر تابعى التابعين جمع بلغ حد التواتر. الأحاديث المشهورة وفق هذا الوصف «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى» وحديث «بنى الإسلام على خمس..».

والأحاديث المشـهورة لا تفـيد القطع واليـقين (فيـها شك) بروايتـها عن النبى نفـسه ، والظن فيها قريب لليقين ، لذلك لا يجوز الاعتماد عليها فيما يتعلق بأمور العقيدة.

فيـما كانت الأحاديث الآحـاد هى التى رواها عن النبى ﷺ عدد لم يبلغ حـد التواتر لا فى عصر الصـحابة ولا فى عصر التابعـين ولا عصر تابعى التابعين ، لذلك تسـمى «أخبار الآحاد». لأنهـا غالباً مـا تكون مروية من واحد عن واحد عن واحـد عن واحد غيـر متفق عليـها عند الكل.

وأغلب الأحاديث المنسوبة للنبى ﷺ آحـاد ، بما يعنى أنها لا تفيد التأكد بصحة نسـبتها إليه ﷺ (كالمتـواترة) ، ولا القرب من التأكد (كالأحـاديث المشهورة)[١٠]. لذلك فـهناك الكثيـر من العلماء من ينكر سنة (أحاديث الآحـاد) ولا يعمل بها ، بينما يرى آخـرين عدم جواز الأخذ بها فى الأمور العـقائدية ، أو ما يتعلق بالشريعة ، لأن أمور الشـريعة والعقيدة لابد أن تؤخذ عن مصدر أكيد وليس ظنى.

وبذا ليس من ينكر الأحـاديث ـ الغير مـؤكدة ـ (ولا يعمل بهـا فيمـا يتعلق بالعقـيدة) كافـرا ولا مارقاً ولا عاصـى ، وقد صدرت فتـوى الأزهر ـ أول فبراير ١٩٩٠ ـ وجـاء بها «أن الايجاب (الوجـوب) والتحريم لا يثبـتان إلا بالدليل اليقين القطعى الثـبوت والدلالة. وهذا بالنسبة للأحاديث لا يتحقق إلا بالمتواترة. وحيث إن غيرها (المتواترة) تكاد تكون غير معلومـة ، لعدم اتفاق العلمـاء عليها ، فإن السنة (الأحـاديث) لا تستقل بإثبـات الإيجاب

(الوجوب) والتحريم إلا أن تكون فعلية (متواترة فعلية كالصلاة والحج والعمرة) أو تضاف إلى القرآن الكريم (أى يقوم عليها دليل مستقل من القرآن تنضم إليه)[11].

وعليه يصبح حديث تحريم الذهب ليس أكيداً ، ومن ثم لا يصلح لأمور الاعتقاد. فالحلال والحرام - حسب كلام النبى - فى القرآن وحده أو كما قال: «لو ذهب بى فأحلوا حلاله وحرموا حرامه».

ويصبح من المنطق تفسير منع النبى ﷺ لبس الرجال للذهب فى عصره درباً من دروب التقشف والاستعداد دائماً للدفاع عن الدين ، وخوفاً أن يتباهى رجاله بلبس الذهب واقتناء الحرير فتفتر عزيمتهم ، فيفتك بهم الأعداء.

فيما كان لحم الخنزير حراما أكله على كل الوجوه ، لما ورد بخصوصه فى كتاب الله ، والعموم ألا يناقض الحديث العقل ، وهناك أحاديث كثيرة تجافى المنطق وتضرب بالعقل الإنسانى عرض الحائط ، مثل أحاديث الصخرة التى تتكلم وتقول أن وراءها يهوديا ، وما يحكى عن المسيح الدجال ، والاختلاف حول ما إذا كان «مسيحاً» أو «مسيخا».

ومن هذه الأحاديث ما روى عن أبى هريرة وأخرجه ابن ماجه ، وأخرجه البخارى فى صحيحه ما يقول: «إذا وقع الذباب فى إناء أحدكم فليغمسه كله ثم ليطرحه ، فإن فى أحد جناحيه شفاء وفى الآخر داء».

وجاء فى صحيح البخارى (المشهور كأحد أوثق مصادر الحديث) «تدرى أين تذهب الشمس.. قال (النبى) فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش فتستأذن فيؤذن لها ، ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها ، وتستأذن فلا يؤذن لها. ثم يقال لها ارجعى من حيث جئت فتطلع من مغربها ، فذلك قوله تعالى و«الشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم» (رواه أبو ذر وأخرجه مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى) ، مع أن ما أثبته العلم الحديث أن الشمس لا تسجد عندما تختفى من فوق الجزيرة العربية (موطن عيش مخرج الحديث ورواته منذ ما يزيد على الألف عام) إنما تشرق فى أماكن أخرى (لم يعرفها الذين أخرجوا الحديث حتى مماتهم).

ومثال الأحاديث الآحاد ما نسب إلى رواية عمر بن الخطاب وأخرجه البخارى (مرة أخرى البخارى يعتبر أدق كُتّاب الحديث وهو أصدق مخرجها): «خالفوا المشركين وفروا اللحى واحفوا الشوارب». نفس الحديث أخرجه مسلم «جزوا الشوارب وأرخو اللحى وخالفوا المجوس». والاختلاف بين الاثنين واضح.

ومن الحديث «الأئمة من قريش» ، أو ما أخرجه البخارى عن أبى هريرة (الناس تبع لقريش فى هذا الأمر» (أى فى الولاية والحكم وسياسة أمور الناس ، وهو الحديث المسئول عن المذابح الرهيبة التى حدثت بعد وفاة النبى ﷺ بين المسلمين وبعضهم البعض (الأمويين والعباسيين) ، [١٢]وصراع الخلافة بعد وفاة النبى ﷺ.

❑

ولد البخارى (صاحب صحيح البخارى) عام ١٩٤ هجرية. ومسلم ولد ما بين ٢٠٤ و٢٠٦ هجرية ، بينما ولد الترمذى ما بين ٢٠٩ و٢١٠ هجرية. وولد النسائى عام ٢١٥ ، بينما ولد أبو داود ٢٠٢ ، وابن ماجه ٢٠٩ ، فيما ولد الدرامى بين ٢٥٠ و٢٥٥.

المعنى أن جمع الحديث وتدوينه كان بعد وفاة الرسول ﷺ بأكثر من مائتى عام ، وأنه لا البخارى ولا ابن ماجه ولا النسائى ولا الترمذى شاهدوا الرسول ولا قابلوه ، إنما كتبوا ما أخرجوه بالنقل والسماع ، وهو ما جعل فرصة وجود «أحاديث موضوعة» سهلة وممكنة ، ما أدى لانتقالها بسرعة وسهولة على ظهر التراث حتى وصلتنا.

فقد أقر ميسرة بن عبد ربه الفارسى أنه وضع أحاديث فى فضائل القرآن ، وأنه وضع فى فضل على بن أبى طالب سبعين حديثاً وأقر أبو عصمة نوح بن أبى مريم ، الملقب بنوح الجامع ، أنه وضع على عبدالله بن عباس أحاديث فى فضائل القرآن سورة سورة[١٣].

وروى أن أبا حاتم السبتى دخل مسجداً فسمع شاباً يقول: «حدثنا أبو خليفة حدثنا أبو الوليد عن شعبة عن قتادة عن أنس فقال .. ثم ذكر حديثاً». فسأله أبو حاتم: «هل رأيت أبا خليفة (الذى روى عنه)؟ قال: لا . قال: كيف تروى عنه ولم تره؟!

فقال الشاب: إن المناقشة معنا من قلة المروءة ، أنا أحفظ هذا الإسناد ، فكلما سمعت حديثاً ضممته إلى هذا الإسناد»[١٤].

وقيل لمأمون بن أحمد الهروى «ألا ترى إلى الشافعى ومن تبعه بخراسان؟! فقال: «حدثنا أحمد بن عبدالله حدثنا عبدالله بن معدان الأزدى عن أنس ، مرفوعاً ، قال: «يكون فى أمتى رجل يقال له محمد بن إدريس ، أضر على أمتى من إبليس. ويكون فى أمتى رجل يقال له أبو حنيفة ، هو سراج أمتى»[١٥].

وربما وضع الأحاديث هو السبب فى اختلافها فى كتب الأحاديث ، ففى حين ذكرت

مجموعة من الكتب بعضها ، لم تذكـرها أخرى. البخارى ـ على سبيل المثال ـ أقر ١٧٦٣ حديث مـن مجمـوع مائتى ألف حـديث منسوبـة للنبى ﷺ ، بينما أخــذ مـسلم ٤٠٠٠ حديث ، بما يعنى أن هناك أحاديث أقرها مسلم ، وشك فيها البخارى(١٦).

فقد ظلت الأحاديث تـروى من شخص إلى شخص حتى نشأ اتجاه يجمـعها فى أمكنة مختلفة وفى أزمنة أيضا مخـتلفة ، فجمع ابن جريج (الرومى الأصل) أحاديث من مكة لـم يوثقها البخارى ، وشهر عن ابن جريج أنه لا يتابع فى حديثه.

وفى المدينة جمع الحـديث محمـد بن إسحاق (المتـوفى سنه ١٥١هـ) ، ومالك بن أنس (المتـوفى سنه ١٧٩هـ). وبالبـصـرة جمع الحـديث الربيع بن صـبـيح (توفى ١٦٠هـ) ، و سعـيد بن أبى عروبة (تـوفى سنة ١٥٦ سنه ١٥٦هـ). وفى الكوفة جـمع الحديث سفـيان الثورى (توفى سـنه ١٦١هـ) وجمعـه فى الشام الأوزاعى (توفى ١٥٦) ، وباليـمن معـمر (توفى سنة ١٥٣ هـ) ، وبخراسـان ابن المبارك (توفى سنه ١٨١هـ) وبمصر الليث بن سـعد (توفى سنة ١٧٥هـ)(١٧). وكلهم لم يروا الرسول ولا سمعوا من الصحابة.

وأحـاديث الإمام مـالك (فى الموطأ) لسيت كلهـا مـسندة ، يعنى لا يرويها مـالك عن شخص مـحدد عن آخر مـعين حـتى يصل بها إلى النبى ﷺ. وبعـضها مـرُسل سقط من سنده اسم صحابى ورواه التابع ، دون أن يذكر اسم الصحابى ، وبعضها منقطع سقط من سنده راو أو أكثر ، ولعـله السبب ألا يدون لا مسلـم ولا البخـارى كل أحاديث مالك . إذا لم يصح بعضها من وجهة نظرهما.

وقد أخذ بعض الفقهاء والعلماء مبدأ الحيطة والحـذر تجاه البخارى وصحيحه (صحيح البخارى) ، وانتقده حفاظ الحديث فى ١١٠ أحاديث ، منها ما اتفق فيهم مع مسلم ، ومنها ما انفـرد بها ، فقالوا إن بعض من روى عنهم ليـسوا ثقات ، فيـما كان بعضـهم «ممن تقبل دعوته ولا تقبل روايته»(٢٠).

أما مسـلم ، فأخذوا عنه عدم حـيطته فى الرواية حيطة البخـارى ، وأضعفوا رجـال مسلم أكثر مما أضعفوا رجال البخارى(٢١)

كان رأى العلماء ضروريا فى وقت أدت فيه المنازعات الـسياسية بين المسلمين بالبعض إلى وضع كل فريق أحاديث (منسوبة للنبى ﷺ) تؤكد أفضليته وحقه فى خلافة المسلمين . ووصف الفريق الآخر بالكفر والزندقة(٢٢). إضافة إلى أن هناك من أدخل أحاديث على

المسلمين بقصـد تفريقهم ، أو لمصلحة خـاصة. فقال حماد بـن زيد «وضعت الزنادقة على رسول الله أربعة عشر ألف حديث». من هؤلاء عبـدالكريم بن أبي العوجاء الذى قتله أمير البصرة سنة ١٦٠ هـ. قال قبل أن يقتلوه: «وضعت فيكم أربعة آلاف حديث ، أحرم فيها الحلال وأحلل فيها الحرام».

وقال أحـمد بن حنبل أن حـديث محمـد بن سعـيد حسـان الأسدى الشـامى «حديث موضوع». أما ابـن سمعان الهندى فقد قـتله خالد بن عبدالله القسرى لوضـعه أحاديث فى ألوهية على بن أبى طالب[٢٤]. وقال حماد بن سلمة: «أخبرنى شيخ من الرافضه (إحدى الفرق الإسلامية) أنهم كانوا يجتمعون على وضع الأحاديث».

أما مؤلـف كتاب (المفهم فى شـرح صحيح مسلم) (أبو العـباسى القرطبى) فـقد قال: «استجـاز بعض فقهاء أهل الرأى نسبـة حكم دل عليه القياس الجلى إلى رسـول الله نسبة قولية ، فيقولون فى ذلك قال رسول الله كذا».

والإمام الشافعى رفض كل الحديث وأقر واحد فقط هو «من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار». رغم هذا أصـدر كثير من الفقهاء تهمـة أسموها «إنكار السنة». السؤال الخطير.. حسب أرضيتنا المعرفية فى قـرننا هذا ، هو كيف يستطيع فقه اليوم إثبات حديث ما مر عليه ١٤٢١ عاما ، فى حين أن هناك من شك فـيه ولم يطمئن له بعد ما قيل بـ ١٥٠ عاماً فقط؟!

وليد طوغان

القاهرة.٢٠٠٤

E-Mail: WTOUGHAN @ Hot Mail. Com

الهوامش

ـ مراجع عامة للفصل:

(١) د. محمد شحرور: الكتاب والقرآن قراءة معاصرة. الطبعة الثانية ص ٤٠٠ وما بعدها. شركة المطبوعات للتوزيع والنشر. بيروت. ١٩٩٢.

(٢) وليد طوغان: عبادة الأهرام. أساطير الديانات السرية. مدبولى الصغير ١٩٩٨.

(٣) القرآن الكريم.

(٤) د. زكى نجيب محمود. المعقول واللامعقول من تراثنا الفكرى. دار الشروق. ١٩٩٢ المنطق والقضية المنطقية.

ـ مراجع خاصة:

(١) د. مصطفى محمود. الشفاعة (محاولة لفهم الخلاف القديم بين المؤيدين والمعارضين) . كتاب أخبار اليوم. يوليو ١٩٩٩. ص ٩٠ ، ٩١.

(٢) المرجع السابق. ص ٩١ وما بعدها.

(٣) مسند ابن حنبل.

(٤) الذهبى. تذكرة الحفاظ، ج١ ، ص٥.

(٥) الإمام ابن حزم. كتاب الأحكام ، ج ٢ ، ص ١٣٩.

(٦) المستشار محمد سعيد العشماوى. حقيقة الحجاب وحجية الحديث. مدبولى الصغير. ١٩٩٣ ص ٨١ ، ٨٢.

(٧) أحمد أمين. ضحى الإسلام ، ج٢ ، ص ١٠٦ وما بعدها.

(٨) زكريا البرى ـ أصول الفقه الاسلامى ـ ص ٤٩. المستشار العشماوى مرجع سابق ص ٩٣ ، ٩٤.

(٩) زكريا البرى ـ المرجع السابق. ص٥٠.

(١٠) المستشار العشماوى المرجع السابق. ص ٩٥.

(١١) نص فتوى الأزهر. منشور بجريدة الأحرار ، ٥ أغسطس ، ١٩٩٣.

(١٢) دكتور فنسنك ، كتاب مفتاح كنوز السنة ، تعريب محمد فؤاد عبدالباقى ، دار إحياء التراث العربى . بيروت ص ٤٠٦. وحديث الأئمة من قريش ورد فى مسند الطيالسى ، بينما ورد «الناس تبع لقريش فى هذا الأمر» فى صحيح البخارى.

(١٣) اختصار علوم الحديث ـ صفحة ٦٧.

(١٤) المرجع السابق. ص٧١.

(١٥) لسان الميزان. ج ٥ ، ص٧.٨. أحمد بن عبدالبر. التدريب. ص١٠٠.

(١٦) أحمد محمد شاكر - الباحث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث للحافظ ابن كثير. الطبعة الثالثة. ص ٢٠. ضحى الاسلام. أحمد أمين، ج٢

(١٧) أحمد أمين مرجع سابق. ج٢، ص ١٠٣.

(١٨) ابن جريج الرومي أول من توفي من هؤلاء. مات ١٥٠هـ. فلو مات عن ٨٠ عاما، يكون ولد بعد وفاة الرسول ﷺ بأكثر من سبعين عاما.

(١٩) خلدون الأحدب. الحديث المرسل: مفهومه وحجيته، دار البيان، جدة، ١٩٨٤.

(٢٠) أحمد أمين. ضحى الإسلام. مرجع سابق. ص ١١٦.

(٢١) المرجع السابق. ص ١١٨ (الموضوع نفسه).

(٢٢) اختصار علوم الحديث الحافظ ابن كثير. مرجع سابق.

(٢٣) المرجع السابق.